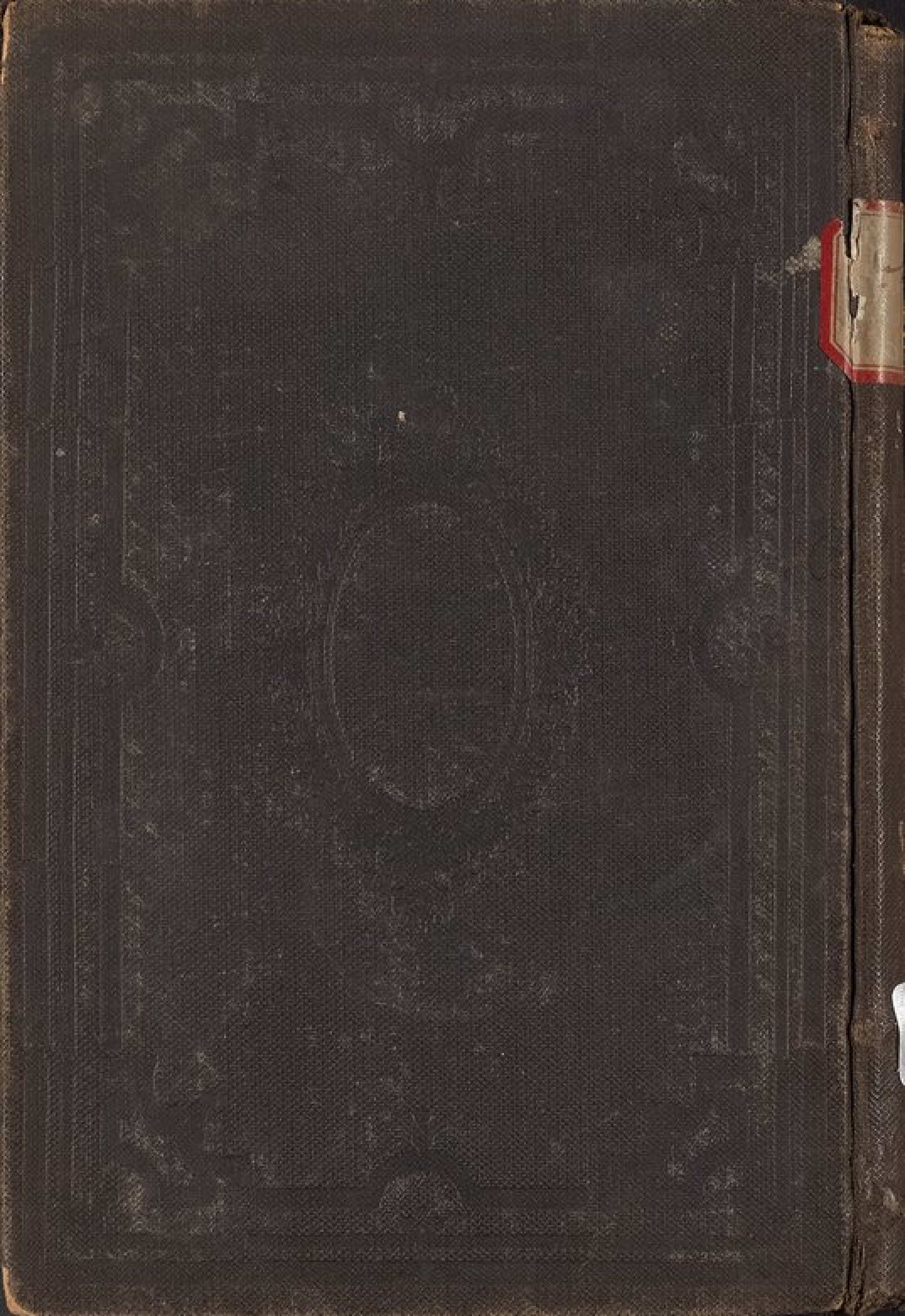
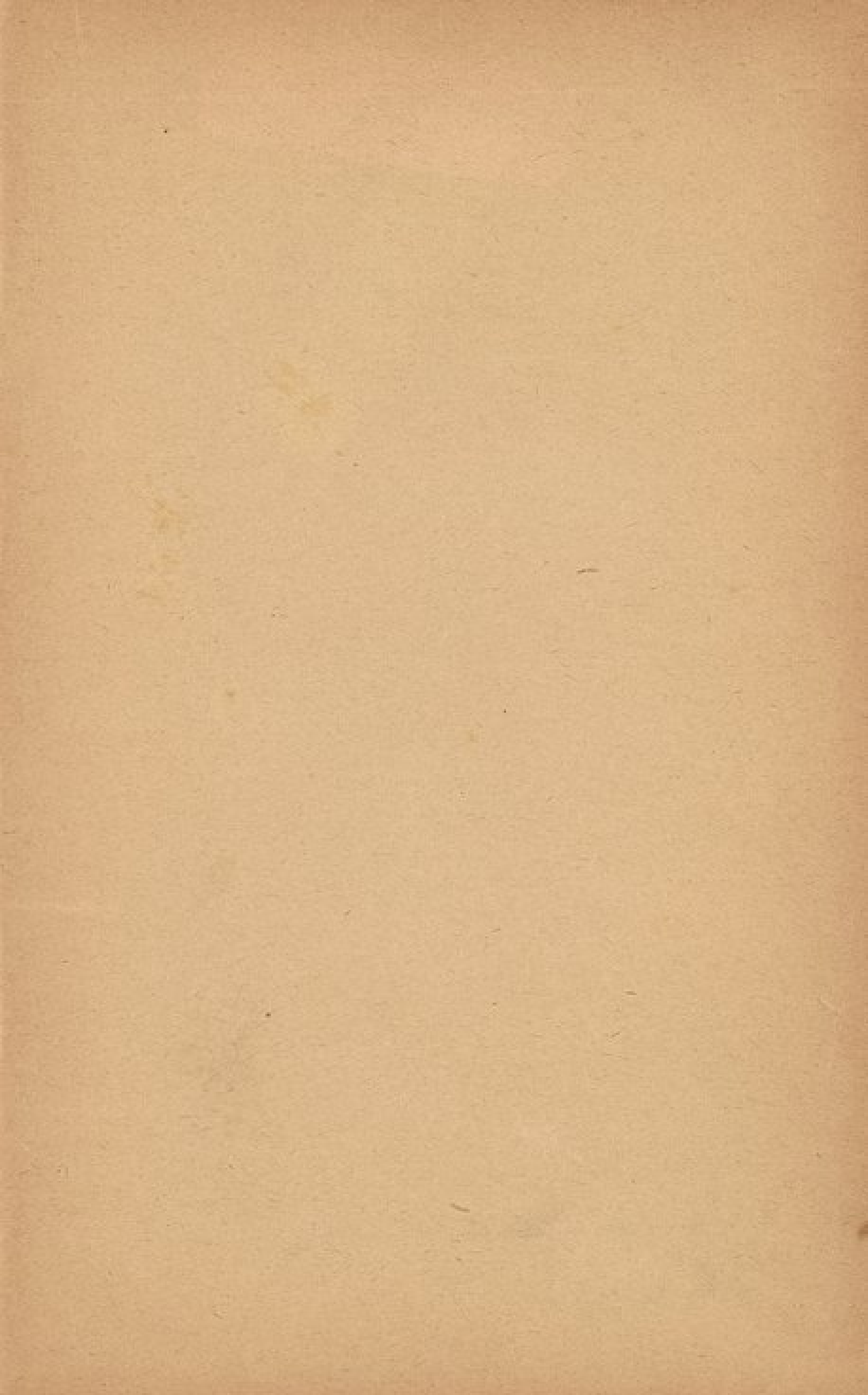
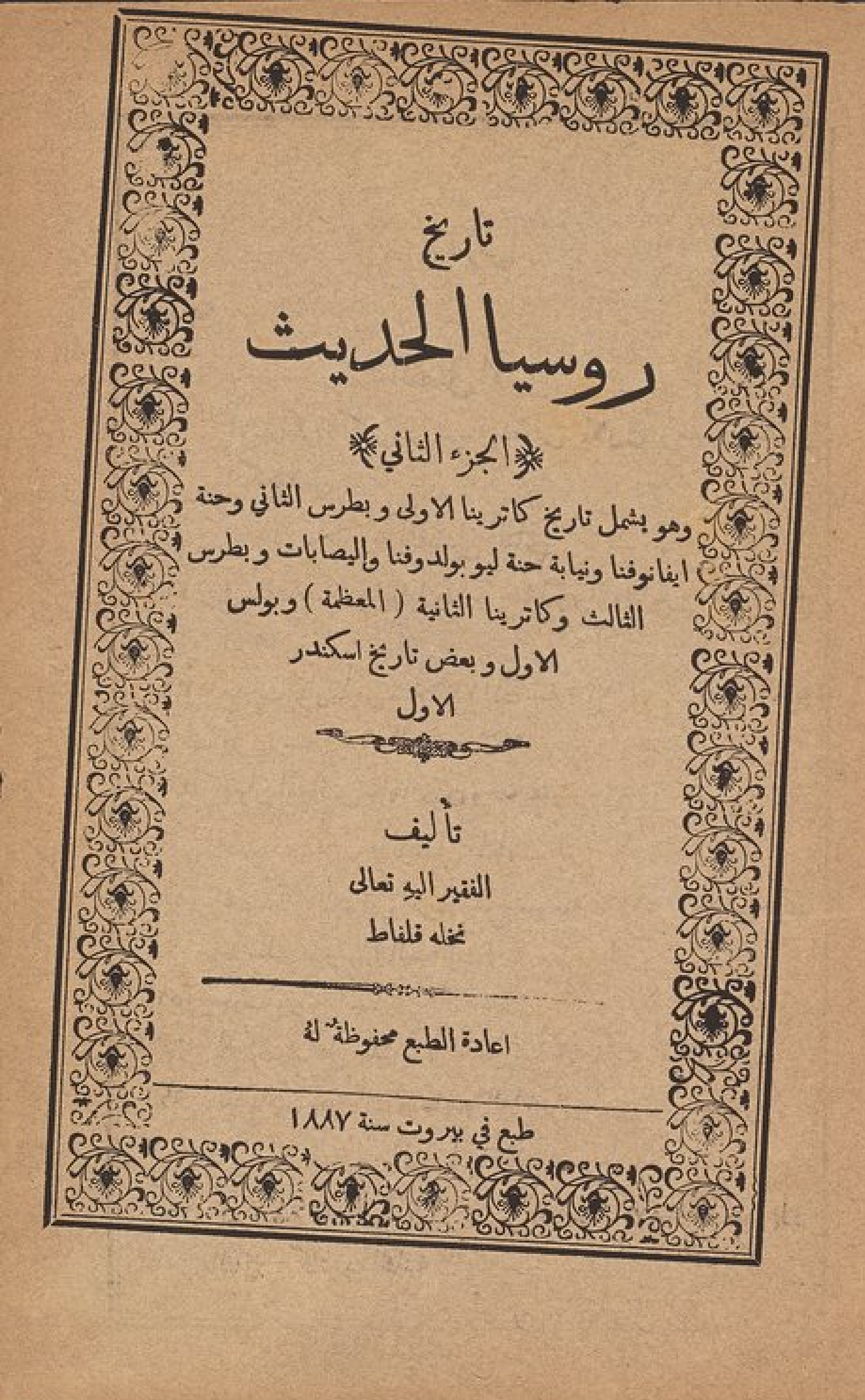


New History of
Russia
since
1887


Princeton University Library
32101 080890328





تاريخ
روسيا الحديث

الجزء الثاني

وهو يشمل تاريخ كاترينا الاولى وبطرس الثاني وحنة
ايفانوفنا ونيابة حنة ليوبولدوفنا واليصابات وبطرس
الثالث وكاترينا الثانية (المعظمة) وبولس
الاول وبعض تاريخ اسكندر
الاول

تأليف
الفقير اليه تعالى
نخله قلفاط

طبع في بيروت سنة ١٨٨٧

فهرس

وجه

الفصل الاول

٥ الامبراطورة كاترينا ارملة بطرس الاول وحفيدهُ بطرس الكسوفتش

الفصل الثاني

٢٢ في ملك حنة ايفانوفنا ونيابة حنة ليو بولدوفنا من سنة ١٧٣٠-١٧٤١

٢٩ ميراث بولونيا من سنة ١٧٣٣ الى سنة ١٧٣٥ وحرب الدولة العلية من سنة ١٧٣٥ الى سنة ١٧٣٩

٤٦ ايفان السادس نيابتا بيرن وحنة ثورة سنة ١٧٤١

الفصل الثالث

٥٦ انحطاط الالمانيين وحرب اسوج من سنة ١٧٤١—١٧٤٣ والحرب مع ملك بروسيا (اليصابات)

٥٩ حرب وراثة النمسا

٦٣ فتح الحرب على ملك بروسيا من سنة ١٧٥٦—١٧٦٢

٦٧ تنظيمات اليصابات وسياستها الداخلية والنفوذ الفرنسوي

الفصل الرابع

٧٤ ثورة سنة ١٧٦٢ وحكومة بطرس الثالث . الاتحاد مع فردريك الثاني — كاترينا الثانية

وجه

الفصل الخامس

٩١ في كاترينا الثانية وسنيها الاولى من سنة ١٧٦٢—١٧٨٠ ونهاية حرب السبع سنين والمداخلة في بولونيا
١٠٤ حرب كاترينا مع الدولة العلية سنة (١٧٦٧—١٧٧٤) تقسيم بولونيا الاول (١٧٧٢) ثورة الاسوج سنة (١٧٧٣)
١١١ طاعون موسكو سنة ١٧٧١ . بوكاتشوف الثائر سنة ١٧٧٣
١١٩ معاونو كاترين الثانية . الجمعية الكبيرة لوضع القوانين والشرائع (سنة ١٧٦٦—١٧٦٨)
١٢٢ تدبير وعدل ومهاجرة
١٢٥ في سني كاترين الثانية الاخيرة . بروتوكول في تشين سنة ١٨٧٩ اجتماع القرم سنة ١٧٨٤
١٢٩ حرب الدولة العلية الثاني من سنة ١٧٨٧—١٧٩٢ وحرب اسوج من سنة ١٧٨٩—١٧٩٠
١٤٨ اقتطاع بولونيا الثاني والثالث مجلس (ديات) غردنو . كوسثيزكو
١٦٦ كاترينا الثانية والثورة الفرنسوية وايران نهاية حياتها

الفصل السادس

١٦٩ سياسة الصلح وفتنة بولس الاول
١٧٥ محاربات في الجزائر اليونية وايطاليا وسو يسرا وهولاندا
١٩٠ جمعية المتعاهدين والبحث ضد الهند

الفصل السابع

١٩٨ اسكندر الاول وحربة الاولى مع نابليون . وقائع اوسترلتس

وجه
وابلو وفريدلند ومعاهدة تلميت
٣٤١ مفاوضة اورفورث والحرب مع انكلترا واسوج والنمسا والدولة العلية والعجم
٣٦٦ دوقية فارسوفيا العظمى اسباب الحرب الثانية مع نابليون






الفصل الاول

في

الامبراطورة كاترينا ارملة الامبراطور بطرس الاول
وحفيدهُ بطرس الكسوفتش

لدى مراجعة تاريخ بطرس الكبير وهو الجزء الاول من تاريخ روسيا الحديث يظهر للمطالع ما كان للامبراطورة كاترينا هناك من الشان وعلو المنزلة عند الامة الروسية باجمعها ما عدا النزر القليل منهم من الذين نشأوا على التعصب الديني ولم يخفَ على العالم قاطبة فضلها وحكمتها الثابتة ونالت بالتاريخ الروسي مكاناً رفيعاً لم يشبهُ قط شينٌ وقد سلكت على خطة الامبراطور المتوفي فقيدت خدم الدين ضمن دائرة الكتب المقدسة وطهرت البلاد من مفاسد بعض الرهبنات الاجنبية التي كان هو نفسهُ قد طردهم وابعدهم عن بلاده الروسية بقدر الامكان وقد ظنوا انهم يلاقون منها غير ما لاقوا منهُ وتوهموا ان تمليقاتهم تنفذ فيها كما تنفذ في غيرها من النساء ربات الجمال فوجدوا انها (لها جسم النساء نعم ولكن لها عقل الرجال ذوي السجايا) ومع كل هذا فلم تاتِ مقاومة القليل من اعدائها

وتنديدهم باعمالها لدى العالم التاريخي الا بما زادها رفعة وعلو شان . ومن الواجب ان نذكر باختصار ترجمة حياتها الى حين وقوعها بيد القيصر بطرس الاول قبل الدخول في الحوادث المهمة من حياتها الاخيرة

ولدت كاترينا الاولى سنة ١٦٨٧ بالقرب من مدينة دورباتيس الصغيرة الواقعة في شمالي ولاية ليفونيا وكان ابواها فقيرين جدًّا غير انهما تقيان سليما القلب وبعد ولادتها بزمن قصير قتل ابوها في بولونيا فلازمت والدتها المسنة في كوخ صغير قانعة واياها على البقاء على الفاقة والعيشة البسيطة وهي تشتغل ببعض اشغال نسائية للحصول على اسباب هذه المعيشة وعند فراغها من الشغل المذكور كانت تجلس بقرب والدتها تقرأ عليها بعض كتب دينية وهي على الدوام مشتغلة بما يثقف عقلها ويهذب نفسها وكانت تدرس على كاهن مسنٍّ وتسأله كل ما تراهُ قد اغمض عليها وتصغي الى نصائحهِ وارشاداتهِ فتلتقط من معارفهِ ماترى نفسها باضطرار اليهِ لاتمام رغائبها وتضرب عما توكد انهُ يضرُّ بحال الحياة الحقيقية بحيث لو تعلمتهُ ووعتهُ لخرجت على التعصب وكرهت قسماً كبيرًا من ابناء جنسها واضرتهم وربما كانت بقيت على الحالة الدينية التي كانت

عليها غير ان الفضيلة كانت لصيقة باميالها والحماسة الكريمة غريزة بها . ولما كمل بدر سنائها في سماء تلك الايام وذاع عنها ما هي عليهِ من كرم الطباع والاداب تقدم كثير من الفلاحين واصحاب الاملاك للاقتران بها فرفضت ذلك اذ لم يكن غيرها ملاذاً لوالدتها فيعولها في معيشتها وفضلت بقاءها بالقرب منها على الزواج غيرانها وهي في سن الخمس عشرة سنة توفيت والدتها فكدرها ذلك وحزنت عليها وهجرت ذلك الكوخ التي كانت تقيم فيهِ معها وجاءت الى الكاهن الذي كانت تستفيد منهُ وطلبت اليهِ ان يقبلها في عائلتهِ مربية لاولاده فسرَّ بطلبها

هذا وسلكت في مقامها الجديد بهمة ونشاط وحذق وكان اولاد الكاهن يتعلمون بعض علوم من اساتذة مخصوصين فاغتنمت هذه الفرصة ودرست تلك العلوم فزادت ادباً ونمت فيها جرثومة المعارف اكثر مما قبل وصرفت وقتاً على ذلك الى ان توفى الله ذاك الكاهن الشيخ فاضطرت كاترينا الى الرجوع الى الفاقة وضعف المعيشة ومع كل هذه المقاومة من الحياة كانت راضخة الى سلطان الطبيعة صابرة على مرّ عناد الايام وما كان يزيدها فقراً وضنكاً ارتفاع اسعار الماكولات

وتراكم المصائب ووقوف دولاب الاشغال الناتج عن الحروب الهائلة التي كانت متشبة في تلك الضواحي بين الروسيين والاسوجيين ولهذا السبب التزمت ان تبارح تلك المدينة وتقصد مرينبورغ متوهمة الرخص هناك وسعة الاعمال. فسافرت ماشية على قدميها رافعة على كتفها بقجة امتعتها الصغيرة متخللة الغابات والسهول التي كانت اوانئذٍ ساحة للحرب المتقدم ذكرها ولا يمكن لمن يتصور حالة سفر فتاة ككاترينا المذكورة وهي في سن الصبوة وعليها من حلل الجمال والبهاء ما يندر وجوده في غيرها من جنسها الاوتتعجب من قدومها على ركوب الاخطار وصبرها على احتمال مثل هذه المشاق غير ان المحنة علمتها عدم المبالاة وعودتها اقتحام المخاطر فلم تعبأ باتعاب هذا السفر الكثير المصاعب. وقد اجتازت وهي سائرة بكوخ صغير فلجأت اليه طالبة الاعالة والراحة فصادفت فيه جنديين من الاسوجيين ولما راياها وهي على ذلك الجمال منقطعة الى تلك النواحي طمعا بها وكلماها بكلام قبيح وهمّا باغتصابها فنادت مستجيرة فاسرع اليها ضابط كان مارًّا بالصدفة من هناك وانقذها من تلك الورطة الوبيلة وما لبثت ان رجعت الى الوراء متعجبة من العناية عندما رأت ان مخلصها هو ابن الكاهن معلمها الذي

صرفت وقتاً في بيتهِ فنزل من قلبها منزلاً عظيماً ومدحت شهامتهُ وكرامة اخلاقهِ واخبرتهُ بالحالة التي وصلت اليها والسبب الذي دعاها الى التوغل في كل هذه المشاق فرقَّ لها وامدها ببعض دراهم واشترى لها ثياباً واكترى لها حصاناً وحملها رسائل توصية الى والي مرينبورغ صديق ابيهِ الكاهن المتوفى

ومنذ ذاك اليوم اخذت تتقدم وتكافى المكافاة التي استحقتها جزاء على صبرها وان تلاقي بالتدريج ما تخبأ لها في زوايا الزمان من السعادة والاقبال . فلدى وصولها الى ماريتبورغ قبلها الوالي في الحال معلمة لابنتيهِ وكانت اهلاً لذلك وكان جمالها وادبها ولين طباعها كافية لان تجذب الوالي الارمل ان يطلب اليها الاقتران بها فلم تجبهُ مصممة ان تقترن بالضابط الذي انقذها من الفضيحة وحفظ ناموسها قياماً بفريضة الامتنان لغيرتهِ عليها مع انهُ كان فاقداً احدى ساعديهِ ومشوهاً بعدة جراح اصابتهُ في ميدان القتال وبناء على هذا التصميم نويت زواج الضابط المذكور عند عودتهِ الى المدينة والمعيشة معهُ بالهناء لكن لحسن حظ هذه الفتاة اتفق ان الروسيين فاجأُوا المدينة في ذاك اليوم فدعي الضابط في الحال الى الدفاع عنها فكان من امرهِ انهُ صادف حينهُ قتيلاً تاركاً عروسهُ التي لم يقترب

منها وما برح الروسيون حتى دخلوا المدينة عنوةً (راجع وجه ١٢٧ من الجزء الاول اي تاريخ بطرس الكبير) وبعد استلام المدينة أُخذت كاتريا اسيرة مع غيرها من الاسارى وصادفت حظًا عجيبًا فانها كانت وقعت بيد جندي بادىء بدء فاشتراها منهُ منشيكوف القائد الروسي وسلمها الى اختهِ فعوملت معاملة حسنة سهلت لها رجوع رونقها وصفاء جمالها ومن ثم زار بطرس القائد المذكور فدخلت عليهِ ورفعت لهُ بعض اثمار بحشمة ووقار فأخذ بجمالها وعاد في اليوم الثاني فامتحنها وتعجب من حسن آدابها وذكائها وتزوج بها سرًا ثم اعلن زواجه بها بعد ذلك بمدة طويلة (راجع صفحة ٢٠٨ وما بعدها من تاريخ بطرس) وقد حسنت في عينيهِ جدًا وساعدتهُ في ادابهِ واعمالهِ وخلصتهُ مع جيوشهِ في واقعة البروث عند حربهِ مع الدولة العلية واخيرًا قبل موتهِ البسها التاج الامبراطوري باحتفال عظيم (راجع وجه ٢٨٦ وما بعده من تاريخ بطرس المذكور) فتلك التي كانت تجلس منذ كانت صغيرة بجانب موقدة من الحجارة توقد فيها الحطب لتصون نفسها من صبارة البرد وهي على تراب الارض ملتصقة بوالدتها العجوز اصبحت جالسة على عرش روسيا العظيم ملتصقة بالرجل الاول في

عالم ذاك الزمان وهكذا ايضاً اصبحت تلك التي لاقت من الفاقة والجوع وضيق المعيشة ما لاقت وهربت من شدة الضنك من بلد الى اخر ماشية على قدميها وغبار الطريق يكسو شعرها اللطيف و وجهها الناعم وعلى كتفها بقجة ثيابها الرثة التي ربما كانت مؤلفة من قميص ممزقة وفسطان مرقوع وغير ذلك قادرة ان تعول الوفاً ومئات الوف وعلى راسها ذاك التاج القيصري المرصع بالحجارة الكريمة تحمل على عاتقها مهام ملايين من الانفس وقد بدلت تلك الثياب بثياب ملكية خزية وديباجية فسبحان من بيدهِ تدبير الامور يتصرف بعبادهِ كيف شاء فهو القدير العليم

وبعد ان توفي بطرس زوجها في سنة ١٧٢٥ دارت مباحث بين الاحزاب التي كانت فترت قبل ذلك واغتنم كثيرون الفرصة بالمداخلة في امر الاحكام وكان كل الذين ينددون باعمال بطرس في حال حياتهِ ويطلبون بقاء روسيا على الحالة القديمة وكل الذين قد اجهد نفسهُ بابعادهم عنهُ وحط شوكتهم واماتة نفوذهم جهدوا في ذلك الوقت ان يكون لهم شان بهام الاعمال فخالفوا كاترينا واتحدوا مع المخالفين من الاساقفة والاكليروس وهكذا انقسمت الآراء في روسيا الى قسمين

متضادين الاول وهم جماعة روبنين ودولغروكي وغاليتسين وكل روسيا القديمة تقريبًا وكانوا يطلبون قيام بطرس الثاني بن الكسيس المحكوم عليهِ بالقتل وحفيد بطرس الاول على عرش روسيا وانهُ وأن كان بدرجة القاصر حيث ان عمره اوانئذٍ ١٢ سنة فيمكن انتخاب وصي لهُ من امرآء الدولة . والقسم الثاني وهم الذين كانوا مديونين بالجميل لبطرس الكبير ومنهم الامير الكبير منشكوف والامير ابركسين والجنرال بوترلين ورئيس الحرس الوطني وغولوفكين حامل اختام الدولة وكاتب اسرارها وياغوجنسكي مدعي عمومي ديوان الملك واوسترمان الالماني وتولستواي والمطران فيفان واعضاء المجلس الذي حكم على الكسيس بن بطرس الكبير بالموت جميعهم كانوا يطلبون استقرار كاترينا الاولى على تخت روسيا ويوكدون ان لاسلام لهم ولا امان على مراكزهم الّا بالمحافظة على الحالة الحاضرة وبقاء رفيقة سيدهم وولي نعمتهم

ولما كان الحزب الثاني المتقدم ذكرهُ لايزال قابضًا على ازمة الامور وبيدهِ مقاليد المناصب العالية واليهِ مرجع القوة العسكرية كان قويًا جدًا ونافذًا في سلطتهِ على البلاد وبعد مشاحنات طويلة ومخابرات وتحزبات كثيرة الفت لجنة للبحث في هذا الامر

والوفاق على احد الامرين ولدى الاجتماع طلب ديمتري غاليتسين ان يختص بالتاج الملكي بطرس الثاني المتقدم الذكر لانهُ الوريث الوحيد لكنهُ يكون تحت وصاية كاترينا وملاحظتها وعنايتها وانهُ لا يمكن ان تكون وحدها مستبدة بالعرش الروسي متصرفة باحوال الامة لاسباب . اولاً كونها امرأة غريبة عن الجنس الروسي وليست من العيال الشريفة . ثانياً كونها اسيرة اخذت اثناء الحرب بصفة حقيرة جداً . ثالثاً انها زوجة ثانية لبطرس وبالكاد تكون معتبرة كامرأة قانونية شرعية . فخالفهُ في ذلك تولستواي وجاهد مع احزابهِ كثيراً قائلاً ان الامبراطورة الارملة قد تكللت بالتاج الروسي بطريقة علنية على رؤُوس الاشهاد وقبلت يمين رعاياها منذ زمن زوجها وهي عارفة بكل اسرار الدولة ومطلعة على داخل الامور وخارجها وقد تعلمت فن الحكم والعدل من زوجها وشربت كل اخلاقهِ ومباديهِ فاصبحت كانها هو نفسهُ وان ضعة قدرها السابق ووقوعها اسيرة بيد الروس لا يحط من شانها بعد ان ثبت وجودها امبراطورة متوجة بيد الامبراطور في الكنيسة بمرأى منكم ولبسها هذا التاج دليل كافٍ على ان حضرة زوجها المرحوم كان قد اوصى لها بالملك من بعده ومن

الواجب على الامة الروسية الامينة ان تعتبر ذلك اعتبارًا مقدسًا . ولهذا فمن اللازم ان تستبد وحدها في الحكم وان تكون صاحبة النهي والامر وان يكون بطرس الثاني وليًا للعهد من بعدها

ولما لم يقع اتفاق بين الاحزاب المذكورة افضى الامر الى حمل السلاح ووقوع الاحوال في حالة فوضى وحدث هيجان عظيم في بطرسبرج الاَّ انهُ لم يلبث طويلاً حتى زال بتغلب احزاب كاترينا حيث ان الامير مانشيكوف الذي كان ذا قوة كافية وكان من احب الناس الى كاترينا صرف النفوذ الى مساعدتها وعضدها ففاز بالغاية وقهر اميال اعدائها . ولا عجب من هذا التغلب . لان كاترينا وعاضديها كانوا فضلاً عن وجود القوة الاجرائية بايديهم هم اصحاب تدبير وسياسة حسنة جدًّا وارباب معارف وفنون حربية وادبية بخلاف مضاديهم الذين كان اكثرهم من المحافظين على العوائد القديمة والمبادي الخرافية يجهلون الدخول من ابواب السياسة الموافقة لهم ليحسنوا تدبير امورهم ونفوذ كلمتهم

فاستقرَّت على عرش روسيا وانفردت فيهِ واجرت كل ما يوافقها اجراؤهُ واحسنت معاملة احزابها واضدادها وسلكت

مسلك الحكمة والكمال فصرفت اياماً على الراحة والسكينة غير
ان اولئك الذين ساعدوها ما لبثوا ان اصيبوا بداء الشقاق
حيث ان مانشيكوف الذي كان متقدماً جداً من الامبراطورة
وحائزاً على النفوذ العظيم في روسيا اجتهد بان يحط من قدر
رفاقهِ لان خلقة الفاسد وطبعهُ الظالم جعلاهُ مكروهاً منهم
فعاملهم بقساوة اوجبت ياغوجنسكي ان يذهب حزيناً باكياً على
قبر القيصر المتوفي وهو بطرس الاول وأُرسل تولستواي الى
سيبيريا مبعداً عن العاصمة وقبل ان تتم اعمال مانشيكوف وعت
اليهِ كاترينا وادركت الشقاق الواقع بين افراخ النسور فاوقفت
اعمالهُ وقاومت مطامعهُ ورفضت ان تجعل مستشاريها عرضة
لمطامعهِ وغاياتهِ وجعلت حداً لهذا الخلاف

ففي سنة ١٧٢٦ فتحت مجلس المعارف وكان لهُ اعضاء من
فطاحل العلماء عينت لهم المرتبات وصرفت لهُ الاموال الكافية
للسعي خلف الاكتشافات النافعة المفيدة واقامت القبطان
بهرنك رئيساً للشعبة العلمية التي ارسلت الى كومتشتكا وارجعت
شافيروف الذي كان منفياً واعهدت اليهِ بادارة تاريخ
زوجها بطرس الكبير وابطلت مجلس الاعيان واضاعت
القاب المجمع المقدس وجعلت اشغال الدولة عائدة الى مجلس

شوراها السري الذي الفته تحت رئاستها من الامير مانشيكوف
والاميران ابركسين وحامل الاختام كولوفكين وتولستواي
وديمتري غالتسين واوسترمان الالماني وبهذا كانت قادرة ان
تجمع بين احزابها واضدادها وان تطلع على كل اسرار الدولة
وتعرف ما يلزمها معرفتهُ من اجراءات شعبها واقامت في حكمها
هذا نحو ثلاث سنوات تقريباً حيث توفيت سنة ١٧٢٧ عزيزة
وكانت ايام حكمها ايام سلام ولم تجرِ حرباً قط وقبل مماتها اوصت
بالحكم الى بطرس اليكسوفتش حفيد زوجها واذا قضي على
بطرس المذكور قبل بلوغهِ يعهد بالحكم الى بنتيها الاثنتين حنة
دوقة هولستين ثم اليصابات وعينت ايضاً انهُ ما زال بطرس
المذكور قاصراً تكون النيابة بيد مجلس خصوصي يتركب من
القيصرتين حنة واليصابات ومن دوق هولستين ومانشيكوف
ومن سبعة او ثمانية من اعيان المملكة وموظفيها الاوائل

وفي تلك الاثناء كان الامير مانشيكوف يزيد طمعاً
بالعظمة وسكر بخمرة نفوذه العظيم حتى تطرف بكل اعمالهِ
وجعل كاترينا قبل وفاتها ان تصادق على وجوب خطبة بنتهِ
من الملك الصغير ليكون صهرهُ مع ان بنتهُ كانت اكبر من
بطرس الثاني المذكور بسنتين وبذلك حصر اقامة هذا الخطيب

في قصره وتحت عنايتهِ واحاطةُ باناس خاضعين لسلطتهِ وقصد
ان يعوّده الانفراد ومعاشرة بنتهِ ليبتدي وهو بدرجة التراهق
ان يتغاضى عن اعمالهِ وعن مراقبتهِ وان يترك الاهتمام بامر الدولة
فيدبر ما يطيب لهُ تدبيره وزاد على كل هذا بان دعى نفسهُ
قائد القواد وصاحب الامر ووقع على المكاتيب الخاصة
التي كان يبعث بها الى الملك بهكذا (ابوك ، مانشيكوف) واعظم
من هذا جميعهِ فقد وضع بالتقويم السنوي الذي كان يطبع ويوزع
في كل عام اعضاء عائلتهِ مع اعضاء العائلة الملكيةِ قاصداً
بذلك ان تكون البلاد الروسية تحت مناظرة عائلتهِ على الدوام
ويكون لفروعها حق التملك والارث بالعرش الروسي واصرَّ في
ذهنهِ على تزوج ابنهِ بالاميرة ناتاليا الكسينا اخت بطرس الثاني
الامبراطور الحالي . وهكذا كانت هذه الاعمال مع غيرها ثقيلة
جداً على عاتق بطرس وبدأ وهو يتدرج بالسن ان يشعر بها
وطلبت نفسهُ شيئاً فشيئاً الخلاص منها فكره في الدرس والعلم
والف العمل على الصيد والانفراد بنديمهِ ايفان دولغروكي

ولما كان اوسترمان الالماني ملازماً الامبراطور كاستاذ
لدروسهِ وقد لاحظ نفورهُ منهُ وادرك ان ذلك هو بسبب
توهمهِ انهُ من عصبة مانشيكوف وعلم انهُ اخذ في ان يكرههُ استغنم

الفرصة للانتقام منهُ وجعل يطرح لدى بطرس الثاني اخبار
كره الناس لمانشيكوف وقتًا بعد وقت ويوغر صدره عليهِ حنقًا
حتى زاد في بغضهِ . وذات يوم أرسل الامبراطور هدية لاختهِ
ناتاليا بمقدار تسعة الاف ريال روسي فاسرع مانشيكوف بجسارة
كلية الى استرجاعها من الاميرة المذكورة مدعيًا ان اخاها لا يزال
محجورًا فلا يحق لهُ التصرف بدراهمهِ ولا يسمح لهُ باهداء مثل
هذه الهدية . فعمل مانشيكوف هذا مكَّن ايفان دولغوروكي
من ان يُخجل سيدهُ ويسالهُ التخلص من ظلم قائد القواد . وكانت
اليصابات بنت بطرس الكبير وعمة الملك الحالي من الداعداء
مانشيكوف وهي اذ ذاك بنت ١٧ سنة ذات وجه بشوش طلق
ولون قرمزي وعيون زرقاء تستعمل المزاح في اكثر اوقاتها غير
انها كانت صاحبة راي حسن وتدبير خطير كما سياتي عند الكلام
على استيلائها على عرش روسيا . فهذه علمت بطرس كيف
يخرج من تحت هذا النير وسهلت لهُ الطريق حتى انهُ حالما
علم ان مانشيكوف منحرف الصحة ترك بيتهُ وجرَّدهُ من اثاث
الملك ليوثث بهِ القصر الامبراطوري المختص بهِ وعامل خطيبتهُ
ببرود ثم بالانقطاع واعلن عدم اعتبار اوامر مانشيكوف وفي
النهاية توقف مانشيكوف وجرّد من كل وظائفهِ والقابهِ ونياشينهِ

ونفي في ايلول (سبتمبر) سنة ١٧٢٧ الى اراضيهِ في بيريزوف من سيبيريا حيث مات هناك سنة ١٧٢٩

فاغتنم احزاب دولغروكي الذين كانوا ثاروا اولاً لعضد بطرس الثاني هذه الفرصة للتقرب من الامبراطور واحتاطوا بهِ من كل الجهات ومنعوا تقرب غيرهم من الاحزاب اليهِ وحازوا على النفوذ الاولي وتمكنوا من ابعاد كل الذين كانوا يشكُّون بصداقتهم كاوسترمان والامبراطورة العجوز افذوكسيا لابوكين زوجة بطرس الاول اذ كانت ارجعت في ايام كاترينا من حبس لادوغا واعرضوا على الملك خطيبة جديدة وهي كاترينا دولغروكي اخت نديمهِ ايفان وتوصلوا اخيراً الى ان حملوهُ على ان يفكر بنقل كرسي روسيا من بطرسبرج الى موسكو ويهتم بهِ املاً بدوس وصية بطرس الكبير ومحو مقاصدهِ . فضعف حالة الملك وقصر عقلهِ مكنهم من ان ينفذوا في الدولة سهم اغراضهم كما كانوا يطلبون ويرغبون واوصلوا الامبراطور الى حالة اشد ثقلاً بكثير من الحالة التي كان بها على زمن منشيكوف حتى ان عمتهُ اليصابات شكت اليهِ مرة انها متروكة بغير دراهم فاجابها ان لا ذنب عليَّ في هذا حيث ان اوامري تذهب ذري الرياح ولكني ساجد واسطة للتخلص من قيودي . وكان كثيراً

ما يذهب ضجراً للصيد فيقيم اسبوعاً او اكثر الى ان فاجأهُ الاجل المحتوم من جرى برد اصابهُ اعقبهُ داء الجدري فقضى وهو حزين وكانت مدة حكمهِ نحو سنتين تقريباً وفي سني حكمهِ وحكم كاترينا اجري في روسيا ما ياتي

عقدت معاهدة مع النمسا في سنة ١٧٢٦ على الدفاع والهجوم ولم تطل عرى هذه المعاهدة اكثر من سنة حتى كادت تنسحب منها كاترينا المذكورة ولهذا السبب قضت سياسة الدول المتحدة ان تمنع وقوع الزواج الذي كاد يتم بين لويس الخامس عشر واليصابات وفتر الحب بين دولتي فرنسا وروسيا واهم ما حدث في هذا الزمن القصير ان موريس دي ساكس ابن الملك اوغسطس غير الشرعي اراد ان يجرب نفسهُ بارتقاء سلم النجاح وطمع بان يستولي على دوقية كورلاند وكان قد اغرى حنة ايفانوفنا المترملة ان تتزوج بهِ وبدون ان يحسب حساباً لعواقب الارتباكات السياسية والمجاعات الواقعة جيَّش جيوشاً بدراهم كان قد حصل عليها من مبيع مجوهرات رئيسة دير كيدلمبور ومن مشخصة روايات فرنسوية وغيرها وبعد ان تم عملهُ اهتم بان يجعل الدوقية بحالة الدفاع . فانكر عليهِ ابوهُ هذا العمل وخالفهُ عليهِ وزجرهُ لاجلهِ فلم يرعوِ عن غايتهِ فسارت

ثمانية الاف روسي تحت قيادة الجنرال لاسكي وطاردت هذا الخارج وبددت شمل المتجمعين حواليه والتزم ان يفرّ هربًا ولم يقبلهُ أبوهُ بل عاملهُ كرجل شقي وسقطت كورلاند ثانية تحت حكم الروسيين

وعقدت في زمن بطرس الاول معاهدة بينهُ وبين بروسيا مآلها ان الدولتين تلتزمان عند موت اوغسطس ان تتعاضدا بمنتخب جديد لبولونيا ففي ذاك الزمن اخذ الامبراطور شارل السادس ان يخابر روسيا مخابرة ابتدائية بشان تقسيم بولونيا وهذه كانت المرة الاولى التي لاحت بها مطامع تلك الدول الى سلب جارتها حيث كانت على الدوام مشغلة بها ومتعبة من جهتها

وفي اسيا عقد ياغوجنسكي مع مملكة السلست باسم بطرس الثاني معاهدة تجارية تؤذن لقوافل روسيا في كل ثلاث سنوات الذهاب الى بيكنغ فتبيع بضائعها وتبتاع خلافها بدون دفع رسم تجاري اونحوه وان تضع روسيافي تلك المدينة اربعة رهبان وستة شبان ليتعلموا اللغة الصينية وان تكون كياهتا محطًا للروسيين ومخزنًا لبضائعهم وماي تشين في الارض الصينية محطًا للتجار الصينيين ومخزنًا لبضائعهم وكلتا المدينتين تجاه

بعضهما على حدٍ واحدٍ فاصل بين حكومتي المملكتين

الفصل الثاني
في
ملك حنة ايفانوفنا ونيابة حنة ليوبولدوفنا
(من سنة ١٧٣٠ ــ ١٧٤١)

لما كان موت بطرس الثاني غير منتظر من العالم الروسي لم يتمكن بحسب عوائدهِ من التحزبات والتجمعات لقيام ملك على روسيا عوضاً عنهُ ولا سيما ان الظروف في ذاك الحين كانت تقضي عليهم وتدعوهم الى الانشقاق . وذلك لسبب انقطاع الذكور من اولاد بطرس او احفادهِ ولكون كلاً من بنتي بطرس تود لبس التاج وهما اليصابات وحنة دوقة هولستين ظناً منهما انهُ لم يكن من حق لغيرهما بالقبض على صولجان الملك وكانت حنة ترغب في ان تسهل لابنها بطرس الذي ولدتهُ من دوق هولستين طريق التملك والانتظام في سلك اصحاب الحقوق بالكرسي الروسي (وهذا سيملك فيما ياتي تحت اسم بطرس الثالث) وكان باقٍ من ايفان اخي بطرس الكبير بنتان وهما حنة دوقة كورلاند وكاترينا دوقة مكلمبرغ

فلدى موت بطرس الثاني وانقطاع النسل الملكي من الذكور اخذت الاراء في ان تكثر وتتشعب وكل واحد يطلب تنصيب من يرغب فيهِ حتى ان البعض طلبوا ان تقام امبراطورة على البلاد الروسية افذوكسيا لابوكين المسنة زوجة بطرس الكبير المطلقة · ووصلت القحة بدولغروكي ابي نديم بطرس الثاني ان يطلب الملك لابنتهِ كاترينا التي كانت مخطوبة من الامبراطور ولم يتسنَّ لها ان تتزوج بهِ وزعم ان خطيبها قد اوصى لها بان تكون الوريثة الشرعية لهُ فهذا الطلب لم يصادف نجاحًا ولا اعتبر من المجلس العالي السري ورفض باحتقار وسخرية من الجميع حتى ومن اكثر احزاب دولغروكي حيث انهم راوا ان لاحق لخطيبة الملك ان تحكم مع وجود غيرها من اخوتهِ وعماتهِ وبنات عم عماتهِ اللاتي هنَّ بلا ريب من نسل ملكي فضلاً عن انهم كانوا لا يريدون ان يكونوا رعايا لاحدى بناتهم · واجتمع المجلس السري لهذه الغاية عدة جلسات بغياب اوسترمان الالماني اذ كان لا يرغب بالانضمام اليهِ مع علمهِ بضعفهِ وقلة اصابتهِ بالامور واضيف اليهِ الماريشالان دولغروكي وغاليتسين · وفي النهاية اتفق المجلس المذكور وقرر وجوب تقييد السلطة المالكة فتصبح الحكومة حكومة مقيدة او بالحري اشبه بجمهوريات

تلك الايام ويكون للروسيين نوع من السيادة والحكم في القضايا المهمة وكانت اليصابات وحنة بنتي بطرس اقرب الجميع من العرش الملكي غير انهما كانتا ابعد الكل الى التسليم بالشروط التي اقترحها هذا المجلس العالي ومن اجل هذا وجب الالتجاء الى خلاف غصن من عائلة رومانوف اي بنتي ايفان وان يقدم التاج الى احداهما حنة ايفانوفنا مع انها لم تكن تامل بهِ قط ولا تظن انها تحصل عليهِ الى ان دعيت الى المجلس المذكور ذات يوم وخيرت اما ان تقبل التاج الملكي على ما ياتي من الشروط او ترفضهُ. فقبلت اقتراح المجلس مظهرة الامتنان وتليت عليها الشروط الاتية وهي

اولاً. ان المجلس العالي يتالف على الدوام من ثمانية اعضاء ويتجدد باتفاق اعضائهِ انتخاب كل عضو ينفصل عنهُ والامبراطورة ملزومة ان تستشيرهُ بكل اشغال المملكة

ثانيًا. بدون رضى المجلس المذكور لا يحق لها ان تفتح حربًا او تعقد صلحًا مع احدى الدول ولا تقيم او تشتري فرضة او تبيع اقل ملك من املاك الدولة ولا تدعو احدًا الوظيفة ولا يسمح لها ان تعطي رتبة او لقبًا لمن هو فوق رتبة كولونيل (اميرالاي)

ثالثًا . لاتحكم على احد ولا تجري حكمًا على شخص قط من الامراء والشرفاء ولا تضبط اموال واحد منهم قبل ان يكون قد حكم عليهِ قانونيًا

رابعًا لايسمح لها ان تتزوج او تنتخب خلفًا لها بدون راي المجلس ومصادقتهِ واختيارهِ . انتهى

ولما وقعت حنة على هذه الشروط أُلزمت ان تكتب فوق توقيعها الجملة الآتية (أني عن رضى واختيار قبلت هذه الشروط وان كنت لااقوم بها او انقض احدها اكون محرومة من التاج الملكي الروسي) فلو ان هذا المقصد تحقق واخذ مكانًا قويًا في روسيا وانفذ نفوذًا دائمًا لاصبحت حكومة روسيا على الدوام مقيدة واوقف ذلك تقدمها ونموها والدليل ان رجالها كثيرو الاراء ينقسمون الى اقسام وكل قسم على مذهب وان المجلس العالي السري الذي تألف لم يكن من عموم البلاد الروسية ومن ولاياتها ولا من امراء قطيعاتها بل اصبح منذذاك الوقت مولفًا من عائلتي دولغروكي وغالتسين اي اربعة رجال من الاولى واثنين من الثانية وعليهِ فقد ادخلت حنة في قبضتيهما واصبحت ملزومة بان تكون لديهما ملكة مقيدة

وبعد ان استقرَّ راي المجلس العالي بان يسلم التاج الى حنة

ايفانوفنا اي بنت ايفان المتقدم ذكرها ارتأى ان يشهر ذلك ويعلنهُ بجمعية عامة تولف من نحو ٥٠٠ نفس من اساقفة وكهنة ورؤساء وأمراء ومتوظفين ويجرب ان يعرض عليهم الشروط الموقعة منها ويرى ما يكون وبماذا يجيب اولئك المتجمعون وهل يصادقون او يوقعون على مثل هذه الشروط التي تصوروا انها وحدها كافلة لراحة روسيا في الحال والاستقبال وتقيد ملوكهم وتمنعهم من الاستبداد . فاجتمع اولئك بطلب المجلس المذكور . وقد كتب المطران فيفان ما ياتي . انهُ لدى اجتماع نحو خمسمائة ذات من اعيان روسيا وقوادها واساقفتها تليت عليهم الشروط الموقعة من حنة ايفانوفنا واحداً فواحداً وكانت تعلو وجوههم سمة الاضطراب وعدم الرضى الاَّ انهُ ما من واحد منهم قدر ان يفوه بكلمة معارضة او امتنع عن ان يضع توقيعهُ فكجمهر بلداء آذانهم مرخية انقادوا الى طلب المجلس العالي ووقعوا على الشروط. انتهى . وبالطبع ان اهالي روسيا لم يكونوا قد اعتادوا على الحكومة المقيدة ولا عرفوها قبل ذلك الحين ولذلك خافوا منها ونفرت قلوبهم من دوامها فوقعوا عليها حالاً تحت نية ان ينقضوها بعد قليل من الايام عندما يتمكنون من التجمع والبحث فيها بجمعياتهم الخاصة ولم يتأنوا ومو اطلب المجلس العالي المذكور بنقل كرسي الملك

من بطرسبرج الى موسكو بل اعتبروا ذلك تابعًا لاستبداد المجلس فسلموا بهِ موقتًا

وبعد انفضاض تلك الجمعية العامة ادخلت الامبراطورة الجديدة حنة الى موسكو باحتفال عظيم محاطة بباسيلي لوكيتش دولغروكي ورفقائهِ وهم يكثرون من الحرس الوطني حول امبراطورتهم غيرة منهم وخوفًا من وقوع حادث يمنع نفوذ ما ربهم وليظهروا لها حبهم وميلهم الى شخصها اجلسوها على كرسي موسكو واستلمت ازمة الاحكام على حسب الشروط المتقدم ذكرها وهي ترى نفسها مقيدة وما لبثت ان شعرت بثقل تلك الشروط التي وقعت عليها وصارت تتمنى التخلص منها والسعي في سبيل دوسها تحت اقدامها ولا سيما عندما رات لها معينين من الشعب اكثر عددًا واقوى نفوذًا من رجال المجلس العالي فانهضت همتها لذلك وبدأت تشغل بهِ . وكان غير الراضين من هذه الشروط وفي مقدمتهم المطران فيفان نهضوا الى ان يبيدوا او بالحري يعطلوا الحكومة المقيدة وان يعيدوا الحالة التي كان بطرس الكبير قد وضعها لهم واوصاهم بالمسير عليها الى حين يسمح الله عزَّ وجلَّ فاخذوا في ان يجمعوا الجمعيات ويخطبوا الخطب المضادة لغاية المجلس ويهيجوا الكهنة والاساقفة واتخذوا

كامل الوسائط ليوصلوا للملكة تذاكرهم ورسائلهم ويعرفوها بمطالبهم وغايتهم الموافقة لها ويلزموها ان تنهض بشهامة وحمية وتدفع عنها ذاك الثقل الذي حملته بالرغم عليها فكانت تتلقى تلك الرسائل بفرح وتعد بانها تكون في المقدمة وانها تمزق تلك الشروط

ففي ٢٥ من شهر شباط (ففريه) سنة ١٧٣١ بينما كان اعضاء المجلس العالي بجلسة دعيوا بغتة للحضور امام الامبراطورة بداعي اشغال مهمة ولما امتثلوا امامها امرتهم بالجلوس فجلسوا ينتظرون ماذا تريد منهم الاَّ انهم اندهشوا لما راوا اكثر من ثماني مائة رجل من اعيان روسيا واساقفتها قد تجمعوا ودخلوا على الامبراطورة بغتة وقدموا لها استدعاء يطلبون بهِ فحص اعمال المجلس العالي ويشكون من تطرفهِ بالاستبداد وتصرفهِ بحرية في كل الاجراءات حتى انهم داسوا القوانين الجديدة المريحة للشعب الكافلة تقدم البلاد وتمدنها واذ كان هذا العمل بتواطئ وتصنع بين الامبراطورة ومقاومي المجلس العالي تناولت الاستدعاء وقرأتهُ علنًا ليسمعها الجميع وقبل ان تصل الى اخرهِ سمع اصوات ضباط الحرس وقواد الجيوش من داخل القصر المقيمين بهِ وكانوا قد تجمعوا وهم يقولون الخلاص الخلاص . الحرية

الحرية فنحن لا نريد ان نبدل قوانيننا ولا نطيع قوانين غير التي وضعها لنا بطرس الكبير . فلتكن امبراطورتنا ذات حرية مطلقة بذات اللقب والارادة التي كانت لاسلافها وكثير من الجنرالين تقدموا منها وقالوا لها علنًا اننا مستعدون لان نضع بين رجليك رؤُوس اعدائك ومعانديك. فاوقفت الامبراطورة تلك الجلسة وسكنت هيجان الشعب وعينت جلسة اخرى يحضرها كل نواب الشعب في موسكو وذلك بعد الظهر من ذلك اليوم فغص المكان بالمتجمعين من متوظفين واعيان وقواد ورؤساء قواد وحضر اعضاء المجلس العالي . واذ ذاك نهضت الامبراطورة بتصنع وخاطبت الحاضرين بقولها. انتم تعلمون انني حالما قبلت التاج الروسي عرض عليَّ ان افيد سلطتهُ فوافقت على هذا وقبلتهُ لعلمي انهُ صادر عن غاية شعبي وامتي الروسية حيث ربما كانت تريد التخلص من القوانين العادلة التي وضعها لها بطرس الاول ووقعت عليه برضائي واختياري والان ارى كثيرًا من الشعب يطلب اليَّ الرجوع عن موافقة المجلس العالي فهل يايها النواب لا توافقون على تقييد السلطة وهل ان تلك الشروط التي وقعت عليها لم تكن باطلاعكم وطلبكم . فصاحوا جميعًا . كلاَّ . كلاَّ . فاننا باجمعنا نضادهُ

ونطلب نقضهُ. فحينئذٍ التفتت الامبراطورة الى باسيلكي دولغروكي وقالت لهُ. لقد غششتني فاذًا ستصادف شرًّا عملك

وعلى هذا كان سقوط اول تجربة لتبديل القوانين المطلقة التي جربها بعض من الروسيين. نعم ان حالتهم وقتئذٍ كانت تحكم بوجوب بقاء حرية الملك وتصرفهِ بكل الاعمال كيف شاء لكن لو وعى الروسيون لما خسروا في مستقبلهم لذة السلطة بيد الشعب ولم يكفِ سقوط الشروط فقط بل الانتقام من مسنيها وعليهِ فقد قال احد اعضاء المجلس العالي وهو ديمتري غاليتسين. ان المائدة كانت معدة ولكنما المدعوون لم يكونوا اهلاً للجلوس عليها واني ساحتمل حبًّا بالوطن كل وبال لاسيما اني رجل مسنٌّ ولم يبقَ لي وقت طويل اعيشهُ بين عالم السياسة وسياتي زمن يبكي بهِ من بعدي كثيرون اي الذين يتمنون راحة بلادهم. انتهى. فانتقام حنة كان مرتبًا على الخداع فقامت بهِ بالتدريج بحيث نفت الرؤساء من الدولغروكيين والغاليتسيين الى اراضيهم وارسلت كثيرًا الى سيبيريا دون ان تلاقي منهم معارضة او ممانعة واخيرًا ختمت انتقامها بوضع الماريشال دولغروكي والماريشال غاليتسين بالسجن المؤبد. وامرت بقطع راس باسيلي لوكيتش واثنين اخرين من

الدولغر وكيين . والنديم السابق ايفان دفن حيًا في نوفغورود (وبهذه العذابات والاهوال تتعلق قصة ناتاليا شيري : ياف المحزنة الموثرة خطيبة النديم التي كانت ازمعت ان تتزوج بهِ بايام النجاح فقاسمتهُ كل عذاب وتعاسة في ايام ويلهِ وكدرهِ وموتهِ) وعلى ما تقدم يظهر ان الامبراطورة حنة قد فازت بنجاح عظيم بمساعدة كثير من رجال دولتها وابطلت قوانين التقييد وارجعت السلطة الى يدها ولم تكتفي بذلك وبكل ما تقدم بل ذهبت بروسيا الى ساحة الذل والتاخر كما يظهر مما ياتي بباقي حياة هذه الامبراطورة

كانت حنة ايفانوفنا هذه بنت خمس وثلاثين سنة وما لاقتهُ في زمن اهالها علمها خشونة الاخلاق حيث صرفت صباها بحزن في قصر ميتو مزدرية من مانشيكوف تحمل توبيخات كثير من رجال بطرس الذين بقوا بعد موتهِ والذين كانوا يظهرون اميالهم لورثتهِ الخصوصيين ويكرهون فروع عائلتهِ فمرارة هذه الصعوبات وغيرها من الشدائد التي المت بها كانت تلقيها كثيرًا بخيبة الامل وكانت ترتسم على وجهها العبوس وتنعكس بخلقها المنفعل فتظهر بهيئة البربري المتخفي . وكانت تعلو كل رجال سرايتها قامة ذات جمالٍ متوسط

وصوت رجل ضخم وهي في وقت واحد مرعبة ومهيبة · ومما زادها تحذراً من الروسيين وكرهاً فيهم ما كان وقع منهم بتقييد سلطتها ووضعها تحت كلمتهم وغايتهم ولهذا ارادت ان تحيط ذاتها بجماعة من الالمان فتسلم الى يدهم ازمة الامور الاولى في كل الخطط العالية ظناً منها انها تكتسب راحة البال وتامن من ضربات المتحزبين والاضداد في مملكتها · فاعهدت بتدبير القصر الملكي الى ليفالوند والاشغال الخارجية الى اوسترمان ورئاسة السفارات الى كورف وكايسرلنك وقيادة الجيوش الى لاشي ومونيخ وغستاف بيرن وعزمت ان تحضر من المانيا البرنسس حنة بنت كاترين ايفانوفنا مع زوجها دوق برنسويك لتعهد اليها بولاية العهد وهكذا اصبحت كل اميالها وغايتها الجهة نقدم الالمان في بلادها وتسلطهم على أحسن المراكز فيها فحكمتهم بالاهالي الوطنيين كالاسياد بالعبيد ولم تبق بيد الروسيين الاَّ الخطط الحقيرة الاخيرة اي انها لم تقم منهم آمراً بل كلهم تحت امرة رجال الالمان واعظم من كل ذلك انها قدمت منها بيرن الكورلاندي المتكبر الوقح ولقبته بدوق كورلاند وفضلته على كل رجل عندها . وصارت روسيا في زمنها تحت سلطة الالمان كما كانت سابقاً تحت سلطة التتار واصبح كلٌّ من اولئك

الاجانب يفتخر بعظمته وحكمته و ينظر الى الروسيين نظر السيد الى العبد او بالحري نظر الافرنج الى غيرهم اذ يعتبرونهم ساقطين من حق الانسانية وانهم غير متمدنين و بالطبع يلزم ان يخدموهم

وعليه فقد اضطر الروسيون حينئذٍ الى ترك السلطة ودخلوا باب الذل والاهانة لضعف روسائهم وما من لوم على الالمان حيث ان رجال بطرس الكبير واخصاءهُ الذين كانوا يدعون بافراخ النسر مزقوا بعضهم شذرًا فمانشيكوف اراد هلاك تولستواي وياغوجنسكي وبسبب الحقد العمومي هلك الدولغروكيون والغاليتسيون وافضى الانشقاق بهم اخيرًا الى الانحطاط فوصلوا الى تلك الحالة التعيسة على ان هذه الضربة العظيمة القتها عليهم الامبراطورة حنة الخائنة لوطنها وبلادها كأَنها قضيب تاديب لهم اجبرهم ان يتعلموا من مدرسة الايام كيف يجب ان يتصرفوا عندما يتمكنوا من رفع هذا النير الثقيل عن عواتقهم. وفوق كل ما تقدم منعت الامبراطورة اهالي بلادها من مقابلة الاجانب بالمثل ومن نشر مطبوعات ضدهم وضد اديانهم ووضعت قصاصًا صارمًا على كل من يتعدى امرها. وكان فيفيلاكت لوباتنسكي باشر

طبع كتاب ضد البروتستان اسمهُ صخرة الايمان فسجنتهُ في فيبورغ. وفولينسكي احد اولئك الذين طلبوا ارجاع السلطة لها فقطعت راسهُ كونهُ اغاظ النديم الجديد بعد ان اذاقتهُ العذاب المرولم يكن هو وحدهُ الذي قتل لاجل الالمان وعنادهم بل الوف من الرجال ذاقوا كاس الموت على اقل هفوة كانت تصدر منهم عن قصد او عن غير قصد ضد الالمان. وعدا عن ذلك كانت الضرائب لا تنقطع عن الاهالي والاغنياء بجمع الاموال لتدفع الى اولئك المختلسين ولم يكن قط راحة لاحد من العالم الروسي حتى ان الفلاحين الذين كانوا يسكنون في القرى وفي داخلية البلاد خضعوا جبرًا لهذه السلطة واجبروا على ان يسلموا بماشيتهم وبمحاصيل اراضيهم وبالكاد كان يترك لهم ما يكفي لسد احتياجهم السنوي ولو بالتقتطير والاقتصاد. وهكذا كان الاضطهاد يتم بالتدريج وتتسع دائرتهُ وتمتد تشعباتهُ. وابطلت المجلس العالي ومجلس الاعيان وكل مجلس عالي روسي لتتمكن من اجراء مثل هذه الفواحش هي ومدبريها كون كل الاشغال والاعمال كانت مسلمة ليدها وليد وزرائها. والمجلس القديم المدعو بربوراجسنكي بريكاز وضع تحت اسم الكونسلاتو السرية واعهد برئاستهِ الى الظالم اوشاكوف. ولما لم يكن للامبراطورة

حنة امان على نفسها وراحة على وزرائها الا بوضع حراس امناء تركن اليهم نظمت جيشاً من الحرس وجيشاً من الخيالة واكثرت في صفوفهم من القواد الاجانب ولا سيما الالمان الذين كانت رتبتهم من قائد مائة وما فوق وبالاختصار ان ما لحق بروسيا في ذاك الزمن مما يدعي الى الاسف ويظهر للقاري تطرف هذه الامبراطورة وعدم حبهـا لوطنها حيث القت بهِ الى حفرة الاحتقار والذل

وبعد ان اطمأن بالها بقوة ملكها وانتشار سلطتها وانفاذ غايتها ومرامها لم تعد تفكر الا بتعويض الوقت الذي خسرتهُ بالضجر والكره في ماضي حياتها وان تصرف مع نديمها بيرن باقي عمرها بالزين والفخفخة والعظمة والزهو والملاهي فاحاطت نفسها باشخاص من انواع الشعب للسخرية والضحك كانوا يبدون كل ما يضحكها ويسرها وسمحت لرجال اوربا ان يدخلوا الى بلادها كل انواع الملاهي والمساخر والفواحش فكان القمار يشغل قسماً كبيراً من موسكو بل كان معروفاً في كل احيائها مع تنوعهِ وتفرعهِ وتعداد اساليبهِ والروايات الايطالية كانت تشخص بعضها على طرق ادبية وبعضها على طرق مخلة بالاداب تودي الى بذر الفواحش في بلاد لم تعرف مثل هذه

الامور قبل ذلك الحين وكانت الملكة تظهر لدى رعاياها
بعظمة وافتخار وتسير في مقدمة الاهالي الى حضور الملاعب
وهي تتزيا كل يوم بزي جديد وبملابس متنوعة واجبرت كثيرات
من نساء البلاد ومن زوجات الامراء ان يلبسن ملابس الزي
الجديد وان يسلكن مسلك الحرية الخارقة الحد وان يحضرن
في غرف الملاهي فراج جداً سوق البضائع الحريرية الاجنبية
واغتنى كثير من خياطات الافرنج حضرن لاكتساب مثل
هذه الفرصة وربح الاموال من اجرة الخياطة وكان على الدوام
وفي كل ليلة تظهر في اسواق المدينة جماعات وفيئات من الاهالي
والاجانب يلبسون المساخر وبينهم من النساء من يشا كلهم
فيطوفون من مكان الى مكان وبالاختصار ان كل هذه الاعمال
كانت علة تحمل الاهالي اثقال المصاريف بدون ان يكون
لديهم ما يعتاضونه عنها وما من امراة الا وكانت ترغب في دوام
ابتياع الزي الذي كانت تنشره الخياطات وباعة الثياب
واثرى اهالي روسيا كان يجب ان يخفي ثروته عن زوجته
ويتشكى لها من قلة الدخل وزيادة المصاريف . وحيث ان
النديم بيرن كان يكره اللون الاسود ويميل الى الالوان الفاتحة
منعت الامبراطورة اللون الاسود من البلاط وكل السكان

تقريبًا كانوا يلبسون ثيابًا ذات الوانٍ لامعة ما بين ازرق صافٍ واخضر مصفر واصفر ناقع ووردي لامع الى غير ذلك واما الشيوخ مثل الامير تشركاسكي واوسترمان وغيرهما من وزراء حنة ورجال حكومتها الاوائل فكانوا ياتون القصر الملكي بالبسة وردية وزهرية. ومن هذا يظهر ان القسم الاكبر من الشعب كان غارقًا بالملاهي وجماعة حنة سائرون على خطة توافق مشربها يسخرون ويهذرون ويسكرون وما من ضبط بالاحكام الملكية ولا العسكرية وقد كتب المطران فيفان ما ياتي «ان حنة كانت تتسلى بسخريات كرهة مخلة بالاداب وهي تحب الروايات الايطالية والالمانية لوجود ضرب العصي بها» وكان فولونسكي احد الوزراء يصفع ويضرب الشاعر الشهير تريدياكوفسكي مستهزئًا بهِ . وطالما تشكي من ان ضباط الجيوش الاوائل تلزم اطباء العسكرية بخدمتهم كطباخين او حلاقين . وياغوجنسكي مدعي عمومي مجلس الاعيان كثيرًا ما يسكر فيغيب عن صوابهِ فيهين بنوع فظيع اوسترمان الشيخ امام هذه الامبراطورة وهي تظهر من ذلك مسرتها وتضحك بقهقهة وخلاعة . والحاصل ان من كل ما تقدم يعرف القاري حظ روسيا في زمن هذه الامبراطورة المحبة للالمان وهي تغيظ بذلك فرنسا وجماعة

الفرنسويين وكان سفير فرنسا في موسكو ينظر الى تقدم الالمان بكرهٍ ويغتنم الفرصة ليتم مسعاهُ بطردهم واذلالهم

ومع كل هذا فان اسياد روسيا الالمان كانوا يتظاهرون امام عموم الهيئة الروسية انهم يعضدون تعاليم بطرس الاول وسالوا الملكة بعد تلبيسها التاج في موسكو ان ترجع الى بطرسبرج بحيث تظهر للقسم الاكبر المحافظ على محبة بطرس انها تحترم وصاياهُ ففعلت مدفوعة اليهِ بكرهٍ . وابطلت ميراث الوظائف بالكلية حيث كانت الابناء قبلاً تؤمل بالارتقاء لدى الاستحقاق الى وظائف آبائهم وسنت على الفلاحين شرائع جديدة توذن لكل منهم ان يعطي كبير اولادهِ جميع اراضيهِ ولمن يلد بعدهُ الماشية وارغمت الامراء على الانقياد الى قوانينها العسكرية بحيث اقامت مدارس عسكرية لهم فيصرف الولد من السبع سنين الى العشرين يتعلم العلوم وفنون الحرب ومن الحادية والعشرين الى الخامسة والاربعين في الخدمة العسكرية والملكية غير أن في السنة الثانية عشرة او الثالثة عشرة يجرى امتحان التلامذة امام مجلس عام مولف من جميع اعيان الشعب والاجانب فمن وجد جاهلاً تعلم الحساب والهندسة ودستور الايمان يضعونهُ في مصاف الملاحين والنوتية ويرسل

الى المراكب فكان الشرفاء يروا هذا القانون صارمًا عليهم وهم ينتظرون دفعةً من غامضات الايام · وبني في بطرسبرج مدرسة كبرى لثلثمائة وستين ولدًا من اولاد اشراف البلاد الاوائل يتعلمون بها النثر والبيان والشريعة والادبيات والحساب والجغرافية والتاريخ العام والتاريخ الالماني (وليس التاريخ الروسي) والتحصين والتجييش والمدفعية (الطوبجية)

ميراث بولونيا من سنة ١٧٣٣ الى سنة ١٧٣٥ وحرب الدولة العلية من سنة (١٧٣٥ الى سنة ١٧٣٩)

لما رات الامبراطورة حنة ايفانوفنا ان الاقاليم الايرانية التي فتحها بطرس الاول ليست بذات جدوى لروسيا وان مناخها لا يوافق جنودها وانها غير قادرة ان تشغل نفسها على الدوام بها عمدت الى تركها وارسلت بطامعها الى جهة بولونيا ففي سنة ١٧٣٣ لسبب موت اوغسطوس الثاني فتح ميراث بولونيا وتحولت انظار اوربا الى تلك الجهة · وكانت روسيا ترغب في انحطاطها وتقسيمها وتمانع في قيام لسزكزنيسكي المرشح الفرنساوي واوغسطوس الثالث المرشح السكسوني · وبالعكس كانت دولة النمسا ترغب في رفع بولونيا وتقويتها وان يكون لها على الدوام قوة كافية لتساعدها ضد العثمانيين وهي تعضد

اوغسطوس المذكور . ولويس الخامس عشر كان يرى نفسهُ
مضطرًا لان يعضد استانسلاس لسزكزنيسكي عمة المرشح
الفرنسوي . واما روسيا فكانت ترغب في ان تبقى سلطتها
منتشرة على بولونيا بل كانت ترغب في ان لا يكون لغيرها كلمة
في تلك البلاد فاعترضت على المرشحين المذكورين واعلنت
ان من الواجب ان يكون الحاكم عليها لا شريف ذو قوة ولا
وكيل من فرنسا ولهذا اشتد النزاع السياسي بين روسيا وفرنسا
فالتزمت حنة ان تقوي الاتحاد بينها وبين النمسا وتقطف
ثمرة المعاهدة التي كانت عقدت بين الدولتين في زمن كاترينا
الاولى ففازت بنجاح مقاصدها وقادت النمسا الى موافقة
صوالحها

واذا نظر اهل ذاك الزمان الى حالة اوربا وجدوا ان
كل فيئة كانت تقوم ضد فيئة ثانية وكل رجل سياسي ضد
آخر وقد تباينت جدًا الصوالح والمقاصد بما يتعلق ببولونيا
وكانت كل دولة تبدي رايها مصرة على اسناده بالقوة . ففي
برلين مثلاً كان حزب شيتاردي ضد ياغوجنسكي وفي
ستوكهلم سيفرن ضد ميشل بستوجف وفي كوبنهاغن بليلو ضد
الكسيس بستوجف وفي فرسوفيا مونتي ضد ليفانولد الخ . لكن

في بطرسبرج كان السفير مانيان قد صرف الجهد لدى الامبراطورة وخصيصها بيرن ليحملهما على سلوك سبل السياسة السلمية فلم يحصل على المطلوب وارسلت روسيا بعساكرها الى بوليونيا لتعضد سياستها وتنفذ كلمتها . وكان استانسلاس الحقيقي متخفٍ تحت هيئة خادم مسافر قطع كل اوربا ودخل ليلاً الى فرسوفيا وهو متيقن في نفسهِ انهُ المنتخب الاول لبولونيا لان ستين الفًا من اعيان البلاد كانوا قد انتخبوهُ ضد اربعين الفًا كانوا مانعوا فيهِ فهذا كان يخولهُ الظن بالفوز ولما راى ان الجيش الروسي قد غطى اراضي بولونيا دعا احزابهُ الى حمل السلاح والمجاهرة بالثورة والعدوان ضد روسيا ودخل قلعة دانتزيك ينتظر بها مساعدة فرنسا ونجدات أُخر كان يومل انها تصل اليهِ . وبناء على عملهِ هذا نهض نحو عشرين الفًا من اخصامهِ واضدادهِ البولونيين وطاردوا احزابهُ واجروا عدة وقائع في جهات مختلفة وفي النهاية حاصر مونيخ الالماني قائد الجيوش الروسية دانتزيك حيث كان استانسلاس محصورًا وشدد الحصار عليهِ منتظرًا ان تصل اليهِ من روسيا مدافع كان بانتظارها ومع ان المراكب الفرنسوية كانت تجول في كل انحاء البحر لتمنع الامدادات عن الوصول الى بولونيا وملك

بروسيا كان يمنع مرور المدافع من بلاده وصلت المدافع الى
الجنرال مونيخ بينما كان قد استولى على سومر شاتز وبهذا الاستيلاء
قطع كل مخابرة بين دانتزيك ووشايمند ومخرج فستولا ومن ثم
رمى نحو ١٥٠٠ قنبلة بالبلد وبعد قتال دموي استولى الروس
على قلعة هاجلسبر حيث كان القواد الفرنسويون مقيمين مع
الجنرال بليلو والكونت دي لاموت بيروز فالاول قتل والثاني فرّ
الى وشليمند واخيرًا التزم ان يسلم هناك وفتحت ابواب دانتزيك
فدخلها الروسيون بفوز عظيم وافتقدوا استانسلاس فلم يروهُ
حيث كان قد فرّ متخفيًا تحت ملابس احد الفلاحين وهذه
اول وقعة جرت بين الروسيين والفرنساويين وارسل
الكونت دي لاموت الى بطرسبرج ليقف بين يدي الامبراطورة
وقبض على سفير فرنسا في بولونيا واخذ اسيرًا واعتبرت روسيا
ان مساعدة فرنسا لبولونيا عبارة عن فتح حرب عليها ولذلك
تكدرت السياسة بين الدولتين

وعلى هذا اصبح لروسيا النفوذ العظيم على بولونيا وقد
اطفئت جمرة الثورات الداخلية او بالحري كادت تطفئها وهذا
النفوذ زاد اضطراب بعض دول اوربا وانتج حربًا هائلة بين
الباب العالي والروسية كون العثمانيين كانوا يكرهون كثرة

التداخل في بولونيا اخنشاء من تقسيمها او من دخولها في يد روسيا فيما بعد ووقعت هذه الحرب بينما ابتدأت حرب الرين على قسم من ايطاليا بين فرانسا وبروسيا وذلك بدسائس دولة النمسا التي كانت تدفع مصاريفة كيداً لفرانسا وانتقاماً لنفسها منها لما كانت قد هيجت عليها منتخبي كولونيا وميانس وبافاريا وبالاتينا واخذت منها بعض الدوقيات وطلب الامبراطور مساعدة روسيا فمدته بعشرين الف روسي تحت قيادة الجنرال لاشي قائد الجيوش الروسية العام فقطع بها سيلازي والبوهم وفرانكوني مظهراً للمرة الاولى جيشاً روسياً في المانيا الغربية وفي اب سنة ١٧٣٥ اختلطت مع الجيوش النمسوية بين هيدلبرغ ولادنبرغ على بعد ميلين من مقدمة الجيوش الفرنسوية . وفي النهاية كان الفوز للجيوش الفرنسوية في اكثر المواضع بما اوجب الحال الى عقد صلح في فينا التزمت فيه النمسا ان تسلم بتسليم اللورين وقسم من ايطاليا لفرانسا وبشروط أُخر مهينة لها اكثرها لبروسيا

وحصرت روسيا نفسها بحرب الباب العالي وبعثت بقواها الى ميدان القتال وقد قضت المعاهدة بين النمسا وروسيا على ان تشترك الاولى بهذه الحرب فقاتلت في الجهة الشرقية من

المملكة العثمانية وروسيا في جهة بحر ازوف وجهات أُخر متحملة
صعوبة عظيمة بقطع فيافي الجنوب المقفرة حيث كان يجب
على كل نفران يصحب معهُ كل ما يحتاجهُ لنفسهِ من المؤن
ومعدات المعيشة حتى الحطب والماء ورغماً عن اجتهادات
القائد مونيخ كان الجيش بطيء الجري لا يقدر على التقدم بسرعة
كافية لكثرة المؤن التي كانوا يحملونها فللضابط البسيط مثلاً
عشر عجلات تحمل احتياجهُ وبعض الضباط كان لهُ ثلاثون
عجلة والجنرال غسطاف كان لهُ ثلثمائة دابة لتحميل متاعهِ ولم
يكن بذاك الجيش اقل من عشرة الاف مريض لوجود شهر
الصوم واكل ما ينهك الاجسام ويقلل من قوى اصحاب
الاجساد القابلة الانحطاط والضعف

وبالاختصار في سنة ١٧٣٦ استولى الجنرال لاشي على ازوف
بعد مكابدة خسائر عظيمة وملاقاة اهوال يضيق المقام عن
ذكرها . وقهقهر مونيخ صفوف بيركوب ونهب باغجة راس عاصمة
الخانية وخرب كريمه الغربية خراباً لا يمكن اصلاحهُ بسهولة
فيما بعد . وفي سنة ١٧٣٧ خرَّب لاشي القسم الشرقي من
شبه الجزيرة بينما كان مونيخ يستولي على اوتشاكوف . ودامت
هذه الحرب الى سنة ١٧٣٩ وفيها تقدم الجيش الروسي فاستولى

على ستافوتشاني وكونين وقطع بريت حيث محى خجل بطرس الاكبر ودخل عاصمة مولدافيا ولم يكن ذلك عن قصور او ضعف في عساكر الدولة العلية لكنها كانت تقاتل دولتين عظيمتين بوقت واحد وهما النمسا وروسيا وان كانت لم تتقدم جيوشها في جهة البحر الاسود وغير جهات عند مقاتلتها للجيوش الروسية غير انهُ كان من الاهم لديها ان تدفع النمسا من جهة الشمال ولا تمكنها من غايتها ففازت بالمطلوب فوزاً يحق لها ان تفتخر بهِ فقهرت جيوش اعدائها هناك والزمتهم الى التخلي عن مراكزهم وتقدمت تقدماً دعا دولة النمسا ان ترتجف منهُ وان تلافي المسأَلة بطلب الصلح وعقد اجتماع يفضي بمسالمة الباب العالي فاجابت الامبراطورة حنة الى ذلك ووافقت الباب العالي على الصلح حيث ان هذه الحرب كانت قد حملتها اثقالاً عظيمة لم تكن تعهدها وخسرت اكثر من مائة الف رجل في ساحة القتال. وكان من شروط الصلح ان سلمت الى الباب العالي قطيعة سربيا برمتها مع اورسوفا وفلاشيا ولم ينل الروسيون اذ ذاك الاَّ خلقة صغيرة من الارض بين بوغ ودنيبر مرتضين بخراب ازوف وترك جميع افتتاحاتهم

فمن هذه النتيجة يظهر لكل من امعن النظر في تاريخ تلك

الوقائع التي حكى عنها المورخون بفوز العساكر الروسية في البحر الاسود ان النجاح كان لجيش الباب العالي حيث ان الصلح قضى لهُ بالربح والاستيلاء على كثيرمن بلاد الصقالبة ومدن الشمال وخسَّر اعداءهُ كثيرًا من الجيوش وحملهم من المشاق والاتعاب اضعاف ما كانوا يظنون دون ان يخسرمن اراضيهِ ما يعادل ذلك وان ازوف الموقع المهم قد خرّب اوائذٍ ولم يبقَ لاعدائهِ مطمع فيهِ ولا ريب ان مونيخ خرَّبهُ لتاكده انهُ اذا بقي بايدي روسيا مشيدًا لا تتخلى عنهُ الدولة العثمانية ولابد ان تسترجعهُ بحشد الجيوش وارسال القوات اليهِ كما فعلت في زمن بطرس الكبير. ولاسيما انهُ كان المانيًا لا يهمهُ عمرت البلاد الروسية او خربت

ايفان السادس . نيابتا بيرن وحنة . ثورة سنة ١٧٤١

وكان في الايام الماضية اي ايام حرب حنة قد التزمت الى التثقيل على الاهالي بزيادة الاخرجة والضرائب وجمع العساكر زيادة عما اعتادوا عليهِ وهذا قطع من امل الفلاح وعلمهُ الكسل والبطالة بان لا يزرع ولا يفلح ما يزيد عن مونتهِ بكثير اذ كان لا يترك لهُ اكثر من ضرورياتهِ ومثلهُ باقي الشعب من اصحاب التجارة والصناعة الذين كانوا ينظرون الى حنة

ونديمها بيرن كعدوين لها وللبلاد. وسقوط رجال بطرس الكبير وتفريقهم وعذاب فولونسكي وغالتزين والدولوغروكيين اوقف الشعب الروسي مدة عن التملص من تحت اثقال الظلم والسعي في ايجاد الحرية. ومع كل ذلك فان تشكيات كثيرة قد عرضت على الكونسلاتو السرية من الحالة الحاضرة المثقلة على اعناق الرعايا الذين كانوا ينسبونها الى حكم امرأة جاهلة مكررين المثل عندهم وهو «المدن التي تحكمها النساء لا تدوم والحيطان التي تبنيها النساء لا تعلو» ومثله ايضاً «ان الذرع لا ينمو حيث ان حاكمتهم امرأة» وفضلاً عن ذلك فقد الفوا اغنية عديدة تنشدها الاولاد بالاسواق ويرددها الشعب في المحافل. مآلها التاسف على زمن بطرس ويدعونهُ ان يخرج من قبرهِ لقصاص بيرن الالماني الملعون. وعند اشتداد مظالم الامبراطورة المذكورة كان تنبأ كثيرون انهُ في سنة ١٧٣٣ سيكون اضطراب عظيم في البلاد من غضب الله سبحانهُ وتعالى والامبراطورة ستمسك وتحاكم في موسكو. فهذه النبوة لم تكن صحيحة واخطأ كل ظنٍ وفالٍ يتعلق بمثل هذا الامر. وقد امتد حكم حنة الى سنة ١٧٤٠ وهي السنة التي فيها اخذت صحتها في ان تضعف وقواها تضمحل

ورای بيرن قرب زوال شمس سيدتهِ او بالحري خليلتهِ فاراد ان يحفظ لنفسهِ حق السيادة وان يسعى لديها بان توصي لهُ بالنيابة بمدة صغر الامبراطور ايفان برنسويك القاصر فساعدهُ على ذلك الكسيس بستوجف حيث كان مديونًا لهُ بثروتهِ. مع ان جماعة الالمان كانوا طرحوا لدى الامبراطورة رغبتهم واوضحوا لها طلبهم قائلين اذا لم يتسمَّ دوق دي كورلاند نائبًا عن القاصر والا هلكنا ، فوقعت الامبراطورة على ورقة التوكيل الى بيرن نديمها وماتت في ثاني يوم من توقيعها وكلمتها الاخيرة لهُ كانت «لا تخف من شيء» ودفنت غير ماسوف عليها من الروسيين ومن الالمانيين الذين اغضبتهم اخيرًا ما عدا بيرن فانهُ لم يرتح بعد موتها لان اسبابًا عديدة عدوانية كانت تتهددهُ وتتركهُ غير مطمئن على بقاء حالتهِ

وكان عموم الشعب الروسي يتضجر ويتأفف من بيرن واخذت الجمعيات في ان تجتمع وتتالف للبحث في هذا الشان ورای رجال البلاد ان الزمان قد بدأ في ان يخدمهم وتسهل لهم ان يتخابروا مع بعضهم ومع جماعة الالمان بشانهِ اذ كان الجميع يعرفون ان بيرن فضلاً عن انهُ اجنبي هو كافر وبدون ادبيات ولا معارف وارتباطهُ السابق بالامبراطورة يشين بناموسهم

اذا اتخذوهُ حاكماً عليهم وانقادوا اليهِ كالاغنام. واعترضوا اذا كان لابد من وكيل اجنبي فلماذا لايكون والد الامبراطور القاصر حيث ان هذه النيابة ستكون لزمان طويل كون المناب عنهُ اي القاصر لم يتجاوز بعدالثلاثة اشهر. مع ان كثيرًا من الاعيان كان يضمر عدم موافقتهِ على قيام ايفان الصغير اذ لاحق لهُ بولاية العهد وان الحق الاكبر بولاية العهد لبنت بطرس الاول او لحفيده بطرس دي هولستين غير ان هولاء كتموا هذا في صدورهم الى حين حلول زمنهِ منتظرين نهاية الخصام الواقع بين جماعة حنة المتوفاة

ومع ان الطاعة لبيرن كانت واجبة كونهُ الوصي والنائب الشرعي كان الاهالي يعتبرون انطوان دي برنسويك والد الامبراطور وامراتهُ حنة ليو بولدوفنا دي مكلمبرغ. وعموم الاجانب كانوا يرضخون لاوامرهما ويتمنون نزع السلطة من بيرن وتسليمها لحنة المذكورة. فوالدا الامبراطور كانا غير راضيين من بيرن وهو غير راضٍ منهما ولذلك اخذ في ان يتكلم في قيام بطرس دي هولستين حفيد بطرس الاول كونهُ الاحق وفكر في ان يزوجهُ من بنتهِ وان يزوج ابنهُ من اليصابات بنت بطرس الاول وبذلك يحفظ لنفسهِ السيادة ويزيد مقامهُ ويرتفع شانهُ في

العالم الروسي . فازداد من ذلك غيظ الالمانيين وخافوا من ان يطردوا من البلاد او يصيبهم ما اصاب الدولوغروكيين وغيرهم من النفي والعذاب والموت باعمال محبتهم حنة ايفانوفنا واخيراً اقرروا وجوب موت بيرن واعهد بهذا العمل الى القائد مونيخ واوسترمان الشهير . ففي ذات ليلة من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) كان مونيخ على العشاء عند بيرن وراقب كل حركاتهِ ولاحظ كيفية الوصول اليهِ وفي الليلة نفسها سرق من فراشهِ وارسل الى بيليم في سيبيريا وتوقف كل اصدقائهِ ومزق امر النيابة ودوقة دي كورلاند طرحت تقريباً عريانة خارج قصرها واعهد بالنيابة الى حنة ليوبولد وفنا

واصاب بيرن ما اصاب مانشيكوف حيث اوصلهُ الطمع الى الانحطاط اخيراً والموت محكوماً عليهِ بغضب الامة . وبعمل مونيخ اطلقت الحرية لوالدي الامبراطور واعهد بكل السلطة اليهما فماذا يا ترى كان يجب عليهما لمكافاتهِ فرتبة قائد القواد التي كان يرغب فيها ويطلبها لنفسهِ رغب فيها ابو الامبراطور وسمى نفسهُ بها ولذلك رضي مونيخ بلقب الوزير الاول ولم يعوض على اوسترمان بشيء في البداية . ومن ثم اخذ الشقاق ان يقع بين جماعة حنة ايفانوفنا الالمان واصابهم ما اصاب افراخ النسر الي

جماعة بطرس الاول حيث كانوا قد وصلوا الى منتهى السلطة. وسعى اوسترمان ضد مونيخ عند انطوان وزوجتهِ واتفق الثلاثة عليهِ وحملوهُ من المكاره ما دعاهُ رغماً الى الاستعفاء. وهكذا كان كل واحد من الالمان يقوم ضد الاخر واتسعت دائرة الشقاق والعدوان فيما بينهم حتى اخيرًا وقع النزاع والخصومة بين انطوان وحنة ليوبولدوفنا فكان اوسترمان ضد الزوجة التي لم يكن لها من الشجاعة ما تقدر بهِ على المقاومة وكانت تصرف اكثر ايامها في قصرها وعلى راسها خمار من المنسوج المعتاد (منديل) تتنقل من كرسي الى اخر. فهذه الاختلافات والخصومات بين جماعة الالمان وذاك الضعف الذاتي المتولد في نائبة المملكة حنة المذكورة قوى من هم اعداءها لانهم كانوا غير قليلين وتوصلوا الى الانضمام ولم يكن ينقصهم سوى رئيس شجاع يسير في مقدمتهم

وكانت اليصابات بنت بطرس الكبير قد بلغت اذ ذاك نحو الثاني والعشرين من العمر وهي جميلة للغاية وذات جسم سمين وذكاء مفرط وحذق عجيب وفكر حادّ ووجه بشوش جدًا جسورة على ركوب البحار وامتطاء الخيل ذات خلق عسكري محض. ففي زمن الامبراطورة حنة كانت مغلولة الايدي تعامل

بلا رحمة ولا شفقة منها ومن نديمها بيرن كأكبر عدولها وبقيت
الى ان توفيت الامبراطورة فاخذت ان ترفع راسها من تحت
كثافة المكارة التي كانت تحملها واخذت في ان تقرب منها
شعبها وتقرب منهُ وتدني منها بعض اصدقائها الامناء كبطرس
شوفالوف وميشيل فورونزوف وراز وموفسكي وسوارتز والجراح
لستوك وغيرهم وكلهم يطلبون اليها ان تنهض لتقبض على ازمة
العرش وتستولي على شعبها الروسي وتطرد الالمانيين فكانت
تصبر بتانٍ منتظرة تمام مقاصدها من ميلان الحزب العسكري
اليها عالمة انها اذا لم تكن متسلطة على قلوب الجيوش مع وجود
القوة العسكرية بيد اعدائها تريق كثيرًا من الادمية وربما اخيرًا
رجعت بالخيبة . وقبلت ان تكون عرابة لاولاد كل نفر من
الجند والضباط فقرب كثيرون منهم اولادهم فعمدتهم وكتبت
اسماءهم عندها ليكونوا مخصصين بها فاستجلبت محبتهم وصار
اكثر ضباطهم ياتون اليها ويجتمعون عندها مسرورين من
بشاشتها ومن اكرامها حتى اخيرًا تعبدوها وصارت كل نفس
من الاهالي والجيوش تطلب ان تكون امبراطورة روسيا وهي
تزور الثكن العسكرية والمستشفيات وبيوت المرضى وتقدم ما في
وسعها للمحتاجين . واخيرًا ضاق صبر الاهالي فجعلوا يربطون

الطرقات ليروها ويشيروا بايديهم ملتمسين اليها ان تلتفت اليهم وتنهض في مقدمتهم وفيما كانت تسير راكبة في عربتها كان ضباط من الجندية يتعلقون بموخرة المركبة ويدنون رؤوسهم منها ويقولون لها بان الوقت قد ان وانهم يقدمون نفوسهم ضحية عند اقدامها فكانت تجيب بكل لطافة وانس واعدة اياهم بقرب العمل وبخلاصهم من اعدائهم الالمان وزراء المملكة وقوادها

وفضلاً عما تقدم كان سفير فرنسا ماموراً من قبل دولتهِ بان يساعد في قيام الاهالي على الالمان ونزع السلطة منهم وطردهم من روسيا فهذا السفير كان على الدوام يجتمع بالعصابات ويدعوها الى اتمام رغائب دولتهِ ويساعدها بافكاره ويقدم كل ما تحتاجهُ من الدراهم وتمكن من ان يجلب الى خدمتها الاسوجيين الذين ادخلهم ابوها في حكومة روسيا ولم يكونوا قد انضموا الى عسكرية حنة ايفانوفنا ولا حاربوا معها في حروبها الاخيرة في بولونيا ومع الباب العالي فارسلوا سفيراً الى العصابات يستمدون رضاها اذا نهضوا لطرد الالمان ونزع النائبة حنة ليوبولدوفنا ويسالونها ان تعدهم فقط انها عند جلوسها تهتم بارجاع بعض افتتاحات ابيها بطرس الاول الى حكومة اسوج وهي تماطل لاجابة بالوعد وتاخر عملها من يوم الى يوم ومظالم الالمان تزيد

والشقاق قائم فيما بينهم وهم ملتهون بان يحط بعضهم شان البعض الاخر ويمنع تقدمهُ فتذهب نتيجة ذاك العدوان بزيادة المصاريف والتثقيل على خزينة الحكومة وعلى سلب الاهالي حتى ضج الروسيون وخيروا اليصابات اما قبول العرش الروسي وبذلك تخلصهم من اعدائهم واما الذهاب الى الدير فيلقون برجائهم الى غيرها

وحينئذٍ نهضت بهمة الاسد الضاري وعرفت ان الزمان قد آن فاخذت ثلاثة من امنائها ودخلت في ليل ٢٥ من تشرين الثاني سنة ١٧٤١ الى ثكن بربوراجنسكي العسكرية واقامت هناك الى اليوم الثاني حيث اجتمع لديها القواد الثانويين وباقي المعسكر فنهضت واقفة في الوسط وقالت يا اخوتي الروسيين الامناء على حياة الوطن هل تعرفونني من انا فصاحوا كلهم بصوت واحد نعم اننا نعرفك انك أمنا وام الوطن وها نحن بين يديك من هذه الساعة فمرينا لنقتلهم جميعاً واشارة منك كافية لان نبيد وزراءنا وقوادنا فاجابت. اني لا اريد منكم ان تقتلوا احداً فقط اريد ان اقسم لديكم يميناً ان حياتي لاجلكم فاموت واعيش لروسيا فهل تقسمون لي مثل هذا اليمين بانكم تموتون لاجلي فتصاعد صوت الخلق من كل

ناج . فارسلت بهم اذ ذاك لنهاية العمل مع رجالها الامناء . وفي الليلة نفسها قبض على حنة ليوبولدوفنا وعلى الامير انطوان ومونيخ واوسترمان وليوانولد ونودي باسم اليصابات بتروفنا امبراطورة على روسيا مطلقة الحرية لها حق التصرف، الذي كان لابيها واسرع عظماء البلاد وامراؤها واعيانها الى الانضمام الى الجند ليقاسموهم في مثل هذه الخدمة الوطنية . فارسل ايفان السادس الى شليسبرغ والنائبة حنة حبست في كولوكوري حيث ماتت سنة ١٧٤٦ . وباقي الوزراء والقواد الالمان وقفوا تحت المحاكمة واقيم قضاة من الدولغروكيين وشيوخ من روسيا للحكم عليهم فحكم على اوسترمان بالدولاب (نوع من العذاب عندهم) وعلى مونيخ بالتقطيع الف قطعة وعلى الاخرين بقطع الراس غير ان الامبراطورة الجديدة عفت عن ارواحهم فنفت اوسترمان الى بيريزوف ومونيخ الى بيليم حيث سكن البيت الذي أرسل اليه بيرن قبلاً مكتفية بابعادهم وبقائهم في المنفى . وامرت بارجاع كل المنفيين عن روسيا في زمن الحنتين او باحكام سابقة . وسمحت لجماعة بيرن ان يسكنوا باروسلاف

الفصل الثالث

في

انحطاط الالمانيين وحرب اسوج من سنة (١٧٤١—١٧٤٣) والحرب مع ملك بروسيا

توجت اليصابات في موسكو باحتفال عظيم وبعد تتويجها احضرت من هولستين ابن اختها حنة وهو بطرس دي هولستين حفيد بطرس الاول والدوق دي شارل فردريك والده. فاعتنق المذهب الارثوذكسي ودعي بطرس فيودورفتش واعلنت انهُ الوريث من بعدها. وفي سنة ١٧٤٤ زوجتهُ من البرنسس صوفيا دي آنهلت زربست وهي التي ستحكم فيما ياتي تحت اسم (كاترينا الثانية الشهيرة). وعلى هذا يظهر ان الملك وان كان قد مال مدة الى العائلة الايفانية الرومانوفية بواسطة تملك حنة ايفانوفنا وايفان السادس الّا انهُ رجع بشرف ومجد الى العائلة المتناسلة من بطرس الاول الكبير بتملك الامبراطورة اليصابات بنتهُ وبولاية العهد لحفيدهِ بطرس دي هولستين

ولم تكن ثورة سنة ١٧٤١ انتجت فقط انحطاط العائلة

الايفانية واظهرت للرعايا عدم اقتدارها على قبض ازمة المملكة لكنها جاءت ايضاً بانتصار الحزب الوطني على الحزب الالماني وداس الراي الروسي السلطة الاجنبية القاسية وفوق هذا فالكهنوت الارثوذكسي الذي اضطهد كثيراً من الجاحدين اخذ ثاره بخطب المطران امبرواز الذي كان يلقيها ضدهم ويسميهم بمرسلين الشيطان وملائكة ابليس . والشاعرلومونوف نظم قصائد عديدة يظهربها فرح الامة ويدعوها ان تسلم على شخص اليصابات ممثلاً اياها «باستره» التي كانت ارجعت الجيل الذهبي وبموسى مخلص الاسرائليين من مصرومنتشلهم من حجر العبودية وبنوح الذي خلصهم من طوفان الاجانب فكل هذا كان يضرم نيران الغضب في افئدة الشعب فتهيج ضد الشعب الالماني ووقعت عدة مناوشات في بطرسبرج وفي جيش فنلاند بين العساكر والضباط الاجانب طالبين ان يجرع عموم الالمان من عامة وضباط نفس الكاس التي تجرعها مونيخ وأوسترمان وانحصرت اميال الملكة ومراعاتها بمارديفالد سفير بروسيا وبلاشيتاردي سفير فرنسا حيث كان هذا الاخير منظوراً بعيون الاهالي كمخترع لهذه الثورة ومساعد اكبر لاذلال الالمان وكان كثيراً ما ياتيه ضباط الحرس ويقبلون يديه

ويدعونهُ بابيهم . فكل هذا جعل فتوراً وبروداً بالمعاهدة الروسية النمسوية المرتبطة منذ زمن كاترين الاولى واصبحت من نفسها بحكم المفسوخة

ولم يطل الاتفاق والتواد بين دولتي فرنسا وروسيا لان السكنديناڤيين ما هاجوا وحملوا السلاح اثناء الثورة الا وفي املهم ان تعاد لاسوج بعض افتتاحات بطرس الاول الكبير وقد وعدهم سفير فرنسا بذلك . فبعد ان صفي الجوُّ لاليصابات طلب ابيها ان تترك الاراضي التي في قبضتها لترد للاسوجيين فمانعت اليصابات في ذلك وردت مطالب فرنسا بالخيبة ورات ان الاجابة الى ذلك يشين بملكها ويحط من قواها في اعين رعاياها واعين العالم قاطبة بحيث تكون قد داست اجتهادات ابيها وجدهِ وردت البلاد التي كلفتهُ اتعاباً كثيرة عدة سنوات واريق لاجلها بحور من الادمية الروسية مع ان الامبراطورة حنة والنائبة حنة حافظتا عليها كل المحافظة وما سمحتا بترك شبر من الاراضي الاسوجية احتراماً لفاتحها . ولهذا الامتناع تكدرت السياسة بين الدولتين ونهض الاسوجيون يطلبون الحرب بطلب فرنسا وحملوا السلاح ضد اليصابات فاضطرت الى استعمال القوة ضد الثائرين وضد مملكة اسوج

ووقع بين المتقاتلين عدة وقائع كان نتيجتها ان ظهرت عدم قوة الاسوج وراوا من انفسهم ضعفهم على عدم مقاومة الحكومة المتغلبة وانحطاط شارل الثاني عشر عن القيام بالاعمال التي كان يعملها كارلوس في زمن بطرس مع ان جيوشهُ لم تكن اقل عدداً من الجيوش الروسية . وقد ملك قواد اليصابات على كل مواقع فنلاند بعد تبديد شمل الجيوش وفي هيلسنكفورس سلَّم سبعة عشر الف مقاتل اسوجي مع كل اسلحتهم ومدافعهم لقوادر وسيا . فهذا التقهقر والتاخير الاسوجي والانتصار الروسي دعى تداخل فرنسا وعقد صلح في آبو كان من نتيجتهِ ان اكتسبت اليصابات فينلاندا الجنوبية لحد نهر كيومن ونصبت احد محالفيها اميراً ملكيًا على اسوج وهو ادولف فردريك وكيل دوقية هولستين وزاد ذل اسوج وصار اكثرها بيد روسيا وتحت نظارتها وملاحظتها ادبيًا

حرب وراثة النمسا

وفي ذاك الوقت لمعت بروق اسلحة حروب الوراثة النمساوية بين ماريا تريزا والدولة الفرنسوية وكانت كل دولة من دول اوربا تظهر باميالها وارائها ومساعداتها الادبية والمادية وتهتم بالتداخل تعززًا لسياسة حكومتها وعلاقتها مع

المتحاربين. ولكن روسيا وقفت في بادي الامر تتردد في هل تعضد بسياستها وتقوم بمساعداتها لماريا تريزا او لفرنسا ومحالفيها ضدها. وسبب هذا التردد وقع بداعي تناقض غايات رجال الامبراطورة اليصابات فبستوجف ديومين الذي كان في زمن حنة واعادتهُ الامبراطورة الحالية مستشاراً اول للدولة كان يرغب في عضد النمسا ومضادة فرنسا وفورنزوف المستشار الثاني يرغب في عضد الطرفين. الآن لاشتياردي سفير فرنسا وماردیفالد سفير بروسيا تداخلا مع لستوك وام صوفيا دانهلت ليجلبا بواسطتها افكار الروسية الى الانضمام الى فرنسا وبروسيا ضد النمسا. غير ان كره الامبراطورة لفرنريك الثاني جعلها ان لا تلتفت الى مطالب لاشيتاردي وان تعرض عنهُ فالتزم الى الاستعفاء وترك ماموريتهِ فانتصرت اراء بستوجف وكادت اليصابات ان تعلن وجوب انتصارها لماريا تريزا والنمسا غير ان بوتا السفير النمساوي لم يحسن السياسة لدى البلاط الروسي ونظراً للعمل مكدر اجراهُ ضد الامبراطورة سقط لديها مشتركاً بذنبهِ هذا مع السيدة لابوكين فطرد من البلاد وتلك جلدت وتمزق جلد وجهها

فظنت فرنسا ان الوقت مناسب لارجاع لاشيتاردي

ميقنة انهُ في هذه المرة يقدر ان يغلب بستوجف المستشار الاول
غير ان هذا كان من افراد الرجال الروسيين وكان لهُ اوضة
في مكان التلغراف تسمى (الاوضة السوداء) يقصد بها الوقوف
على تلغرافات سفراء الدول فياخذ خلاصتها ويحفظها. ففي
هذه المرة وجد وسيلة لان يضع بين يدي الامبراطورة مآل
تلغرافات فرنسا لسفيرها لاشيتاردي و برهن ان لستوك كان
يقبض مرتبًا من فرنسا وان السفير المذكور يكتب بالفاظ قبيحة
ضدها . فاقتنعت اليصابات وثبت لديها صحة كلام مستشارها
فاصدرت امرًا تجبر بهِ لاشيتاردي ان يخرج من العاصمة في
مدة ٢٤ ساعة ومن سائر بلادها في مدة ثمانية ايام . واعادت
امَّ الدوقة كاترين الثانية الى المانيا ومن ثم طلبت لستوك للمثول
امام مجلسها فحوكم وحكم عليهِ بالعذاب وبالنفي الى اوغلتس
كل هذا والايام تتواتر وروسيا مكتفية بالتهديد والتخويف
اللذين كانت تجريهما في اوربا والمستشار الاول بستوجف
يزيد امال النمسا بمساعدة دولتهِ وفورنزوف المستشار الثاني
يوطد امال اليون خلف لاشيتاردي سفير فرنسا

ولما كان قد تخلى اكثر محالفي فرنسا عن عضدها التزمت
بنقل مرسح الحرب الخصوصي الى بيبيا حيثما كان دوق دي

كورلاند النديم قد اثار لها جملة انتصارات تذكر الآن في خلال سنة ١٧٤٦ عقدت معاهدة نمسوية روسية بمساعي انكلترا التي وعدت بانها تمد الامبراطورة اليصابات باعانة الجيوش . وفي النهاية قطع ثلاثون الف روسي تحت قيادة روبنين المانيا واستحكمت على الرين فكان من نتيجة هذا الحلول الروسي عند الرين وظهور الاميال الروسية الى عضد النمسا ان عجلت بالصلح فعقد بين المتحاربين وسمي بصلح اكس لاشابل وذلك في سنة ١٨٤٨ ومن ثم رجعت العساكر الروسية دون ان تشهر سلاحًا او تطلق مدفعًا او تدخل معمعة القتال وانتهى حرب الوراثة النمسوية اذ ذاك وفي تلك الاثناء اي في سنة ١٧٤٧ كان اليون سفير فرنسا قد طُلب من روسيا الى باريس بسبب العدوان المذكور ولم يرسل لهُ خلف حالاً لدى عقد الصلح

فتح الحرب على ملك بروسيا من سنة ١٧٥٦ — ١٧٦٢

لما كان بستوجف هو الذي سبب عقد المعاهدة مع النمسا وطرد لاشيتاردي سفير فرنسا كما تقدم لنفوذ كلمتهِ لدى الملكة اليصابات وقد عرف كيف يمكنهُ ان يستميلها اليهِ ويستولي على ارادتها لم يصعب عليهِ ان يضرم نار الحرب بين روسيا

وبروسيا وكان ابتدأ ان يعلن منذ سنة ١٧٤٤ ان دولة بروسيا هي العدو الاكبر لروسيا وهي وحدها التي تقدر ان تضر بصوالحها اكثر من فرنسا كونها جارتها وذات مطامع تتمكن اذا تقوت من اضعاف حكومتهِ وعليهِ اصبحت الامبراطورة اليصابات تكره فردريك الثاني ملك بروسيا كرهًا خارقًا الحد وتقول عنهُ انهُ بالحقيقة ملك شرير لا يخاف الله ويحيل الاشياء المقدسة الى اضحوكات وسخريات ولا يذهب قطعًا الى الكنيسة . وكان فردريك المذكور يعلم ذلك ويعرف بغض اليصابات لهُ فالتزم ان يقابلها بالمثل وجعل يضاد اعمالها واجراءاتها وما برحت البغضاء تنمو الى ان في ١٧ ايار (مايس) من سنة ١٧٥٣ قرأ بستوجف لائحة لاليصابات يحرك ضغائنها ويهيج غضبها . ومآل اللائحة ان نمو الدولة البروسية يضرُّ جدًّا بتقدم حكومتها وان من نية فردريك مفاجئتها بالحرب حيث انهُ زاد عساكرهُ من ثمانين الف مقاتل الى مائتي الف وانهُ اي فردريك جمع الملايين من سيلازي التي اخذها من النمسا ومن الجزية التي ضربها على ساكس ليجعلها مصروف حرب فضلاً عن ان عينهُ تطمح الى هانوفر وكورلاند ويرغب في حل اعضاء بولونيا . وكانت خاتمة مذكرتهِ تفيد ان ملك بروسيا هو

اشد الجيران خطرًا وان من اللازم اضعاف قوتهِ وامداد يد المساعدة للدول التي يتهددها

فوقعت هذه اللائحة من اليصابات موقعًا حسنًا وقررت بافكارها وجوب العمل بموجبها واخذت في ان تضع رجلها في اول الطريق واتكلت على سياسة بستوجف بان ينظر الى محالفات الدول اولاً وهل يمكن محالفة فرنسا او انكلترا ففاز بالمطلوب وعقد معاهدة اعانة مع انكلترا وهي معروفة بمعاهدة (سنبطرسبرج في ٣٠ ايلول) ثم عقدت بعد ذلك محالفة مع فرنسا مكنتها من غايتها (ستوكهلم في ١٢ اذار وسنبطرسبرج في ٥ تشرين الثاني سنة ١٧٥٧) ومن ثم تبادلت الرسائل السرية بين الدول ولا سيما بين لويس الخامس عشر والامبراطورة اليصابات وتعين اوبيتال سفيرًا في روسيا

واما فردريك ملك بروسيا فانهُ اضطرب عندما طرق مسامعهُ ان روسيا مصرة على حربهِ وخاف كل الخوف من انحلال عقدة قبائلهِ الغير منظمة ولم يكن يطمئن باله الا من جهة واحدة وهي اتكالهُ على ولي عهد روسيا وزوجتهِ صوفيا دي انهلت (كاترين العظيمة) حيث كان قد ساعد زواجها . ثم قطعت المخابرة بين الدولتين فجأة وفتح باب الحرب

ففي سنة ١٧٥٧ اجتاز حدود البروسية ٨٣ الفاً من
الجيوش الروسية تحت قيادة ابركسين قائد القواد واشغلوا
اقليم بروسيا الشرقي وتقدموا بهدو الى ناحية اودر . وسحقوا في
كروس جاجرسدورف حرس ليوالد وبهذه الموقعة خسر
البروسيون ٤٢٠٠ قتيل و٦٠٠ اسير و٢٩ مدفعاً . وعوض ان
يستمر ابركسين على متابعة فتوحاته ليقتطف ثمرة ذاك الانتصار
الى ان يعقد الصلح رجع على عقبيه وقطع ثانياً النيامن تاركاً الحرب
فلما راى ذلك سفير فرنسا والنمسا لدى البلاط الروسي صرحا
بخيانته وطلبا تنزيله وفحص اوراقه وثبتت التهمة بذلك على
الدوقة كاترين العظيمة وعلى المستشار الاول بستوجف ديومين
المتقلب فنفي واقيم عوضه فورنتزوف

وفي سنة ١٧٥٨ استأنفت روسيا الهجوم على البلاد البروسية
وكررت الحمل تحت قيادة القائد فرمور فاستولى على كينيكسبرغ
وحاصر كوستربن واطلق عليها المدافع في اودر واذذاك اسرع
فردريك الثاني وهو في سيلازي الى انقاذ بلاده وانضم الى دوهنا
يقود نحو ٣٢٠٠٠ مقاتل بازاء ٨٩٠٠٠ الف روسي والتقى
الجيشان بقرب قرية زورندوف فاقتتلا قتالاً هائلاً واخيراً
بالرغم عن شجاعة الروسيين وكثرة فرسانهم ومعرفتهم الفنون

الحربية تقهقروا وتاخروا تاركين بيد عدوهم فردريك الثاني مائة مدفع وثلاثين علمًا وخسروا نحواً من ٣٠٠٠٠ الف رجل . ومع ذلك لم يحصل الملك البروسي المذكور على مقصدهِ التام حيث ان الروسيين لم يكونوا ليضعفوا بهذا التاخر ولا فكروا بترك القتال او بالرجوع الى مراكز أخر بل كان لهذه الموقعة عظيم تاثير في البلاط الروسي حرك هياج الامة الى مداومة القتال واسترجاع ناموس جيوشهم

وفي سنة ١٧٥٩ خلف القائد فرمور سولتيكوف وهو من مشاهير القواد فرجع الى اودر وطارد البروسيين في بالتزيك بقرب زولليشو ودخل فرنكفور . فاسرع ايضًا فردريك الى هناك والتقى بالروسيين قرب كينورسدورف ولم يكن حظهُ في هذه المرة كالمرة الاولى وبعد وقوع القتال سحق جيشهُ تحت حملة المملكة العظيمة وخسر كثيرًا من رجالهِ و١٧٢ مدفعًا ولم ينجُ هو نفسهُ من ساحة القتال الا بعد التعب العظيم مع ٤٠ من حرسهِ وتفرق جيشهُ كل مفرق حتى بالكاد بقي منهُ ٨٠٠٠ بعد ان كان ٤٨٠٠٠ وكتب فردريك الى فينكانستين يقول ما هذه التعاسة العظيمة اني لا اعيش بعد هذه الوقعة الهائلة لان عواقبها اشد علينا منها واني لم اعد اجد ملجاءً التجئ اليهِ ولا قول الحقيقة

اخبرك اني اعتبر ان كل شيء هلك ولا ازال اتردد بقتل نفسي . انتهى . واقتصر عن الامتناع والنزول الى ميدان الحرب والبقاء في خط الدفاع . ولم يكن حظ المشتركين معهُ في هذه القتال اقل شؤماً من حظهِ في هذه الحرب فكانوا يتقهقرون امام الجيوش الروسية في كل ناحية وفي كل موقعة وهم يتمنون خلاصاً مما هم بهِ فلم يروا سبيلاً الى ذلك وسئلت الامبراطورة اليصابات بالصلح فابت معلنة انها لا ترغب فيهِ مطلقاً قبل ان تميت قوات فردريك وتضم الى بلادها بروسيا الشرقية . وفي سنة ١٧٦٠ دخلت الجيوش الروسية برلين بعد مقاومة قليلة ونهبت صناديق الدولة والترسخانات وخربت معامل البارود والاسلحة وفي السنة التابعة فتحت بوميراني واستولى الجنرال رومانتسوف على كولبرغ وعدة قلاع ومراكز . وبالاختصار كان هلك فردريك وسحقت هذه المملكة تماماً لولا موت اليصابات الفجائي الذي وقع اوانئذٍ وبهذا تخلص وبلادهُ من شر هذه المواقع وان كانت قواتهُ قد ضعفت كثيراً الاان لا يزال باقياً فيها قليل رمق

تنظيمات اليصابات وسياستها الداخلية والنفوذ الفرنسوي

وان كانت اليصابات ممدوحة في حسن السياسة الخارجية

وتدبير امر علاقاتها السياسية مع باقي الدول لكنها كانت ضعيفة التدبير من جهة الاعمال الدينية وهي تتظاهر على الدوام بالغيرة الارثوذكسية والميل الى تعزيز مقاصد الاساقفة وانتشار سلطتهم ففي سنة ١٧٤١ اي في اول حكمها نشر المجمع المقدس (سينود) امرًا بالغاء الكنايس الارمنية من موسكو وبطرسبرج وفي تاتار اقفلوا قسماً من الجوامع ومعابد الصلاة لغير المسيحيين ومنعوا بناء غيرها مجددًا فهذا اهاج كثيرًا من الاهالي وثار كثير من اصحاب تلك الاديان . وطردت اليهود كاعداء المسيح من كل البلاد الروسية . فاعترض عليها باعمالها هذه مجلس الاعيان من انها تسعى بخراب تجارة البلاد وبتاخير رعاياها المادي . فاجابت اني لا اريد ربحًا ولا نجاحًا من اعداء المسيح . ولاصلاح العوائد الكهنوتية وزيادة التعليم فيهِ الزمت الاديرة ان ترسل تلامذة الى مجلس علماء اللاهوت في موسكو حيث كان يشتكي قبلاً ان ليس فيهِ الا ٥ طلبة وقمعوا السكر وسنوا على الرهبان سنن وقوانين من يخالفها بضرب بالعصي ويجلد . ونزعوا انية التبغ من كل الكهنة ومنعوهم من استعمالهِ للاعتقاد القديم من انهُ محرَّم وخالفوا بطرس الاكبر بادخالهِ الى البلاد . وكُتب تعليم مسيحي وزع في كل المدن . ولم تكن التعاليم

اللاهوتية وافية بالمطلوب وكانت دخيلة وما من تعليم كان اوانئذ الف وطبع وكان الجدال قائماً على الدوام في هل ان الملائكة تفكر بالتفصيل ام بالاجمال وفي ما هي طبيعة نور المجد بالحياة المستقبلة

واما الصناعة والزراعة ونحوها فكانت متعلقة بمجلس الاعيان فسلك بها على الطريقة التي سلمهُ اياها بطرس الكبير وكانت نزعتها منهُ حنة ايفانوفنا فراجت الصناعة جداً وتشجعت وفوقت الرتب والوظائف على فعلة الجوخ والاقمشة الحريرية والقطنية . وفي سنة ١٧٥٣ وضعت رسوم الجمرك الداخلي التي كانت تؤخذ في الطرقات وعلى بيع محاصيل الارض في غير مكان نتجها . واقيمت بنوكة حرانية لتقرض اصحاب الاملاك الدراهم تحت ستة غروش بالمائة سنوياً بينما كان اصحاب الاموال من تجار البلاد يدينوا الفلاح تحت فائض ١٥ بالمائة سنوياً او اكثر . وارسل المجلس المذكور عدة من اولاد التجار الى هولندا لدرس الفنون التجارية والحسابية وفتحت ابواب تجارة جديدة مع المشرق الاقصى وابتدأت سيبيريا ان تسكن وتصلح تدريجياً . واهتموا لان يقيموا بلاداً في روسيا الجنوبية المكفولة الان من هجمات التتار . واقاموا بين بوغ ودنيبر

في الارض التي افتتحتها حنة ايفانوفنا بلاداً حراثية وعسكرية دعيت بالسرب الجديدة

واما صرامة الشرائع فقد تلطفت في زمن اليصابات على نوع ما فابطلت القتل ولكنما اصواط جلاديها كانت تقتل كالفاس والذين كانوا يعيشون بعد الجلد يرسلون الى اشغال الدولة مقطوعي الانف او الاذان . وقانون الجزاء وقانون المحاكمة تماماً مع ان القانون المدني لم يكن ينقدم اصلاً . وكان البوليس والضابطة يسهرون ويجتهدون بتعب عظيم ليتمكنوا من ضبط الاموال ولو قليلاً جداً في تلك الجمعية الخشنة حيث ان اللصوص كانت تكثر وتوجد بكثرة في موسكو وبطرسبرج واحد كبراء هولاء اللصوص واسمهُ فانكا كاين فاز بشهرة عظيمة في كلتا المدينتين ونظم لهُ عدة اغنية كبطل . ومنع في المدن الكبيرة الرجال والنساء بوقت واحد من الاغتسال معاً في الحمامات (وقيل ان هذا لا يزال جارياً في بعض المدن الروسية حتى اليوم) . وكانت الحكومة ترى من نفسها انها غير قادرة على كبح لصوص البحر ولصوص البر الذين كانوا يؤلفون افواجاً وكثيراً ما ينضمون الى بعضهم فرقاً ويحاربون الجيوش المنتظمة وكانت المعارف في زمن اليصابات غير مهملة ولا متروكة

بل سمح لمن شاء بان يؤلف ويطبع ولمن شاء ان يفتح مدارس ويعلم العلوم التي يريدها واقام ايفان شوفالوف نديم اليصابات مدرسة كلية في موسكو كانت من انفع الاشياء للبلاد انتجت كثيرًا وجاءت بالاثمار الناضجة وقد قال عنها بعد ذلك اكبر مولفي الروسية . انهُ لم تعمر مدرسة في روسيا حتى ولا في يومنا هذا (سنة ١٨٤٤) اكثر نفعًا من هذه المدرسة ومن النادر ان يوجد في روسيا رجل يكتب صحيحًا ومضبوطًا او متوظف اديب وذو معارف او قاضٍ ذو اهلية وثابت في علم الشرائع الا ويكون قد خرج من كلية موسكو . انتهى . واراد شوفالوف ان كل طالب علم مهما كان اصلهُ يحمل سيفًا ويكون صاحب خطة ووزع عشرة اساتذة من كبار رجال المعارف لتدريس علم الحقوق والطب والفلسفة . وكان يقصد انشاء كليتين في بطرسبرج وفي باتورين واقام مدارس عسكرية على الحدود الجنوبية وواحدة لاولاد المنفيين بحيث لا يحرمون من العلوم لبعد آباهم عن مساعدتهم . وبعث بكثير من الشبان لتتميم دروسهم الطبية في بلاد اجنبية وشوفالوف هذا هو مبدع مجلس علماء الاداب في بطرسبرج حيث جاء بمدرسين فرنسويين وهم المصورلورين والنقاش جيله . والمهندس فالوا

وبعده جاء بديفالي ولاكرين ولم يكن في بطرسبرج اذ ذاك الا ٧٤٠٠٠ الفًا من السكان غير انها كانت تظهر بهيئة عاصمة بهية ذات رونق وبهجة والانشاءات تاخذ فيها بالنمو السريع. فكان راسترالي الايطالي يبني السرايا الشتوية وديرسمولنا (الذي صار فيما بعد اي في زمن كاترين الثانية مدرسة للبنات الشريفات) اكاذيمية المعارف. وكان يخطط فرساليا الروسية وهكذا كانت رجال المعارف. ايضًا تتباحث بشان تاريخ روسيا واصل منشئها. فعضوا مجلس المعارف جيوبر وميلير كانا يتناقضان في هذا الشان ويختلفان في اصل الروسية. وحاكم استركهان القديم كان يكتب تاريخ الحكومة ايضًا. وكان لومونسوف معلم الطبيعات وهو ابن صياد من اركنجل ذو قامة معتدلة وبنية قوية وكان في الاصل قبيح الاعمال ارسل الى الداخلية لينهي دروسهُ فتزوج بابنة خياط من ماكديبورغ واوشي بهِ الى الملك بروسيا وحبس ثم جاء روسيا وكان على الدوام معربدًا من الثمول ومعما هو عليهِ من الصفات الغير ادبية اشهر غرامطيق وعدة تاليف في علم البيان وفن الشعر واشتغل بتخليص اللغة الروسية الحديثة من لغة الصقالبة التي كانت بالكنيسة. وبالاخص كانت قصائدهُ تحفة جيلهِ وصار

احد علماء اكاذيمية جيله ولدى اجراء تجربة على كهربائية الجوّ كاد يقتل من الصاعقة · وسومار وكوف ابتدأ ان يكتب وقائع واهاجٍ وروايات وغير ذلك · ومثلهُ كان يفعل الامير كانتمير بن هولسيودار موالدافي سفير روسيافي فرنساو بالاختصار ان زمن اليصابات من جهة المعارف لم يكن زمن تاخير بل لعبت بهِ الغيرة في راس كل مؤلف فبرز الى ابداء ما اعطي · وقد ساد نشر الروايات وتلعيبها في المراسح لان الامبراطورة اليصابات كانت من هذا الوجه كجنة ايفانوفنا تحب الملاعب · والجوق الايطالي كان يلعب لها روايات رقص مضحكة وقد عينت لبرتيه مدير الملعب الفرنسوي ٢٠ الف روبل عن كل سنة وهي تجمع لهُ فوق ذلك من المتفرجين اما عن رضىً واما عن كره · والف في ايامها جوق روسي اخذ لهُ مشخصون من تلامذة مدارس الامبراطورة واقيم سوماريكوف مديرًا لهذا الملعب ورئيسًا وكتب فيهِ ست وعشرين رواية · وذهب كثيرون من اولاد امراء الروسية واعيانها الى فرنسا ودخلوا مدارسها واخيرًا انشأ والهم كنيسة يصلون بها تحت حماية سفيرهم وادخل احد اعضاء عائلة فورنزوف بخدمة لويس الخامس عشر

واخيراً عرفت هذه الامبراطورة التي توفيت وهي تحارب بنجاح تام ملك بروسيا بانهـا تممت مقاصد بطرس الكبير ونشرت باقي النجاح المادي واصلحت علم الحقوق وانشأت دوائر جديدة لتزيد في عدد شعبها وسهلت نمو المعارف واقامت لها رجلاً يعرف من ابطال المجتهدين بانشاء العلوم والفنون وهو نديمها ايفان السابق الذكر . وهيئت طرق التقارب بين حكومتي فرنسا وروسيا . وبالخارج سحقت تشامخ بروسيا التهديدي وعقدت الاتحاد الاول بين الدولتين المذكورتين ضد هوهزلرن فباعمالها هذه نالت اكبر قسم من المديح بالتاريخ الروسي ولا سيما بين بطرس الاكبر وكاترين الثانية

الفصل الرابع

ثورة سنة ١٧٦٢ وحكومة بطرس الثالث . الاتحاد مع فريدريك الثاني — كاترين الثانية

وبعد ان ماتت اليصابات خلفها ابن اختها بطرس الثالث وهو حفيد بطرس الاول وابن لحنة بتروفنا من شارل فردريك دوق هولستين وله من العمر اذ ذاك ٣٤ سنة وكثيرون

من الروسيين كانوا يرتابون في تملكهِ على التخت الروسي قبل ذلك الحين لما يعرفونهُ فيهِ من الاميال المضادة لمقاصد عمتهِ اليصابات ولاميالهِ الصيبيانية ورغبتهِ في ان يجري كوالدهِ دوق هولستين اذ يعتبر نفسهُ كغريب في روسيا لا كوريث للعهد وهو على عناد متواصل مع زوجتهِ صوفيا آنهلت التي سندعيها منذ الان كاترين الثانية . وكان صرف اكثر ايامهِ الماضية باتباع اشياء لاطائل تحتها وهو يعتني بتاليف فرقة عسكرية وبتعليمها وتنظيمها سماها فرقة دي هولستين . حتى ان عمتهُ اليصابات المتوفاة كانت تشك بصداقتهِ للحكومة الروسية عندما كانت تسمعهُ يتكلم عن حربها مع فردريك الثاني ويظهر اميالهُ الخصوصية والتزمت ان تمنع عنهُ قراءة المكاتبات السرية ورات من نفسها انها ملزومة ذات مرة ان تخرجهُ من غرفة المستشار !

ومع كل ذلك فان اعمالهُ الاولى عند تملكهِ سببت اندهاشاً وتعجباً لطيفين . ففي شباط (ففريه) سنة ١٧٦٢ اصدر اعلاناً بامر ملكي مفادهُ انهُ يعفي الاشراف من ان يلزموا بتكريس ذواتهم في خدمة الوطن حيث كان جدهُ بطرس الاول قد القى عليهم مثل هذا النير . وكان يقول ان هذا القانون الذي وضعهُ جدهُ انتج نتاجاً كافياً وافياً بغصب الاشراف واجبارهم على التعليم والتعلم

في كل الفنون حتى جاءوا بالخير العام واولدوا ولادة منيرة
فاقيم منهم جنرالون ومتشرعون وقضاة وضباط وممتازون ·
واما الان فمن حيث ان محبة الرعية للملك والحمية لخدمته وخدمة
الدولة والوطن قد دبت في كل من الاسيات الروسيين ومن
الاواسط والادنياء فما من وجوب للاهتمام بالنظر الى ذاك القانون
الاغتصابي. فعملهُ هذا اثر جدًّا في الاشراف المذكورين واظهروا
كانهم تاثروا من عمل هذا المعروف بحيث حل من ارجلهم
وثاقًا كان قيدهم بهِ بطرس الاول · وتكلموا الان يقيموا لهُ تمثالًا ذهبيًا
فاجابهم ان احسن البنايات والتماثيل هي التي يقيمها الملك بقلوب
رعاياهُ وباذهانهم. وخلاف هذا العمل ايضًا ابطل القونسلاتو
السرية ونشر حمايتهُ على الراسكونسكيين الذين اطهدوا في زمن
الحكم السابق وقل عددهم من الاربعين الفًا الى الخمسة الاف.
والوف من اولئك المنكودي الحظ كانوا هربوا الى البراري
وبعضهم هاجر الى البلاد الاجنبية · فامر ان يطمئنوا او يرجعوا
الى روسيا مقدمًا لهم اراضٍ في سيبيريا وفي محلات أُخر يقيمون
فيها · وارجع مقصد جدهِ بجمع اموال الاديرة والرهبان وقال
من الواجب ان يعيش خدمة الدين من معينات مخصوصة
معروفة تعينها لهم الدولة · وافتكر ايضًا بالفلاحين الذين عليهم

مدار النجاح والتقدم بتجارة البلاد وتقدم الدولة الحديثة التي اسسها بطرس الكبير واشهر امرًا عامًا بارجاع المنفيين والمطرودين من البلاد كافة مهما كانت جرائمهم . وارجع من المنفى ايضًا الساقطين في زمن عمتهِ عند الحكم السابق وهم مدام لابوكين والشيخ مونيخ ولستوك دوق كورلاند والبيرانيون والمغدانيون . كل هذا فعلهُ بايعاز فولكوف كاتم اسرار الدولة

ولسوء حظ هذا الامبراطور كان كل مايبطلهُ من القانون لايصادف قبولاً تامًا في عموم الدولة لان حسناتهِ القليلة لم تكن كافية لتستر قباحة سيئاتهِ خصوصًا حيث كان يتظاهر باحتقار الديانة ولا يعتني بتعزيزها لاعتناقهِ مذهب لوثير وقد شكك بهِ الشعب لانفراده على الدوام بغرفة الحزن حيث كانت جثة عمتهِ متظاهرًا بالحزن مع ان البرنسس داشكوف كتبت عنهُ . انهُ كان يسارر نساء القصر ويتبسم في وجه جوار بهِ وخادماتهِ ويهزء بالكهنة ويوبخ الضباط او الانفار او غيرهم على ثنية ربطة الرقبة وعلى كبر ازرارهم وتفصيل ثيابهم الرسمية . انتهى . وكانت التنظيمات التي يدخلها بالجيش تغيظهُ جدًا حيث كان يغير من عوائدهِ وتعليمهِ ولباسهِ قاصدًا بذلك تشبيههُ بالجيش البروسي وكان اكثر التفاتهِ واهتمامهِ بفرقتهِ المخصوصة (دي هولستين)

وقد قصد ان يجعلها لحد الثمانية عشر الف جندي . وحذف فرقة دي كور التي كانت اليصاباث الفتها من ذوي الرمانات الذهبية على الاكتاف في سنة ١٧٤١ و كان يظهر انهُ يتهدد فرق بربورانسكي وسيمينوفسكي وايسما يلوفسكي بالنصيب الذي كان ينتظرهم وقد كان قال ذات مرة ان جيش الحرس مخطر لاني اراه على الدوام محاصراً القصري ومحيطاً بي

وكان غير راضٍ من العوائد التي تجري في البلاط ومن الملاهي المضحكة التي كانت تدخل اليهِ بالوسوم فالزم السيدات ان تسري عند السلام والتحيات على العوائد الالمانية وابعد جوق المشخصين الفرنسويين عن القصر واجتهد في ان يغير من عوائد الاعيان وهم ينظرون اليها بكره و يسمونها بالخشنة . وقد قال برتيل سفير فرنسا في روسيا ان العيشة التي يعيشها الامبراطور هي مخجلة جداً حيث يصرف اكثر لياليهِ بالتدخين وشرب البيرا ولا ينقطع عن هذين النوعين الاَّ عند الساعة الخامسة او السادسة صباحاً فهو دائماً ميت سكران وقد اشتد اعتناؤهُ بالسيدة فورنزوف ومن اللازم الاقرار بان ذوقهُ هذا من افسد الاذواق اذ ان السيدة المذكورة كانت خاملة الفكر شنيعة المنظر اشبه بكل احوالها لخادمة فصر حقير تاركاً زوجتهُ الجميلة كارهاً في

فطانتها وزكائها العجيبين حتى اتهمها كثير من المورخين ان عمل زوجها هذا الزمها بان تعتاد على الميل الى غيرهِ من اخلائها

واما سياسة بطرس الثالث الخارجية فكانت موافقــة لفردريك الثاني الذي كاد يتلاشى وينسحق امام الجيوش الروسية منذ معركة كينرسدورف وهو يظن بذاتهِ انهُ هلك او يهلك اذا طالت الحرب الروسية غيران الانسان لا يقدر ان يتصور باي فرح وباي مسرة سلَّم على خبر جلوس بطرس الثالث وقد قدم تهانيهُ لهُ بواسطة سفير انكلترا وتحسنت الصلات سريعًا بين الملكين وأَمر تشرنايف ان يفترق عن النمسويين في سيلازي وارسل ملك بروسيا كولتز ليعقد شروط الصلح مع القيصر وقد فوض اليهِ بان يسلم بكل مطالب روسيا حتى وبروسيا الشرقية اذا كان بطرس الثالث يطلبها . وحين وصول هذا المفوَّض البروسي وجد ملكًا في روسيا لا يحلف الَّا باسم فردريك الثاني وبيده خاتم عليهِ صورتهُ متذكرًا ما لاقاهُ من عمتهِ لاجلهِ عندما طردتهُ من غرفة المستشار . فلم يرَ الرسول من وجه للمخابرة بشان بروسيا الشرقية كما كانت تشتهي اليصابات فرد بطرس الثالث لحليفهِ كل الفتوحات

الروسية وعقد معهُ معاهدة دفاع وهجوم بان يمد الواحد الاخر عند الحاجة باثني عشر الف من المشاة وثمانية الاف من الفرسان واصبح الجيش الروسي الذي كان يحارب بروسيا منضماً اليها ضد النمسا . وضمت للامبراطور فردريك الثاني دوقية هولستين ووعده بالالتفات الى تقسيم بولونيا واثبت دوقية كورلاندا الى خالهِ دي هولستين . ومن العجب العجيب ان يرى في ممالك العالم من تغيير سريع وانقلاب كهذا في السياسة بحيث أهمل ورفض كل من سفراء النمسا وفرنسا وصار سفير فردريك الثاني لدى البلاط الروسي نديماً اول بل كوزير يستشار في كل الاعمال وتجري آراؤه بحسب مشتهاه . وفي ذات ليلة عقد الامبراطور وليمة عظيمة وشرب بسرّ ملك بروسيا على صوت مدافع القلعة وكان يضاعف الكلمات العظيمة ليأكد حبهُ لفردريك وقد تعجب منهُ كولتز المعتمد البروسي حيث سمعهُ يقول وهو في حال سكره . فلنشرب بسر صحة الملك سيدنا لقد انعم عليَّ وجعلني اميناً على فرقتي ويمكن ان تاكد لهُ انهُ اذا امرني ان احارب الجحيم لسرت بكل جيشي

ومع ان الاتحاد مع بروسيا وترك افتتاحات اليصابات مغيظ لروسيا ومضر بصوالحها السياسية الاَّ انها ربما كانت

نظرت الى ذاك بعين الرضا والسكوت لو كان عملهُ هذا جاء
بحسم الحرب ونهاية قتال كاد يبلغ السبع سنوات الآن الجيوش
كانت لا تزال تقاتل مع مخالفيها وتشرنايف الذي كان يقاتل
منضماً الى الجنود النمسوية اصبح بامر هذا الامبراطور يقاتل مع
بروسيا ضد فرنسا والنمسا حتى رات المملكة عن قريب تفقد
كل قوتها بدون ان نكون قد حصلت على نتيجة تنسيها مثل
هذه الخسائر والمشاق واهراق الادمية لاجل ادعاءات بيت
هولستين . واعظم امر كانت تغتاظ منهُ الامة الروسية معاملة
قيصرهم لزوجتهِ كاترينا وهم يتشفقون عليها وعلى احتقارها منهُ
مع فطنتها وزكائها وهي تريهم ميلاً روسياً حاراً وتمسكاً دينياً
ارثوذكسياً ثابتاً . وقد علموا ان القيصر يقصد ويتوقع طلاقها
وابعادها ليتزوج بعشيقتهِ اليصابات فورونزوف وقد فكر
ان يحرم ابنهُ من ولاية العهد ويعهد بهذا الميراث العظيم الى
ايفان السادس انتقاماً من زوجتهِ المذكورة . وذات مرة امر ان
يلقى القبض عليها وتحبس بدير غيران امره هذا لم يصادف
نجاحاً ولا نفذ فيها لانها لم تكن من النساء اللاتي يسمحن
بالوقوع تحت مثل هذه التهديدات وان تكن اذ ذاك لا تزال
صوفيا دانهلت ولم تصر كاترينا الثانية . وقد قال في ذلك

برتيل سفير فرنسا . ان هذا لم يكن الا من جملة الاحتقارات
اليومية التي كانت تقع عليها من زوجها وهي تقاومها بنشاط
محاطة من شبان بواسل اصحاب نفوذ كامل وتجري عملها بتأنٍ
وصبر . انتهى . فكل ماتقدم جعل الامة الروسية متاثرة من
اعمال قيصرها وفواحشهِ و بغضهِ للتقوى والجميع يتوقعون نزعهُ
عن الكرسي وطردهُ من بينهم ليجعلوا حدًا لاعمالهِ الغير مرضية
وقد اختلف الرواة في ثورة سنة ١٧٦٢ . وما يعرف منها
رواية دولهيار ورواية البرنسس داشكوف ومن تحاريرها
وتلغرافات السفيرين كيت وبرتيل ومن تحرير كاترين الثانية
نفسها الى بونياتوفسكي ان الذي اسرع بوقوع هذه الثورة هو امر
القيصر الذي اصدرهُ لجيش الحرس ان يستعد ليسافر الى هولستين
وكان بطرس الثالث يشعر بما يراه من الخطر المحيط بهِ وهو لا ينتبه
الى ملاقاتهِ وقد اكتفى بان لا يظهر في مجلس الاعيان ولا في
البلاط الملكي ولا مع الجيوش غالبًا . وكثرت التجمعات
والتحزبات والمباحث وكان بعض المتجمعين يريدون ان يقيموا
على كرسي المملكة بولس الاول تحت وصاية امهِ والاخرون
يريدون ان تكون كاترينا الثانية امبراطورة عليهم مطلقة القياد
وكان الحزب المنضم الى كاترينا يتالف على الاكثر من شبان

ومن ضباط تحت قيادة غريغوريوس اورلوف الذي قيل انهُ
كان اوانئذٍ عشيقها والكسيس اورلوف وثلاثة غيرهما من عائلة
اورلوف المذكورة وبارباتنسكي وباسّك وكانت هذه العائلة
كثيرة الامانة محافظة على سر كاترينا مساعدة لها بكل اعتناء
وحكمة بحيث لاتخرج عن طرق الرزانة · والحاصل ان كاترينا
وجدت ان الفرصة مناسبة لان تخرج بافكارها من حيز العدم الى
حيز الوجود بينما كان الامبراطور زوجها مقيماً في اورانيانيوم
مع عساكره (فرقة هولستين)

فتركت بيترهوف محل اقامتها وهو على طريق اورانيانيوم
وجاءت العاصمة بغتة وبرفقتها الكسيس وغريغوريوس اورلوف
وخادمان آخران وعند وصولها دعت بثلاث فرق من الحرس
المشاة وعرضت عليهم نفسها وخدمتها فصاحوا بطاعتها وصرحوا
بعداوة الملك واقسموا لها يميناً بين يدي رهبانهم واساقفتهم وفي
الحال زحفت على فرقة الفرسان من الحرس وهي تحت قيادة
جورج دي هولستين خال بطرس الثالث فقبضت عليهِ بواسطة
الفرقة المذكورة · ثم جاءت كنيسة نوتردام كازان ومنها الى قصر
الشتاء محاطة بالعساكر ورجال الثورة وارسلت الاميرال
تاليزين الى كرنستات لتكون مطمئنة على القلعة هناك قبل

وصول بطرس زوجها اليها ونشرت اعلان سلطتها بين الشعب فصادف قبولاً عاماً . ومن ثم زحفت بعشرين الف رجل ما عدا رجال المدافع على اورانيانيوم حيث كان الامبراطور زوجها . فذهبت راحتهُ وقلق واضطرب واسرع الى كرونستات ليكون بمقدمة حرس القلعة وعند وصولهِ اليها خاطب الاميرال تاليزين قائلاً (انا الامبراطور) فاجاب الاميرال (لم يبقَ امبراطوراً على روسيا) وتهددهُ باطلاق المدافع عليهِ من القلعة اذا لم يرجع الى محل اقامتهِ فعاد حزيناً وهناك رغماً على نصائح مونيخ القائد الشيخ وتعليماتهِ الحربية وعضد فرقتهِ الهولستينية التي كانت تبلغ نحو ١٥٠٠ نفر سلم نفسهُ كطفل وقد قال في ذلك فردريك الثاني صديقهُ (سلم نفسهُ كطفل ليوخذ الى مهده فيرقد) . ومثَّل امام زوجتهِ ذليلاً مع خليلتهِ واعز امنائهِ فوبختهُ وارسلتهُ الى المنفى وفي ذلك قالت نفس الامبراطورة ما ياتي (بعد ان مثل لديَّ الامبراطور وذكرتهُ بخيانتهِ لي وملامة الروسية بعثت بهِ تحت محافظة الكسيس اورلوف وبمعيتهِ اربع ضباط الى محل يدعى روبشا يبعد عن بيتروف ٢٧ افرست منفرد جداً لكنهُ ظريف وحسن المناخ وبعد وصولهِ اليهِ باربعة ايام مات بمرض باسوري مختلط بتهيج نخاعي . انتهى . غير ان احد

الكتبة الفرنسويين تكلم عن ذلك بعد مضي تسع سنوات من هذه الفاجعة فنسب موت الامبراطور بطرس الثالث الى وسائط موثرة اجراها في جسمهِ الكسيس اورلوف الذي جآ بهِ الى منفاه حيث يقول . انهُ لمن المحزن جدًّا ان يكون رجلاً محبًّا للانسانية بهذا المقدار كالكسيس يلتزم ان يقوم بعمل قبيح طلب اليهِ ان يعملهُ . انتهى

وحال استلام كاترين الثانية لازمة الحكم كتب بعض الافرنسيس في ١٧ تموز (جوليه) سنة ١٧٦٢ قائلاً « بماذا تمثل طائفة هي ذاتها تحكم باطمئنان قلب فبطرس الثالث حفيد بطرس الاول طرد عن كرسي عرشها وقتل اخيرًا . ومن جهة اخرى ان حفيد القيصر ايفان الخامس اصبح يخب بقيودهِ منتظرًا الموت بينما برنسة دانهلت (كاترين الثانية) تختلس تاج اجدادهم وتفتتح جلوسها بقتل الامبراطور » . وايفان التعيس السادس الذي كان قد اعيد الى العاصمة من بطرس الثالث اودع السجن ثانيًا في شيلسلبورغ وفارقهُ عقلهُ ولم يعد الاَّ اسماً مخطرًا لنفسهِ

فمما تقدم نرى على الدوام ان الثورات ذات ذنب عظيم وان المساعدات العسكرية تذهب بالجسورين الى ارتكاب

عظائم الامور بشجاعة تزيد بهم لكن لا عجب فأن سوء اخلاق الملوك احيانًا يذهب بالرعية الى الكره فيضجرون ويملون من مالكيهم ويضطرون الى التخلص من ظلمهم ولو ضحوا بذلك صوالحهم وصوالح بلادهم · وبعد جلوس كاترينا بمدة سنتين قصد ميروفتش قائمقام بالحرس الوطني ان يخلص ايفان السادس من سجنهِ ففاجأ الحبس بفرقتهِ ولما لم يجد المحافظون عليهِ واسطة لتهريبهِ قتلوهُ حال دخول المخلص الى غرفة سجنهِ وعند وصولهِ اليهِ لم يرَ الاَّ جثتهُ فوقف حزينًا · وبعد ذلك قبض ميروفتش هذا وحكم عليهِ بالقتل فقتل واحضر راسهُ امام الوف من الروسيين · حتى ان جسر نيفا المتراكم فوقهُ المتفرجون كاد يسقط في اللجج والسلالم والجدران كادت تدك · ولم يعد لكاترينا خصم بعرش روسيا ولا مضاد في السلطة الاَّ ذات ابنها

وقد تكلم فولتير عن كاترينا الثانية بعد ذلك بزمان قريب فقال «اني اعرف ان المورخين يوبخون كاترينا الثانية ببعض اشياء هزئية مما يتعلق بزوجها ولكنها اشياء عائلية لا اتداخل بها ومع ذلك فليس من الذميم على الانسان اذا ارتكب غلطة لاجل الاصلاح واجبر الى اجراء اجتهادات عظيمة تلزم الشعب ان تحير ويندهش» ونرى باي جهد

الزمت كاترينا الثانية الروسيين لان ينسوا الاسباب التي اقرّت لها العرش الروسي وذلك مما ياتي في الفصل الآتي من حال حياتها واجراءاتها وفتوحاتها

الفصل الخامس

في كاترينا الثانية وسنيها الاولى من سنة (١٧٦٢—١٧٨٠) ونهاية حرب السبع سنين والمداخلة في بولونيا

لا ينكر كل من اطلع على تاريخ روسيا ووعاه بتأنٍ ان كاترينا الثانية التي دعيت بالمعظمة لها القسم الاكبر المهم منهُ وهي التي وسعت املاك روسيا وسلكت في حروبها وسياستها مع الدول سلوك الابطال الاشداء آناً وآناً سلوك العقلاء الحكماء وقد اتفق عموم المورخين على اقدامها على عظائم الامور وتوفيقها بالحروب وحكمتها بالتدابير السياسية والحربية . لكن كثيراً من اولئك المورخين قد نددَ بقبح سيرتها وانها كانت غير ادبية مما سوَّد كل اعمالها في اعينهم واعين الكثير من رجال ازمانها الاَّ ان هذا البحث ليس هو من المباحث التاريخية التي نحن بصددها الان واذا كانت صحيحة فهي تعود على نفس الامبراطورة

بالخجل لا على المملكة والامة ولا يكون نصيبها من هذه الجهة اكثر عاراً واهانة من نصيب كثيرات من سيدات قصور اوربا ففي كل بلاط كان الفحش والقبح سائداً وعاملاً يجري على مرأى او بالحري على علم من رجاله . ولما كان مقصدنا الاساسي الكلام عن تاريخ روسيا وعما كان لها في زمن هذه الامبراطورة وما اوصلتها اليه نضرب صفحاً عن ذكر سيرتها وما يتعلق بهذا الباب فنقول

ان كاترينا هذه لم تكن روسية الاصل الاَّ ان اعمالها وميلها الظاهري كان يبرهن للامة الروسية انها من اشد ملوكهم حبًا للبلاد وان اعمال ومقاصد بطرس الكبير ستحيى بوجودها فاول شيء اجرتهُ عند قيامها على العرش الروسي هو انها اصدرت اعلانًا اظهرت بهِ ان فردريك الثاني ملك بروسيا مضرٌ بالسلام في اوربا ومقلق لراحة الملوك فهو لهُ عدوٌّ خائن . وبعثت بامرها الى تشرنايف ان ينفصل عن الجيوش البروسية ويتخلى عن الحرب وبعد ان وصل هذا الامير الى القائد المذكور وكانت بروسيا على قدم التقدم والنجاح خاف فردريك من انقلاب الاحوال قبل عقد الصلح فبذل جهدهُ في ان اقنع القائد الروسي ان لا يخرج من الحرب قبل ثلاثة ايام فصادف نجاحًا واستفاد من

ذلك بان اقتصر على دون وقرر الفوز لهُ . ومن ثم رجع تشرنايف عن مواقع القتال واذ ذاك سعت كاترينا في عقد صلح بين الدول وحسم حرب طالت الى مدة سبع سنوات . وكان قد خيل للناس من قراءاتها ومن بقاء تشرنايف بالقتال وقتاً قليلاً ومن طلبها لشروط الصلح ان اميالها كانت متجهة لعضد الراي الشمالي اي انها باتحادٍ وفيٍّ مع بروسيا وانكلترا والدانمرك ضد دولتي الجنوب العظيمتين وهما فرنسا والنمسا الا انها لم تكن كذلك بل كانت تسير في ميلها حينئذٍ وعلى الدوام مسير الصوالح الروسية

وكانت دوقية كورلاند قبل ذلك الحين تابعة لمملكة بولونيا فاصبحت بعين الحقيقة مضافة لروسيا وكانت خالية من حاكم معروف عليها اذ ان حنة ليوبولدوفنا كانت نفت الدوق بيرن وبطرس الثالث عين عليها جورج دي هولستين واغسطوس الثالث كان يتشوق لاقامة ابن شارل دي ساكس لكن كاترينا انهت هذه المخاصمات باقامة الدوق بيرن واضافة هذه الدوكية ادبيًا الى مملكتها . واذ ذاك توفي بغتة ملك بولونيا فاستدعى موتهُ انتباه جميع الدول العظيمة ولا سيما كاترينا الثانية التي كانت تسمع بتغيير هيئة هذه المملكة وطالما اقلقت راحتها

واشغلتها مع باقي الدول من جيرانها وحاربت كثيراً بسبب انتخاب روساء جمهوريتها . وبداعي خلو الكرسي من الحاكم رجع الخصام بين البولونيين وانقسموا الى قسمين احدهما حزب البلاط مع الوزير بريهل وصهره منيشيك يطلبون قيام البرنس دي ساكس . والثاني وهو الذي يستعد على مساعدة روسيا وروساوه التزارتوريسكي يطلب اما اقامة بياست ابن احد شرفائهم واما استانسيلاس بونياتوفسكي . وهكذا فرنسا التي حاربت في سنة ١٧٣٣ لاجل بياست ضد المرشح السكسوني كانت في هذه المرة تعضد السكسوني ضد بونياتوفسكي . والسبب ان الحوادث كانت قد تغيرت والملكية البولونية تضعف تدريجياً ولا تقدر على ضبط قوتها الا بمساعدة مملكة المانيا. واصبح فردريك الثاني يخشى ازدياد قوة الساكس كونهم هم الخصم القديم لبروسيا في المملكة فضاد قيام البرنس دي ساكس . واما روسيا فانها كانت متفاوتة المقصد تظهر في سياستها انها لا تريد قيام شريف من شرفاء البلاد ولا تعطي رأياً باتاً خشية من ان تعود الى بولونيا قواها في المستقبل وجل ما كانت ترضاه موقتاً استانسيلاس بونياتوفسكي فاختلاف المقاصد دعى المتحزبين الى حمل السلاح والرجوع الى الحرب التي كان لابد منها عند

قيام كل منتخب لبولونيا وانتشبت الحرب فيما بينهم فدعت الحال
الى مداخلة روسيا المادية فبعثت بعساكرها الى مساعدة
التزار توريسكيين وطردت اعداءهم وقررت كرسي الجمهورية
لبونياتوفسكي التعيس التي تهشمت بولونيا ثلاث مرات تحت
سلطتهِ ومن ثم فسخت من قائمة الممالك . والذي حمل الدول
على ان تفتكر بهذا التقسيم هو الاسباب الثلاثة الاتية

اولاً . هياج الشعب الروسي حيث كان يريد ان يتمم
اعمالهُ من جهة الغرب ويقرر الراحة الدائمة لصوالحهِ المستقبلة
بانقراض هذه الجمهورية وان يستولي على الاقاليم التى اشار اليها
المؤرخون انها قسم من ملك القديس فلادمير (اي روسيا
البيضاء وروسيا السوداء وروسيا الصغرى) . وان يقرر
انتشار الدين الارثوذكسي الذي كان يصادف من اهالى بولونيا
على الدوام اهانة ومنعاً . وفي سنة ١٨١٨ و ٧٢٠ كان
بطرس الكبير قد كتب الى اوغسطوس الثاني يسالهُ ان يزيل
الموانع التي كانت تقاوم بهار وساء الاديان الدين الارثوذكسي
وعليهِ نشر اوغسطوس اعلاناً يشدد بهِ على وجوب عدم معارضة
الدين الارثوذكسي فلم يصادف اعلانهُ هذا نجاحاً بل زادت
روساء الاديان همة ومقاومة ولا سيما الجزويت الذين ما كانوا

يراعون جانب الحكومة و يوكدون انها غير كافية القوة لمنعهم فبذروا غاياتهم في كل نواحي بولونيا وفي سنة ١٧٢٣ كتب بطرس المذكور البابا يطلب مداخلته متهدداً اياه انه يقابل بالمثل الكنائس الكاثوليكية في كل بلاده فلم يجب البابا طلبه ودامت المقاومات والاضطهادات في مجراها منذ موت بطرس الى ذاك الحين والشعب الروسي ينتظر فرصة للانتقام من تلك المملكة كيداً للجزويت ومن جاراهم فيلاقون نتيجة اعمالهم

ثانياً مطامع بروسيا الخشنة في الحصول على بعض قطيعات من هذه المملكة وهي بروسيا الغربية اي الفستولا الاسفل وتورن ودانتزيك وهذه هي كانت تفصل بروسيا الشرقية عن باقي الممالك البراندبوجوازية وكان ايضاً ما يجريه خدمة الدين هناك يغيظ قسماً كبيراً من الشعب البروسي فان كثيرين منهم كانوا يهاجرون عن تلك البلاد

ثالثاً ان عالم بولونيا لم يكن قادراً الان يحتمل ثقل النظام الجديد ولان يثبت تحت النير الذي يجبره الى البقاء مستكناً لدى صوالح الدول الاجنبية فبونياتوفسكي وكثير من علماء بولونيا كانوا يراقبون الاختلافات التي كانت واقعة بين شرفاء الشعب والحكومة من جرى النظام الجديد الذي يضعف لا بل يهدم ركن

الحالة المركزية وبميت بالتدريج سلطة الشرفاء . وهي ترغب في ان تكون باقية على نظام الجيل الحادي عشر وان كانت واقعة في نصف الممالك الاوربية التي كانت تقدم عليها وتنمو بمعارفها وتعاليمها التمدنية وتكثر من التداخل في امورها واعمالها الداخلية والخارجية حفظاً لصوالحها ولراحة تجارتها

وبمجرد النظر الى الهيئة الاجتماعية نرى ان بولونيا كانت طائفة عبيد حراثية يحكمها عدد صغير من الشرفاء ومن اصحاب العيال الكبيرة لاتقدر الحكومة المالكة على كبح مقاصدهم والوقوف في سبيل كبريائهم ومنع غاياتهم . فالسائدون في هذه المملكة هم الشرفاء والاكليروس . وما بقي وان كانوا كثيري العدد الا انهم كانوا بذل" لا يعرفون من نفوسهم الا انهم كاثوليك وملزومون بالطاعة لاسيادهم والانقياد الى خدمة الدين . وكان في بولونيا مليوناً من اليهود لكنهم كانوا بدون نفع اذ لم يكونوا من اصحاب السيف بل دابهم السعي وراء الاعمال الاقتصادية وجمع الاموال والتسليم في كل القضايا الى ما يطلبه اليهم اسياد البلاد . وعلى هذا كانت الصناعة قليلة جداً والتجارة الداخلية ضيقة بيد الاهالي مسلمة ليد بعض الاجانب وشان كل الاهالي في شغلهم الدائم الحراثة والثورات التي كان يقودهم اليها شرفاؤهم

فهذا مع العادة القديمة اوجب مداخلة الاجانب وبيعهم الاصوات حين الانتخاب ووجود الجند على الدوام من الصنف الغير منظم المختص بالاستعباد للاشراف وخلو الحدود من الجيوش قاد ببولونيا الى وضعها تحت مباحثة الدول الثلاث وهي النمسا وروسيا وبروسيا وكان يؤكد منتخب سكس انهُ بثماني واربعين الف رجل يتمكن كل فائد من افتتاح بولونيا . فماذا يا ترى تقدران تفعل وهي منقسمة على ذاتها ميالة بمطامعها الى ذهب اعدائها من جيرانها المتفقين على تقسيمها ولسفرائها في البلاد من النفوذ والقوة والسلطة ما لم يكن للملك قط وكل سفير من سفراء الدول الثلاث المذكورة يعتبران بولونيا اصبحت في يديهِ فيبعث بارائهِ الى المجالس والمحاكم فتجرى حالاً

فاتفق فردريك الثاني وكاترينا الثانية على طلب حقوق المنشقين عن كنيسة بولونيا ومنع كل ترتيب جديد يختص باصلاح الحكومة ودعيا الراي الاوربي الى ان يرى طلبهما هذا بعين الاعتبار حيث ان الاول كان يطلب حفظ الكنيسة البروتستانية والثانية الكنيسة الارثوذكسية من اضطهاد الجزويت ورؤساء الكنيسة الرومية . ففي سنة ١٧٦٥ قدم كونتسكي مطران روسيا البيضاء لائحة لملك بولونيا يذكر بها كل الاضطهادات

التي وقعت على الكنيسة اليونانية في كل انحاء بولونيا وعدّد
نحو مائتي كنيسة اصبحت فريسة المضطهدين وذكر ايضاً الموانع
والعوائق التي حتمت بمنع بناء او اصلاح الكنائس التي سقطت
لذلك وابان ما وقع على الكهنة من سوء المعاملة والقتل وختم
اللائحة المذكورة بقوله « ان الاباء اليسوعيين امتازوا بهذه
الاعمال عن غيرهم لانهم اصحاب حمية واقدام وسلطة والحكومة
الحالية تساعدهم على انفاذ مآربهم ولا سيما عندما ارسلوا فجمعوا
الشعب الارثوذكسي من يونانيين وروسيين من القرى المجاورة
وعوملوا كقطيع من الغنم بين يدي رعاته وحبسوهم ستة اسابيع
الى ان الزموهم ان يقوموا بالواجبات الدينية على المذهب الروماني
وان يعترفوا بخطاياهم جبراً لاولئك المرسلين المضطهدين ولكي
يخيفوهم ويخيفوا غيرهم ممن كان في خواطرهم الانضمام اليهم نصبوا
خوازيق في محلات مختلفة ومددوا بعضهم على اغصان من
الشوك وضربوا البعض بمثل هذه الاغصان وفرقوا كثيراً من
الاولاد عن والديهم ومن الزوجات عن ازواجهن وفي النهاية
كانوا يرعبونهم باعجوبات خرافية وهمية ومن كان يقاوم
ويصرّ على العناد كانوا يحرقون يديه ويودعونه السجن
اشهراً طويلة)

وانتشر خبر هذه اللائحة وصادق الرأي المستقيم على صحتها وصادفت نجاحاً ولم يكن للمتهمين بمثل هذه الاعمال ان يخفوها وعضدتها روسيا امام المجلس البولوني وكذلك استانسيلاس وعد في بادئ الامر بعضد المنشقين وازالة الموانع الواقعة في سبيل الاديان غير الكاثوليك الاَّ انهُ كان من امره ان ثبَّت الحرية التامة لطائفة الكاثوليك التي كان منها وقرر للشرفاء الارثوذكس التمتع بالحقوق السياسية والوطنية فقط الخارجة عن الدين وان يبقوا تحت ثقل النظام الديني السابق . ومجمع سنة ١٨٦٦ قاوم هذا الطلب ودافع عن النظام القديم وحتم بوجوب منع حرية الاديان في البلاد وان تبقى السلطة الدينية بيد اولئك المرسلين الظالمين . واعيد الظلم على المنشقين واضطهد كل من يقاوم واضطهد غورفسكي المرسل الروسي الذي حامى عن الارثوذكسية واوشك ان يذبح

وعليهِ فقد التزم ربنين سفير روسيا في بولونيا ان يدعو بالمنشقين الى الانضمام والتعاهد . فاجتمع الارثوذكسيون في سلوتسك والبروتستان تحت حماية سفير بروسيا في تورن وانضم ايضاً اليهم بعض جماعة من الكاثوليك كانوا غير راضين من تصرفات الحكومة الحالية وهولاء ايضاً اخذتهم روسيا تحت

حمايتها وهيأت ثمانين الف جندي من جنودها للدخول الى بولونيا عند اول اشارة تصدر من روبنين. وعند ذلك عقدت الحكومة مجمعاً سنة ١٧٦٧ وهي تحت هذه الاخطار ورغبت في تقرير السلام واعطاء حرية الدين فقاوم كثيرون هذا المبدأ وسلم بهِ سولتيك مطران كراكوفيا وزاليسكي مطران كياف وقاصدان رسوليان اخران فدافعوا بحرارة على تقرير آرائهما والتسليم بمطاليب المنشقين فاهينوا ووجدوا تحت مركز صعب والتزم روبنين ان يتسلمهم بواسطة عساكره ويرسلهم الى روسيا وبقي الشعب الاكثر عدداً مصراً على بقاء الدين على حالهِ وان يبقى الملك على الدوام من المذهب اللاتيني لكن يعطي للاشراف المنشقين حقوق سياسية بمثابة حقوق الكاثوليك. وبقيت الاحوال في ارتباك الى سنة ١٧٦٨ حيث عاهدت حكومة بولونيا روسيا بان تسهل لها مطالبها وان لا يمكن اصلاح جديد يدخل البلاد الا باطلاعها ومعرفتها وعليهِ اخلت روسيا فارسوفيا وارضت الملك ومحبي السلام

فهذا اغاظ المتعاهدين من الكاثوليك ضد المذهبين الارثوذكسي والبروتستاني ودعي كاثوليك رادوم الى حمل السلاح ضد الاصلاحات وضد النتيجة التي تصل اليها حالتهم

بسبب هذه المعاهدة. ثم اتلدة معاهدة بار في بودولي بعدد كثير واشرطت على نفسها الدفاع في سبيل عضد الغاية. وعقدت كذلك في كالليتي وفي ليلن معاهدتان بذات المقصد واتخذ هولاء الثائرون المتعاهدون اسماً لهم يعرفون به وهو (برور بلجيوني ليبرتاتي) وكانت ليبرنه التي معناها حرية لاتخص الاَّ بحرية الاشراف. فمتعاهدو بار ارسلوا وفداً لدول درسنت وفينا وفرساليا ليرتبطوا معها بالراي وتساعدهم عند الاقتضاء. وكان يقود اولئك المتعاهدين كهنة مترفضون يثيرون تحت اسم ليبروم فيتو واستانسيلاس وجد نفسهُ مضطراً الارتكاب غلطة جديدة واشهر موسيو شوازل وزير لويس الخامس عشر نفسهُ لدى العالم الاوربي بان امياله متجهة الى مساعدة المتعاهدين الكاثوليك وعليهِ راى المتعاهدون على بولونيا ان من الواجب الحكم على هذه المملكة بالاعدام فتموت تحت ارجل غاياتهم ومطامعهم او بالحري تحت ظلم تعصبهم الديني وغايات المرسلين والاساقفة المترفضين الحاتمين بوجوب الدفاع عن حرية الدين ومنع المنشقين من الكاثوليكية عن التظاهر

واذ ذاك التزمت روسيا ان تبعث بعساكرها الى محاربة

المتعاهدين في باروفي برديشف وفي كراكوفيا وحمل المنشقون السلاح ووقفوا لمضادة المتعاهدين وزحف قوزاق ايكوان والزابوروغيون والهيداماكيون (اي اللصوص) في بولونيا . فكان من نتيجة هذه الحرب الوحشية والقتال الشعبي والديني والاجتماعي معاً ان خربت اقاليم دنيبر ولاقى سادات البلاد الاسرائيليون وغيرهم مظالم هذه الحرب وسلموا بانفسهم الى تلك المذابح الدموية . وطاردت الجيوش الروسية المتعاهدين في كل الجهات ونزعت منهم عدة مراكز فاسرعت حكومة فينا الى امدادهم بالقوات وتمكن شوازل وزير فرنسا من ايصال دراهم اليهم ينفقونها في تلك الحرب وبعث بثلاث قواد من المشاهير وهم الشفاليه تولاس وديموزياز والبارون فيومسنيل مع قواد ثنويين من الفرنسيس وحالما حلوا في بولونيا استلموا قيادة المتعاهدين وقاتلوا الجيوش الروسية والمنشقين قتالاً ثابت الجاش وبمدة غير طويلة تشتت شمل ديموزياز مع جيوشه الغير منظمة في لندسكورن سنة ١٧٧١ الا ان فيومسنيل استولى على قلعة كراكوفيا وطرد الروسيين منها واخيراً حاصر القلعة المذكورة الجنرال سوفاروف فاسترجعها وتقهقر الحامية تحت قيادة الفرنسويين

حرب كاترينا مع الدولة العلية سنة (١٧٦٢ — ١٧٧٤) تقسيم بولونيا الاول (١٧٧٢) ثورة الاسوج سنة (١٧٧٢)

ولما راى شوازل وزير فرنسا الاول نجاح روسيا في بولونيا ظن ان اكبر واسطة لكبحها ونجاح المتعاهدين قيام الدولة العثمانية عليها فكتب الى فرجن سفير حكومتهِ لدى الباب العالي يامرهُ بان يسعى بالقاء الخلاف بين الدولتين العظيمتين وصرف الجهد الى ذلك مع بذل كل ما عزَّ وهان . ولم يستحسن المورخون سلوك شوازل وقد ندد بهِ كثيرون منهم لانهُ كان الوسيلة الكبرى لكبح مقاصد فرنسا وزاد في مطامع بروسيا وروسيا الى تهشيم بولونيا كيداً مع ان كاترينا الثانية وان كانت تميل على نوعٍ ما الى تقسيم هذه المملكة الاَّ انها كانت تفضل ان تحفظها برمتها تحت سيادتها ويكون لها النفوذ الاول اي انها تاخذها تحت حمايتها وتمنع عنها مطامع غيرها وتضمها فيما بعد الى املاكها . وعليهِ اخذ فرجن في ان يطرح افكار الوزير الاول الفرنسوي لدى اعتاب السلطان الاعظم ويتوسل اليهِ ان لا يترك بولونيا عرضة للذئاب مع ان لهُ الصالح الاكبر هناك . وحالما بلغ الباب العالي خبر اختلاس حدوده في بالتا ولم تكن الجيوش الروسية المختلسة بل الهايدماكيون المطارَدون من الروسيين اشهر الحرب على روسيا وبعث

بوزيره الاول على قيادة مائة وخمسين الف رجل عثماني ولم
تكن قوة الدولة العلية اوانئذٍ تمكنها من نوال الغاية حيث كانت
قبل ذلك بزمن قصير تحارب النمسا فقل من قوتها جانب لم
تتمكن من تعويضهِ قبل فتح هذه الحرب وارسل فرجن البارون
توت الى كريم كيراي خان القريم التترية ليجعلهُ ان يشترك مع
الدولة العلية في هذا القتال ففاز بنجاح خطتهِ . وفي شتاء
سنة ١٧٦٨ نهب التتاريون السرب الجديدة التي اقامتها الملكة
اليصابات ورات كاترينا الحالة الصعبة التي وقعت فيها
جيوشها وهي تحارب في بولونيا وعلمت ان حربها مع الباب
العالي ربما كان رديء العاقبة فارسلت الجنرال غاليتسين
على قيادة ثلاثين الفًا ليقف في وجه الوزير الاعظم العثماني
الذي كان ازمع أن يدخل بودولي لينضم الى المتعاهدين
البولونيين واعهدت الى القائد رومانتسوف ان يشغل ابركان
ويراقب تتر القريم والكلموك وبعد قتال عظيم وقع بين
الوزير الاكبر وغاليتسين عند دنيستر بقرب كهوتين استولى
الاخير على هذه المدينة واشغل مولدافي وفالاشي بينما كان
رومانتسوف يطارد خان التتر وهو على مائة الف تتري وحاصره
عند شطوط لاركا . ومن ثم انتصر انتصار كاغول المشهور

(سنة ١٧٧٠) وفي سنة ١٧٧١ استولى دولغروكي على حصون بيريكوب وخرب القريم واخذ كافا وكرتش وينيكالا (القلعة الجديدة) وانهى فيما بعد غير الحكم الروسي من شبه الجزيرة وفي تلك الاثناء كان جيش فالاشي يستولي على قلع الدانوب الواحدة بعد الثانية وكاد ينهي افتتاح بسارابيا باستيلائهِ على بندر ودخولهِ في حدود بلغاريا

ولم يكن هذا الفوز الروسي وقع عن ضعف في الجيوش العثمانية التي كانت تزيد اعداءها كثيرًا لكن الشعوب المسيحية التي كانت في تلك النواحي من الصقالبة كانت تهيء لها السبل الموصلة الى الفوز بينما كان الوزير الاكبر يشفق على مثل اولئك الاعداء الداخلين ويترك لهم حرية العمل لعلمهِ انهم من رعايا الدولة المؤبدة القرار وفضلاً عن ذلك ان شواغل كثيرة اشغلت الباب العالي اوائذٍ حيث كانت كاترينا الثانية قد توصلت بان جعلت مصر بحالة اضطراب وهيجان وبعثت بالاسطول الروسي من بحر البلطيك تحت امرة الكسيس اورلوف وبعد ان دار كل العالم ظهر عند شطوط اليونان وهيج الطوائف المسيحية في مورا الغربية وفي مانية ثم ترك اورلوف شطوط اليونان بعد ان دسَّ فيهم سمَّ الثورة واسرع الى البحث على الاسطول

العثماني ومعهُ الاميرلان سبيردوف وكريغ وضربها الى اخرها في جون شيو وهي على حين غفلة عند شط تشمسه وساعدتهُ الحراريق التي جاء بها ديكدال الانكليزي . فكل هذا جعل الباب العالي بارتباك واضطرب اهل الاستانة عندما بلغهم ان الروسيين وصلوا الى البوسفور وان الكسيس اورلوف قرب من الدردنيل غير ان الكسيس اضاع وقتهُ بالاستيلاء على الجزائر فتمكنت الدولة العلية من ازدياد العساكر ومن وضع مدافع كافية على الدردنيل وعند ما جاء الروسيون مدخل المضيق وجدوا ان الوقت قد فات فدفعوا دفعة هائلة

ولما رات النمسا ان روسيا قد استولت على ازوف والقريم وشط البحر الاسود بين دنيبر ودنيستر وبسارابيا وفالاشي ومولدافي وقسم من بلغاريا وجزائر الارخيبل اضطربت من هذا الجوار وخافت من تغيير ميزانية الشرق فسعت في عقد اجتماع دولي في فوكشاني لعقد الصلح بين المتحاربين جاعلة بولونيا غرامة لهذه الحرب . واما فردريك الثاني ملك بروسيا الذي كان جلُّ غايتهِ تهشيم بولونيا لاضطراره جغرافيًا الى الاستيلاء على بروسيا الغربية واذا امكن على نواحي الفستولا وكان سببًا لالقاء الفتنة في بولونيا لعلمهِ ان الدولة الروسية تحامي عن الدين

الارثوذكسي كل الحماية وجعل كاترينا المعظمة تاخذ تحت حمايتها المنشقين عن المذهب الروماني ارسل اخاه البرنس هنري ليطلب الى الامبراطورة وجوب تقسيم بولونيا مصرًّا على ذلك كل الاصرار واجتهد في ان يقنع جوزف الثاني ليجعل له نصيبًا من تلك القسمة فكاترينا التي كانت ترغب في ان تتخلص من حرب بولونيا وحرب الدولة العلية لم ترَ نفسها قادرة على رد مطامع بروسيا والنمسا ولا تقدر على محاربتهما . ولئن كانت تفضل ان تحفظ لنفسها بولونيا برمتها لكنها التزمت ان تحتمل ثقل مطالب فردريك الثاني الذى عرف في هذه المرة كيف ينفذ ما ربهُ فضادَّ النمسا بروسيا وروسيا بالنمسا في اوقات مناسبة وكان يظهر كسيد في بولونيا الكبرى فياخذ قمحها لرعاياهُ وسكانها لزيادة جيوشهِ . وعليهِ اصبح تقسيم بولونيا امرًا محتومًا . وتقررت شروطهُ بين روسيا وبروسيا في ١٧ شباط وقبلتهُ النمسا في شهر نيسان وارسل الى ملك بولونيا في ١٨ ايلول من ذات السنة . وهو ان تاخذ روسيا كل روسيا البيضاء اي (بولوتسك . فيتبسك . اورشا . موهيلف . مستيسلافل . كومل . مع مليون وستمائة الف نفس) والنمسا تاخذ . غاليشا الشرقية . وروسيا الحمراء . مع مليونين وخمسمائة الف نفس

وبروسيا تاخذ بروسيا الغربية . ما عدا تورن ودنتزيك مع تسعمائة الف نفس

وبقي على روسيا ان تنظر في امر الصلح مع الباب العالي الاَّ ان المجلس الذي عقد في فوكشاني لم يات بالنتيجة الصلحية وارفض في سنة ١٧٧٢ . ومن ثم عادت فشبت نار القتال بين الدولة العلية وروسيا وجرت فيها عدة وقائع سقطت بها الجيوش الروسية في كل الجهات ولاسيما عند حصار سيلستري الاَّ في جهة شوملا فانهم كانوا قد حاصروها وفيها الصدر الاعظم وانتصار واحد كان يمكن ان يفتح لهم طريق الاستانة وبسبب موت ساكن الجنان السلطان مصطفى واستيلاء السلطان عبد الحميد الذي كان من طبعو حب السلام وراحة الرعية وقع على شروط الصلح المعروفة بشروط كوجوك كابرناجي سنة ١٧٧٤ . وهي اولاً تحرير تتربوغ والقريم وكوباني . ثانياً . تسليم ازوف على دون وكنبيورن عند مخرج دنيستر وكل مراكز القريم الحصينة . ثالثاً . ان تفتح للمراكب الروسية التجارية مضايق البوسفور والدردنيل . رابعاً . ان يعامل التجار الروسيون كمعاملة تجار الفرنسيس . خامساً . ان يشمل العفو السلطاني الشعوب المسيحية التي اشتركت بالحرب مع روسيا . سادساً .

ان يسمح للسفراء الروسيين ان يتداخلوا في حقوق الرعايا بالاقاليم الدانوبية. سابعًا. ان تدفع غرامة حرب لروسيا مقدارها اربعة ملايين وخمسمائة الف روبل . وان يقر الباب العالي بلقب امبراطور للدولة الروسية . وان تترك للدولة العلية الفلاخ والبغدان . ومن هذا يظهر ان روسيا لم تكتسب اراضي مهمة ونقطة حربية في هذه الشروط لكنها كانت تعرف من نفسها انها على نوع ما حامية للرعايا المسيحيين وهي تهيء لنفسها اضافة القريم وكوبان وكل شط البحر الاسود الشمالي

واما فرنسا التي حبطت مساعيها في كل من بولونيا والاستانة فازت بالنجاح السياسي في اسوج حتى توصلت الى احباط مقاصد روسيا وبروسيا هناك حيث كانتا قد اعتمدتا على سلب جديد يعطي فينلاند لروسيا وبوميراني الاسوجية لبروسيا . فسافر الامير غسطاف الثالث سائحًا الى فرنسا في سنة ١٧٧١ وزار رجالها العظام واجتمع بوزرائها ودخل غرفها السياسية ولا سيما غرفة مدام جيوفرن وسمع باصغاء الى التهيجات الفرنسوية وقبل المواعيد بمساعدة تلك الدولة وان ينهض الى تجديد الحرب مع روسيا وزادهُ ميلاً ما راهُ من تقسيم بولونيا وحينئذٍ دعي من هناك الى اسوج ليخلف اباه عليها فجاءها وبثَّ مقاصده السياسية وجمع

الجيش الذي كان تحت لوائه وجيش الحرس وسمى اعضاء
مجلس اعيان وانهض شعب ستوكهلم وعرض على المجلس لائحة
اصلاح ذات ٥٧ بنداً للمحافظة على الحرية العامة ترجع للمالك
حق امتيازاته وتبطل العذاب · ورتب اصلاحات مفيدة
ادخلت اسوج في دور جديد بمجرى الجيل الثامن عشر دون
ان يلاقي ممانعة او مدافعة ونجاح هذه الاعمال التي وقعت بدون
سفك نقطة دم والتي ضاعفت قدرة اسوج الحقيقية ووضعتها
بمركز غير منتظر اغاظت فردريك الثاني وكاترينا المعظمة غيظاً
عظيماً غير ان مصالح بولونيا اعاقتها عن التداخل في مسألة
اسوج حينئذٍ

طاعون موسكو سنة ١٧٧١ — بوكانشوف الثائر سنة ١٧٧٢

كانت كاترينا الثانية تشغل نفسها بالحروب الخارجية
لتلهي رجال مملكتها عن الثورات الداخلية وتجعلهم بالرغم عن
اميالهم باضطرار اجباري الى اختيار اخف الويلين ومع كل
ذلك فان الثورات الداخلية كانت تتهيأ وكثيرون من الامراء
كانوا يظهرون غير راضين من الخسائر التي كانت تتكبدها
امبراطورتهم وتحملها على عواتق الخزينة معرضين عن النفع
العظيم الذي كان ينتج بسببها اذ كان التوحش لم يستاصل من

بينهم الى حدهِ الاخير . ففي سنة ١٧٧١ فشأ الوباءُ المعروف بالطاعون في مدينة موسكو وذلك بين شهري تموز واب واشتد اشتداداً عظيماً حتى كان يموت في كل يوم نحو الف نفس فهاج الشعب من ذلك ولم يروا سبيلاً للتخلص من هذا الداء المهلك وكان يجتمع جماهير من المصابين بهِ ويلقون بانفسهم تحت اقدام ايقونة زعموا انها كثيرة العجائب فيموتون وبعضهم فوق بعض . ولما كان المطران امبرواز قد امتاز عن غيره من الاساقفة بالتمدن المدني والاستنارة الدينية ورأى ان تمسك الشعب بهذا الاعتقاد يضر بهِ جداً وان ازدحام الناس فوق بعضهم هو الذي يميتهم حالاً قصد ان يرفع تلك الايقونة ليمنعهم من ان يرموا بانفسهم على الارض تحت اقدامها فكان من ذلك ان حدثت فتنة فيما بينهم واخذوا يصرخون باصوات مرعبة . ان المطران امبرواز كافر يريد ان ياخذ لنا حاميتنا وهو على اتفاق مع الاطباء ليميتنا جميعاً لانقدر ان نحتمل ظلم الملكية . هيا على الكرملين . هيا على الكرملين . لنسال امبرواز لماذا يمنعنا من حاميتنا والدة الاله . والحاصل ان المطران امبرواز ذبح وسرايتهُ نهبت . قبل ان تمكنت الحكومة من استعمال البنادق والمدافع لتفريق الازدحام الذي كان مهيئاً لخلاف فواحش وقتل من

اولئك الثائرين نحو مائة نفس وارسلت الامبراطورة غريغوريوس اورلوف لاخماد الفتنة فاخمدها وسكن الهيجان . واخيراً اخذ الوباء في ان يخف ثم انقطع ورجع الهدو

ففتنة موسكو هذه اظهرت ان التوحش كان لايزال تقريباً على حالهِ في روسيا ولاسيما في تلك المدينة التي تحسب من المدن الاولية فيها والذين هاجوا هم من اسافل الشعب اي من عبيد وخدمة وباعة الماكولات وفعلة المعامل وبسبب هذه الفتنة تمكن بوكاتشوف من ان يبدي غايتهُ ويقود جانباً من الشعب ليثور على الحكومة الحاضرة وكان الفلاحون الذين تلقى عليهم اثقال المملكة وتدار اشغال اصحاب الاملاك وفيهم تنفذ مظالم ارباب الخطط والمامورين يوملون على الدوام احداث تغييرات غير ممكنة لجهالتهم الرديئة وفضلاً عن ذلك انهم كانوا استعدوا للتمسك بحبال اي مدع يدعي الملك كذباً كان او صحيحاً وعليهِ فان بعض الاعيان في البلاد كانوا يتظاهرون باسم غيرهم من العائلة المالكة كذباً وادعى احدهم انهُ بطرس الثالث وآخر انهُ ايفان الى غير ذلك وهم يلعبون بتلك العقول الخشنة ويهيجون الشعب على حكم النساء . والراسكونيكسيون الذين اجبروا بالاحتقارات السالفة الى التوحش كانوا يفضلون السكنى بين

الاحراش اوبقرى فولغا وهم اعداء الحكومة الحالية وكذلك قوزاق يابك ودون وزو بوروغيو الدنيبر كانوا يرتجفون من ذكر الامبراطورة غيظاً ومثلهم طوائف الفولغا الوثنيون والاسلام والمسيحيون وجميعهم ينتظرون حجة تمكنهم من الثورة لارجاع حريتهم الوحشية ولارجاع الاراضي التي اختلستها منهم الطوائف الروسية

ولا ريب ان العقل السليم يستقبح وقوع مثل هكذا اعمال من امة كان رئيسها بطرس الاول وقد سار بها مسافة طويلة في طريق النجاح والتقدم ونقلها من الحالة البربرية الى حالة التمدن فكان الروح القديم المتردد في عقولهم وافئدتهم وسيلة لدوام القلق ولانفاذ مقاصد الخوارج . ولقد نظر في سنة ١٧٧٠ ان جماعة من كلموك البلاد وعددهم نحو ثلاثين الف نفس بين رجل وامرأة وولد مع ماشيتهم وعجلاتهم تركوا محل اقامتهم وهاجروا الى الاراضي الصينية بعد ان خربوا في طريقهم كل المحلات التي مروا بها والحاصل ان البلاد الروسية وصلت الى حكومة فوضى واضطربت اطرابًا داخليًا مولفًا من شرفاء مضطهدين واساقفة وكهنة محرومين وعساكر وعبيد خالعين الطاعة وقطاعين طرق وفرسان الفولغا . فكان يرى ان اكثر

روسيا وعلى الاخص القسم الشرقي منها حاصلاً على كل ادوات
المساعدة لايقاع الفتن والثورات كالتي حركهم اليها ديمتريوس
الدجال عندما ادعى الملك في بداية ملك هذه العائلة
او غيره من الذين عملوا كاعماله. واستانكورازين الباليسكي
تمكن من ان يقيم رئيس ثورة فوزاقي وهو راسكولتيكي كان
قد حبس في كازان وفرّ ونفي الى سيبيريا واسمهُ اميليان
بوكاتشوف. فهذا ادعى انهُ بطرس الثالث زوج كاترينا المالكة
وقد تخلص من جلاديهِ واختبأ الى ذاك الوقت فنشر العلم
الهولستيني واعلن ان مرادهُ الذهاب الى بطرسبرج ليقاص
زوجتهُ ويتوج ابنهُ وجاء في الاول بثلثمائة رجل لحصار قلعة
يابك. نعم ان هذا العدد كان قليلاً جداً للقيام بمثل هكذا
عمل خطير غير انهُ كان مطمأن البال بوكد ان كثيراً من
الاعيان والعساكر سيضم اليهِ وهكذا كان فان الجيش الذي
ارسل لمحاربتهِ اعلن العصيان عند وصولهِ اليهِ وانضمَّ الى
جماعتهِ فشنق ضباطهُ وقص شعر الانفار جاعلاً رؤُوسهم
كرؤُوس القوزاق وكان في القرى يشنق السادات والممتازين
ويقاصهم كمذنبين ضد الجلالة وعلى هذا الوجه استولى على عدة
قلاع صغيرة

وبينما كان اصدقاؤهُ العارفون بسرّ اصلهِ والمطلعون على امرهِ يعاملونهُ كقوزاقي بسيط فيما بينهم كانت الشعوب تبتدىءُ لان تقبلهُ على صوت الاجراس والرهبان تقدم لهُ الخبز والملح وقد اتخذ لهُ عسكرًا من الاسرى البولونيين وكانوا حبسوا في تلك الاقاليم فخلصهم ونظمهم بمدافعهم ومهماتهم. وفي مدة سنة ارجف كازان واورنبورغ وبدد شمل كل القواد المرسلة اليهِ ففرَّ من وجههِ اصحاب الاملاك ومحبو السلام وبالعكس كان يجتمع تحت لوائهِ كل المتوحشين واصحاب المآرب ومبغضي الامبراطورة وثار بسببهِ كثير من الفلاحين على الاسياد والشرفاء وكذلك التتار والتشوفاشيون قاموا على الحكومة وكانت حرب دنية تثير بكل صحن الفولغا حتى وفي موسكو كان العبيد يتكلمون عن الحرية والتخلص من الحالة الحاضرة وذلك عند مشاهدتهم اضطراب اوليائهم وخوفهم من عواقب هذه الثورة. وحينئذٍ رات الامبراطورة كاترينا الى اعمال رعاياها باعين الانتقام وحركت عزيمتها الى استئصال اسباب هذا الشر العظيم وابادة بوكاتشوف والذين اجتمعوا اليهِ فاعهدت الى اسكندر بيبيكوف بالحمل على الثائرين فسار الى كازان وعند حلولهِ فيها ارتبك وتكدر من فساد الاداب العمومية هناك فجمع اليهِ الاشراف وسلحهم وقد كتب

الى امرائهِ عن ذلك يقول (ان الضرر عظيم جداً او مرعب .
والاحكام رديئة بحالة فوضى فتجري على محور عاطل) وعرف ان
هذا الاضطراب والهيجان لم يكن ناتجاً عن غاية رجل واحد
وليس بوكاتشوف الاَّ مروحة يحركها القوزاق وليس هو
المهم في هذه الثورة بل عدم الرضا العام . ومع انهُ كان قليل
الركون الى جيوشهِ هجم مرتين على بوكاتشوف اوبالحري
بطرس الثالث الكذاب في تاتيشتشيفا وضربهُ في كارغولا وبدد
جيوشهُ واستولى على مدافعهِ الا ان بيبيكوف المذكور مات وهو
في وسط انتصاراتهِ فلم يقعد قوادهُ عن اضاعة هذا الانتصار بل
هاجموا المغلوب وهم ميشالسون وديكولونغ وغاليتسين فحاصروه
عند اسفل الفولغا فالتزم ان يجتاز النهر وارتمى على كازان ونهبها
واحرقها وسقط على كرملين ثم نزل ثانياً ودخل بجسارة ساراتسك
وسامارا وتساريتسين ومع ان اعداءهُ كانت تتاثره تمكن من ان
يشنق كل الذين هم من الحزب الملكي في تلك النواحي واقام
هناك مجالس جديدة وبمدة ما كان يهرب الى جهة الجنوب كان
كثيراً ما ينظرهُ الناس على طريق موسكو مظهرين لهُ الطاعة
متوهمين انهُ نفس بطرس الثالث زوج الامبراطورة المالكة .
وما برح على اعمالهِ هذه والقواد الروسيون يطاردونهُ حتى

عزم على ترك البلاد الروسية والفرار الى ايران وفيما هو على مثل هذه النية يسير ليخرج من الحدود حصره ميشالسون والبطل سوفاروف الذي كان لا يشعر بالتعب بين فولغا وبايك وهناك قبض عليه مشاركوهُ الذين يعرفون حالهُ واوثقوهُ وسلموهُ الى القواد الروسيين فاخذوهُ الى موسكو وجعلوا مشهد عذابهِ قضيب تاديب للهيئة الثائرة ومن ثم اخذت في ان تخمد الثورة وارتاب كثيرون بموت بطرس الثالث في ذاك الوقت

فكل ما تقدم جعل كاترينا على حذر دائم تتذكرهُ عند كل اعمالها فسنة ١٧٧٥ لاشت المشيخة الزابورغية. وكل ذي بطش من الذين كانوا قد طردوا في حكم بطرس الاول واعيدوا في زمن حنة ايفانوفنا وكانت تتالف روسيا الجنوبية المتخلصة من هجمات التتار بسرعة كلية ويقام منها مدن وقرى. وتلك السهول الوعرة القفرة التي كان يطوفها اجدادهم بحرية كطوائف البدو في براريهم تحولت الى حقول عامرة محروثة ذات تربة سوداء مخصبة وكان الزابورغيون غير راضين من هذه الحالة وطلبوا ان ترد اليهم اراضيهم. وبناء على امر الامبراطورة هدم بوتامكين مبدع روسيا الجديدة ستشا وهرب المتذمرون الى اراضي الدولة العلية واخرون دخلوا قوزاق البحر الاسود وفي سنة ١٧٩٢ عين

لهم كمحل اقامة جزيرة فاناغورس والشط الشرقي من بحر ازوف
وهكذا كانت آخرة كوزاكري

معاونو كاترين الثانية . الجمعية الكبيرة لوضع القوانين
والشرائع (سنة ١٧٦٦—١٧٦٨)

لما كانت كاترين ذات سياسة حسنة وفطنة ملكية تقدر
بها ان تحفظ نفسها من الفتن الداخلية رأت ان من اللازم
الواجب تقديم وتكريم اهل الوجاهة من الاهالي ولا سيما الفتيان
البسلاء والشديدي الاهابة فاحاطت ذاتها بهم وقربتهم اليها
كثيرًا واتخذت منهم ندماء ولا سيما عائلة اورلوف . فكان
غريغوريوس الملقب بالنديم اعظم سيد لتدبير الامور وقد (جاءت
منهُ بذكر عنهُ الكسيس وعرف بكونت روبرنسكي) . والكسيس
اورلوف رئيس الاساطيل وهو الذي حكي عنهُ في قصة البرنسس
تاركانوس تلك الفاجعة المشهورة . وثيودور اورلوف مدعٍ
عمومي مجلس الاعيان . وفلدمير اورلوف وهو بسن الحادية
والعشرين عين رئيس مجلس المعارف واخذ صيت هذه العائلة
بالانتشار حتى اضاع صيت بوتامكين منشي روسيا الجديدة
ومحصن القريم وبرنس دي توريد ناظر البلاط الروسي وهو
من الندماء ايضًا وكان لهُ نفوذ حقيقي بالاشغال . وبلاتون

زوبوف بالاشغال الخارجية مع نيكيتيا بانين وبزبورودكو واوسترمان وماركوف وفورونزوف . وروبنين وسيافرس في بولونيا . وبيدبرع في ستوكلهم وسيمون فورنزوف في لوندرا وديمتري غاليتسين في باريس كل هولاء امتازوا بالشهرة السياسية وقلدت اسكندر غاليتسين قيادة الجيوش مع دولغروكي وروما نتشوف وسوفوروف المشهور . وكريغ وسبيردوف وتشيتشاكوف في الاساطيل واعهدت بنظارة المعارف وتنظيم الخيرات الى ايفان بتسكي

فجمعت كاترين الثانية في سنة ١٧٦٦ و١٧٦٨ جمعية عمومية لوضع قوانين جديدة وتنقيح القوانين القديمة وتلك الجمعية كانت مولفة من نواب الامة الروسية ومن الشرفاء الاذكياء وفضلاً عن نواب مجلس الاعيان وروساء المدارس والقونسلاتات كانت احضرت نائباً من كل قضاء ومن الفلاحين نائباً عن كل ناحية ومن المهاجرين الاحرار نائباً عن كل اقليم ونائباً عن كل جيش قوزاقي . فاجتمع في موسكو ستمائة واثنان وخمسون نائباً من شرفاء وفلاحين وتاتار وكلموك ولابونيين وساموئديين الخ وكل واحد فوض بان يكتب بدفتر الجمعية ما يخطر له ويستنسبه ويسلم الدفتر الى ست اشخاص ممتازين برقبة كلٍ منهم ذخيرة

ذهبية (مادليون) مرسوم عليها صورة كاترينا ومكتوب فيها
(لسعادة الكل وكل واحد في ١٤ شباط سنة ١٧٦٦) وتناولوا
امراً من الامبراطورة يمنع عنهم مؤبداً اكل العذابات الجسدية
قالت فيه (ان الشعب لم يكن للملك لكن الملك للشعب) والمساواة
تقوم في البلاد بان يطيع الاهالي الشرعَ والحرية وهما من
خصائص كل فرد روسي وان من الافضل ان يعفى عن عشرة
مذنبين ولا يهلك بريء واحد . انتهى)

فانقسمت هذه الجمعية الى عدة جمعيات واجتمعت اكثر
من مائتي مرةٍ وكان التخابر فيها جارٍ بكل حرية عن المسائل
الاكثر اهمية . فكان الشرفاء يطلبون امتيازات اقليمية كانت
لهم قديماً والتجار تقرر تدابير بلدية وتساهلات تجارية مع الاقتصاد
والاعيان تسال حصر حقوق السادات وتردد بالترادف هذه
الالفاظ (حرية الفلاحين) فهذه الاختلافات والمضادات
اعاقت اظهار النتيجة من ذاك الاجتماع وحينئذٍ بسبب وقوع
الحرب بين روسيا والباب العالي التزمت الامبراطورة ان
توجل عمل هذه الجمعية واظهرت ذاتها كراضية عنهم وقالت
اني وضعت الان اساساً عرفت منهُ كيفية التوصل الى الغاية
ووقفت على افكار امتي الحرة ولولا حرب الدولة العلية لتوصلت

الى المطلوب

وبمجرد هذه الحوادث كان عرض النائب كوروبين منع حق التملك على العبيد وان لا يترك للسادات الاحق المراقبة فقط . فعارضهُ بروتاسوف وقال اذا كان هذا طلب الامبراطورة فمن الواجب ان يجرى بالتدريج ولا يمكن اقامتهُ دفعة واحدة بحيث يوقع خللاً عظيماً بشان الفلاحة والزراعة ويضرُّ باصحاب الاملاك والتجار ونظمت لائحة موافقة لافكار الامبراطورة (وهي لائحة اكس لاشابل) فقصدت طبعها ونشرها غير ان الظروف قضت عليها ان تمتنع عن طبعها حيث تاكدت بوضوح انهُ يصعب على الشرف الروسي ان يتنازل عن حقوقهِ ويترك السلطة والنفوذ اللذين لهُ على الفلاحين والعبيد فاكتفت بالسكوت عن اكثر القضايا وبقي السادات على حالهم . ويرى من قصة البرنس داشكوف مع ديدير ودعوى داريا سالتيكوف الذي اثبت انها اهلكت اربعين من خدمها الى اي درجة وصلت سلطة الشرفاء واهانة العبيد وحكم عليها من بعد اي سنة ١٧٦٨ بالحبس الابدي وتذكارها المنحوس بقي بعدها امثولة تتضمنها قصص الشعب . والحاصل ان الاجتماع جاء بزيادة تحكم الاسياد على عبيدهم وكثير من الفلاحين

تحولوا الى عبيد ووجدوا في املاك ندماء كاترينا وفي سنة ١٧٦٧ منع اوكاز الفلاحين عن ان يتشكوا على مواليهم وفوض الموالي ان يرسلوا عبيدهم الى سيبيريا وان ينظموهم بظلم فاحش كعساكر حرب وصغرت كاترين الى انتشار العبودية في روسيا الصغرى لجهل اهلها شريعة الانسان الطبيعية

تدبير وعدل ومهاجرة

كان مجلس شورى الامبراطورة يحمل قسماً من اشغال مجلس الاعيان السياسية ولكن مجلس الاعيان المقسوم الى ستة اقسام كان يضع تحت مباحثاته كل التدابير العامة وكاترينا اجهدت نفسها الى منع ما كان يقع من مطامع المجالس واعضائها حيث كانت محطاً للاستبداد والظلم والسلب . وقد كتب احد جماعة اوكاز سنة ١٧٦٢ (اني ارى من المفروض عليَّ ان اعلن للشعب بقلب يتمزق بشدة ان عدم الاستقامة سادت بمقدار عظيم حتى اننا بالكاد نذكر مجلساً او وكالة لم تنتن . هل ترجو وظيفة ينبغي ان تدفع دراهم . هل يلزمك ان تحامي عن ذاتك من تهمة باطلة لا يكن لك الا بالدينار . اذا اراد احد ان يتشكى من ظلم احد فلا يومل نجاحاً الا بواسطة الهدايا . وكثيرون من القضاة احالوا ذاك السوق المقدس الى سوق مراجحة

ونسوا ان يحكموا عدلاً باسم الحاكم على كل شيء سبحانهُ وتعالى انتهى). ولهذا كان رجاء كاترينا يمتد مؤملة بقلب هذه الاحوال فاتخذت واسطة لذلك تنقيص كثرة الحكومات. وفي سنة ١٧٧٥ غيرت كل حدود المملكة فعوضاً عن خمسين اقليماً اقامت نحو مائة وخمسين قطيعة كل منها تشتمل من ثلثمائة الى اربعمائة الف نفس وقسمتها الى اقضية يجمع كل قضاء من ثلاثين الى اربعين الفاً واقامت على كل قطيعة حاكماً ونائب حاكم ومفتشين عموميين. وقد اقيم على كل من ليفوني واستوني وكورلاند حاكماً ومفتشاً عاماً. وفرض على كل حاكم ان يحضر في مجالس حكومتهِ لاجل الحكم وملاحظة البوليس ودائرة دخل الدولة من جزاء ورسوم ومعادن وقيام مدارس ومنازل للضعفاء والغرباء

فهذا الترتيب كان يكرس المراتب ويميزها وفي اول الامر كان يوجد مجالس قضاة للشرفاء وحكام نواحٍ للقرى ومحاكم ابتدائية للمهاجرين وفلاحي المملكة. ولم يكن يوجد ولا قانون شرعي في روسيا يسند اليهِ ويسمح قطعياً بمنع اعمال السادات المسيئة. فالتزموا ان ينظروا في معنى بندين من القانون العسكري لكي يحموا على الاقل حياة العبيد الزراعية واقيم للنظر في تلك القضايا في كل مركز حكومة مجلس عالي وقاضٍ اول وحكومة

عدلية وكل القضايا المذكورة كانت تصل بالاستئناف او بالتمييز
الى مجلس الاعيان . وقد حصل مع كل هذا للشرفاء نوع من
الترتيب والامتياز المالي بحيث يمكنهم ان يحصلوا على كل شيء
بالشراء او بالاستئجار مجردين عن الامر فقط . واجتهدت
كاترينا لان تجبر الشرفاء ان ينتظموا في سلك العسكرية في
بادىء بدء كالانفار متمسكة بأميال بطرس الاول حيث لا يجوز
انتخابهم كضباط ورؤساء مئات والوف من اول وهلة وهي
تمنع عنهم بعض امتيازات ورتب وعينت مجالس بلدية بانتخاب
عمومي وابطلت مذهب الوصية ورتبت نظارات التجارة
والصناعة وابطلت ثلاث مدارس من مدارس المعادن
والمعامل والتجارة

ولكي تؤهل الاراضي المقفرة المخصبة كثيرًا وهي اراضي
فولغا وايكران جلبت المهاجرين الاجانب وضمنت لهم راس
مال للابنية لا تسأ لهم بفائظه قبل عشر سنوات ووهبتهم العفو
عن كل خرج ورسم قانوني وجزية الى مدة ثلاثين سنة فكثر
المهاجرون وعلى الاخص الالمان واهالي بلاتينا وفتحت ملجأ
لكل المنفيين الدينيين والسياسيين ففي اقليم ساراتوف اسكنت
الى حد الاثنى عشر الف عائلة وقد تناسلوا وزادوا فيما بعد بنوع

غريب وحفظوا بدون اختلاط عوائدهم ولغتهم الجرمانية.
وفي سنة ١٧٧٤ اتاها ستة وعشرون ألف نفس. واقامت نحو
مائتي بلد جديدة دعي اكثرها باسمها كايكاترينبورغ
وايكاترينسولف وغيرها ولم تنجح كلها بل بعضها

والاصلاح الذي كان قصدهُ بطرس الاول وفكر بهِ
بطرس الثالث من جعل اموال الكنيسة للنفع العام تم بعمل
كاترينا الثانية وكان نحو مليون نفس من الفلاحين بعهدة
الاديرة. فديرسن تيريل على البحيرة البيضاء كان في ملكهِ نحو
خمسة وثلاثين الف فلاح وديرسن سرج ترواِيستا مائة وعشرين
الفاً وكان رهبان هذا الدير يمكنهم ان يتظاهروا كالاحبار الملكيين
وكاترينا التي كانت تضاد باراء حارة اجراءات الثورة الفرنسوية
في ذاك الوقت تممت بكل هدو هذا العمل والغت جمعية من
الاكليروس والمتوظفين وجعلت اموال الكنيسة تحت ادارة لجنة
اقتصادية تقبض معيناً عن كل فلاح ذكر روبل ونصف روبل
في السنة تصرف في تحسين املاك الاديرة وما زاد يصرف لاقامة
مدارس لاهوتية ومنازل للعاجزين ومستشفيات للضعفاء

ولما رات كاترينا نجاحها كتبت الى فولتير عن ذلك
«افتكر انك تسرُّ مع كل مورخ وذي ضمير حرٍّ من هذه الجمعية

حيث الارثوذكسي يجلس بين الاسرائيلي والمسلم والثلاثة يصغون الى الوثني والاربعة يتفاوضون لكي يجعلوا آراءهم مقبولة لدى الجميع» ونشرت حرية الاديان انتشاراً تاماً ووقع في بولونيا انعكاس طبيعي بانضمام نحو مليون وخمسمائة الف الى المذهب الارثوذكسي مع ان الامبراطورة كانت بعيدة جداً عن اضطهاد الكاثوليك وسمحت للجزويت بالقيام والتجول في روسيا البيضاء رغماً على كره البابا كليمان لهذه الطغمة وفصلها وسمحت ايضاً للتتار عند الفولغا وللمسلمين ان يعودوا الى جوامعهم ويبتنوا مهما شاءوا من المساجد وان ترفع عنهم المظالم التي حملتهم اياها اليصابات واعطت الامان للراسكولنكسيين وعفتهم من الجزية المضاعفة التي كان وضعها عليهم بطرس الاكبر وابطلت عدة ضرائب كانت تثقل على الشعب

فرتع الشعب الروسي الذي كان عدده اوانئذٍ ٤٠ مليوناً من الانفس بحرية لم يكن وصل اليها قبل ذلك الحين ومع كل ذلك فان هذا العدد كان غير كافٍ ليقوم بحراثة الاراضي المتسعة فكان المناخ غير جيدٍ وكانت قلة الاطباء تكثر من موت الاولاد والمصابين بالامراض فاعتنت كاترينا بقدر الامكان بتحسين فن الطب وشجعت الطلبة الى التسابق في

درسه واحضرت اطباء من الاجانب واقامت مدارس خصوصية لعلم النبات وفن الصيدلية وذلك في موسكو وساعدت في انشاء معامل للآلات الجراحية وادخلت الى روسيا التطعيم بالجدري وتغلبت على ترفض الشعب بجعلها ذاتها امثولة لهم فتطعمت هي وابنها وغريغوريوس اورلوف من الطبيب ديمدال الانكليزي مع ان في ذاك الوقت كان ملك اسبانيا يترك اولاده يموتون فريسة لداء الجدري ولويس الخامس عشر مات بها . وقد كتبت الى فولتير تقول له « مع كثرة الترفض في بلادي قد طعم بمدة شهر اكثر من الذين طعموا في لوندرا بمدة سنة » . وقد عرف اهالي سيبيريا عظم تلك المنافع الجديدة وقبلوها لكنما المسلمون والراسكولنكسيون وقسم من الشعب القديم امتنعوا عن التلقيح بكل حرارة

ومع ذلك فان كاترينا كانت تشكي الى بتسكي بالانتصارات على الترفضات القديمة وبوجوب اعطاء الشعب انموذجاً للتربية على الاداب والعوائد الجديدة فتكتسب الامة حياةً دائمة ومن مثل هذه الاجتهادات يؤمل ان يقطف اثمار تلك النتائج اولاد واحفاد اولئك المترفضين . فبتسكي كان يرى من الضرورة ان يكون معلمو الصبوة روسيين لان الغرباء

لا يقدرون على تفهيم التلاميذ من الروسيين كل ما يتعلق بالديانة والعوائد والاخلاق غير ان روسيا لم تكن بعدُ قد وصلت الى الزمن الذي بهِ تقدر ان تستغني عن الاساتذة الاجانب. وترتيب التربية الذي قدمهُ بتسكي لاجل الاولاد لم يتحقق انهُ يفيد افادة تامة بل كان كافيًا لاقامة مدارس ثانيوية في المدن الكبيرة. واهتمت كاترينا بتربية البنات في مدرسة سمولنا فجمعت اربعمائة وثمانين بنتًا صبية تحت ادارة مدام لافون الفرنسوية ومما كتبتهُ الى فولتير بهذا المعنى هو (اننا لا نريد ان تكون بناتنا عاقلات بالتظاهر فقط ولا طائشات بالكبر والعظمة بل عاملات على الادب والرزانة) وكنَّ يدرسنَ على الاخص الفرنسوية ولغات اخرى وفنون اشغال اليد. وانشأت كاترينا عملاً حمدت لاجلهِ كثيرًا وهو محل التربية في موسكو الذي دعي «فوسبيتاتلني دوم» متقن للغاية وقد دهش منهُ فيما بعد نابليون الاول. وقبل فيهِ في مدة حكم كاترينا نحو اربعين الف ولد وبنات كثيرات من الايتام وكل رق كان يتزوج باحدى تلك اليتيمات يعتق ويحصل على المكافاة

وكان في زمن هذه الامبراطورة نفوذ عظيم للمعارف الفرنسوية

التي كانت تمتد في كل النواحي وكانت تقربهم منها جداً دون
ان تسلم اليهم امر التداخل باقل راي سياسي . وتسهل بسخاء تام
كل ما تراهُ حسناً وموافقاً من اعمالهم وادابهم حتى قيل ان غشاء
دقيقاً من العلم الفرنسوي كافٍ لان يصون التمدن الروسي
من السقطات البربرية ومما يستحق الذكر ان حنة بترو فنا ادخلت
الالمان الى بلادها وسلمت اليهم بزمام حريتها فخربوا وسادوا
وافسدوا ولم يراعوا حرمة الانسانية ولم تكن هي من ذوي الفطانة
لتمنعهم من اجراء ذاك الفساد الذي يضرُّ بتاريخ حياتها و بامتها
واما كاترينا هذه فانها جاءت بالفرنسويين من اهل المعارف ولم
تقبل من تمدنهم الا ما كان ادبيًا وموافقًا لصالح بلادها وشعبها
حتى ان معاصريها واكثر اعيانها شغفوا بالفلاسفة الفرنسويين
وخصوصاً بمونتسكيه وفولتير ومع ان الثورة الفرنسوية كانت تهم
كثيرًا العالم اجمع ولا سيما الافرنسيس تمكنوا بافكارهم من ان
يسرعوا بروسيا في طريق النجاح . وكانت كاترينا اكثر الجميع
اميالاً الى البحث والمكاتبات مع الكتبة الفرنسويين ومراسلاتها
اليهم تنقص عن سحرها في اوربا باهل الجيل الثامن عشر وعن
مجدها امام الاجيال التابعة وكانت رابطة بخدمتها كريمّ الذي
كان صديقًا لروسو والذي كان يرسل لها وهو في باريس رسائل

متتابعية بخصوص الاعمال في فرنسا وكانت تتحاب مع البرنس دي ليني والكونت دى سيكير سفير فرنسا وكلا الاثنين يمتاز بعقلهِ ومعارفهِ وهي تظهر لهما كل موانسة وملاطفة وقبلتهما في مركبتها مدة سفر طويل بالجنوب وكانت تكاتب مدام جيوفرن مظهرة لها صداقتها (وهي صاحبة غرفة عمومية مفتوحة في باريس لاجتماع اصحاب القوى العقلية اشتهرت جداً). وشكرت فضل مارمونتل على ارسالهِ لها نسخة عن كتابهِ (بليزر) ولما كان هذا الكتاب يستحق الترجمة لكل اللغات طلبت الى بعض اصدقائها ترجمتهُ الى الروسية وترجمت هي نفسها الفصل التاسع منهُ. واشترت مكتبة ديدير و واباحتهُ حق الانتفاع بها والتمتع بمطالعتها واشتركت بالانسيكلوبيذيا الفرنسوية وعجبت من الافكار الفلسفية والاجتهادات التي صرفت الى تاليفها وكانت احضرت النقاش فالكوني صديق ديديرو ليشتغل بتمثال بطرس الكبير راكباً على جواده. وهي على الدوام تراسل فولتير مراسلة امينة من سنة ١٧٦٣ الى حين موتهِ حيث كان لها اعظم المام بتقييد انتصاراتها ونشر اصلاحاتها وقوانينها واجتهاداتها بقيام بلاد للمهاجرين. وهي تستفيد من اجوبة هذا الرجل العظيم وتنشر حمايتها على كل اصدقائها وملاذيها وكانت تؤمل عند

ارسال الكسيس اورلوف الى الارخبيل باحياء اليونان من الموت . ولا تنقطع على الدوام عن مشترى صور المشاهير وكتب الفنون اليونانية وتخص عاصمة بطرس الاكبر بمعظمات الفنون والبدع المجهولة قبلاً

ولم تكن تكرم المعارف هذا الاكرام وتجهد نفسها في ان تجعل الفنون راسخة القدم في بلادها الا لكونها تعد من العلماء الروسيين الافاضل ولها عدة تآليف مشهورة استفادت منها البلاد افادة عظيمة فكتبت لتعليم حفيديها اسكندر وقسطنطين كتاب الهجاء المدعو بكتاب الجدة وقصص من التاريخ الروسي طبعت في المانيا ومقدمات قوانينها ومراسلاتها بالروسية والفرنسوية والالمانية لوزرائها وعمالها ومكاتبوها في فرنسا وجرمانيا تثبت عملها العلمي . وفي قصتها الموسيقية عظمت ارسالية الروسيين الاولى على الاستانة وفي روايتها المدعوة غوره بوكاتير (شغاليه التعاسة) قصدت بها الهزء بغسطاف الثالث وفي روايتها المدعوة (يوم ولادة فورتشالكينا) وعشرة روايات خلافها كانت تشخص العوائد الحالية في روسيا بنسق يحمل المظالع على كرهها وهجوها . ونشرت ضد الكاهن الفرنسوي «شاب دوتيروس» وضد كتابهِ المدعو السفر في سيبيريا رسالة

ثم دعتها «التنكيت» والحاصل انها تركت بالفرنسوية والروسية قصصاً كثيرة وروايات منذ يوم وصولها الى روسيا الى حين كانت الامبراطورة المعظمة

وفي سنة ١٧٨٣ الفت على مشورة البرنسس داشكوف لجنة العلماء على نسق مجلس علماء فرنسا وفوض اليها برئاستها فعينت قواعد الهجاء والغراماطيق وعروض اللغة الروسية وقدمت درس التاريخ الروسي . واخذت اولاً في تاليف قاموس ظهر من سنة ١٧٨٩ الى سنة ١٧٩٩ حاوياً ٤٣٢٥٧ كلمة في ستة مجلدات (وقد صحح هذا القاموس وطبع ثانية بين سنتي ١٨٤٠ و١٨٥٠) وهكذا كان اشتهار لجنة العلماء الروسية حتى ان علماء البيان واشرف سيدات البلاد كالبرنسس داشكوف والشعراء درجافين وفون فيزين وكنياجنين والكونت ايفان شوفالوف رغبوا بالاشتراك في تاليف هذا القاموس وكاترينا وحدها وضعت الملاحظات النهائية للمجلد الاول منهُ (وفي سنة ١٨٣٥ ادخل الوزير اوفاروف لجنة العلماء هذه الى حضن مجلس المعارف تحت اسم المجلس الثاني

وكانت كاترينا الثانية تنشر حمايتها على كل المعارف الروسية وتبدي باكرامها لكل رجل الف او اشتغل بجد في

ترويج العلوم في البلاد ولهذا كان يتسابق العلماء الى التاليف والترجمة وطبع الكتب النافعة المفيدة · فنوفيكوف النشيط اجتهد بان ادخل تعليم فن الحراثة الجديدة بين تلك الامم التي هي في الدرجة الثانية وكان يعضد اصلاح جريدة موسكو ويهتم في تكثير مشتركيها وبحسن المطبوعات الحجرية وابتدع مكتبات جديدة ونشر مجموعات للمطالعة في المخازن والبيوت والمعامل ليقرأها الشبان وغيرهم من ادنياء الناس وخاصتها فيعم النفع والف عدة جمعيات منها جمعية محبة الخير وجمعية اصدقاء المعارف · والشيخ موليز نشر التاريخ الوطني لروسيا مولفة تاتيشوف وبالامس من برلين نشر اخبار سياحاته الشهيرة في القرم وسيبيريا وعلى حدود الصين وكان يصلهُ على الدوام المساعدات اللازمة من كرم الامبراطورة وانعمت عليه باراض في توريد · وكوليكوف الذي عنت عنهُ الامبراطورة عند افتتاح برنز نذر انهُ يقيم عند اسفل تمثال بطرس الاول بناية تاريخية لمجد هذا البطل الروسي ونشر باثني عشر مجلداً تاريخ حياة واعمال بطرس الاكبر · والبرنس شتساريا توف كتب تاريخ روسيا منذ اقدم الايام التي يمكن الوقوف عليها والف كرابوفنسكي الوفي كاتم الاسرار وبورشين احد معلمي الدوق

بولص ولي العهد والسادات العظماء سيمان واسكندر
فورونزوف واختهم كاترين داشكوف والجندي القديم بولوتوف
رسالات ثمينة على احكام اليصابات وكاترينا

سني كاترين الثانية الاخيرة برونكول في تشين
سنة ١٧٧٩ اجتماع القرم سنة ١٧٨٤

الزمن الاخير من زمن كاترينا الثانية هو غير الزمن الاول
من جهة سياستها ومعاهدتها حيث تركت بهِ المعاهده مع
الانكليز والبروسيانيين وتقربت بالظاهر من النمسا وبالباطن
من فرنسا والتفتت كثيرًا لسفراء الدولة الفرنسوية وهم الماركيز
دي جوينيه ويوري دي كوربرون والماركيز فيراك وعلى
الاخص الكونت دي سيكير الذي تعين سفيرًا في روسيا من
سنة ١٧٨٥ الى سنة ١٧٨٩
وحيث كان في سنة ١٧٧٧ قد توفي منتخب بافاريا رفع الشقاق
بين دولتي بروسيا والنمسا بسبب خلافتهِ ولهذا السبب مع الحرب
التي ابتدأت في بوهيميا اتفقت روسيا وفرنسا على عقد اجتماع
دولي لتقرير الصلح والوفاق بين المختلفين ففي سنة ١٧٧٩ اجتمع
بروتوكول دولي في تشين فكان معتمد فرنسا الموسيو
بروتيل ومعتمد بروسيا البرنس روبنين وامضي على عهدة الصلح

في ١٠ ايار وانتخب لبافاريا دوالي وكسبت النمسا من ذلك بعض اقضية على الدانوب وعلى اين وعلى السالزا

وحيث كانت الامبراطورة متاثرة ومتكدرة من التعديات البحرية والمظالم التي تجريها الحكومة الانكليزية في البحار وذلك في مدة حرب امريكا اتفقت في سنة ١٧٨٠ مع الاسوج والدانمرك وبروسيا والنمسا والبورتغال على اعتبار القانون البحري الفرنسوي الذي سنّ سنة ١٧٧٨ . وهو اولاً . ان مراكب الدول المتحائدة يمكنها ان تسافر بكل حرية على حدود الامم المتحاربة ثانيًا . ان الاشياء التي تخص الدول المتحاربة تكون حرّة ما عدا المواد المهربة اذا كانت على مراكب متحايدة . ثالثًا . القصد من المهربة الاسلحة والادوات الحربية فقط . رابعًا . ان المرافئ لا تعتبر في حالة الحصر الا عندما يكون الحصار واقعًا بالفعل اي عندما تكون المراكب التي تضربها قريبة منها بحيث لا يمكنها تجنب الضرب بدون خطر ظاهر . خامسًا . ان هذه الامور تكون انموذجًا وقاعدة في الدعاوى والاحكام المتعلقة بقانون الافتتاحات

فهذا القانون البحري كان مخالفًا جدًّا لغايات انكلترا ولما تريد ان تجريهُ امارة البحر الانكليزية وهي ترغب في ان يكون

الحصار على المرافيء اسمياً فقط اي حالما يشهران المرفأ الفلاني محصوراً يعتبر كذلك وان يعتبر من المواد المهربة جميع الحبوب كالقمح والشعير وكلما يمكن استعمالهُ في الجيش المحارب وان لم يكن لهُ . ففرنسا التي كانت سنت هذا القانون اسرعت في هذه المرة الى الاتحاد مع الدول المذكورة ضد بريطانيا العظمى وانضم اليها اسبانيا وسيشيل

وكانت كاترينا ترغب في القاء الدسائس في القرم ولم تكتفِ بان جعلتها متحايدة بمعاهدة سنة ١٧٧٤ بل قصدت ضمها الى بلادها والاستيلاء عليها . فالامراء المدعون (مرزا) اذ تسلموا القيادة بذاتهم قسموا الى قسمين قسم كان يميل الى روسيا وقسم الى الدولة العلية . ودوراً بدورٍ كانوا يعزلون وينصبون . ففي سنة ١٧٧٥ قلب الخان صاحب شيرامي الخاضع لحكومة روسيو وقام مقامهُ دولت شيرامي . فكدر ذلك كاترينا فعزلت هذا الاخير واقامت مقامهُ شاهين شيرامي وهذا اراد ان يدخل الى بلادهِ الاصلاحات والعوائد الاوربية فحدث من ذلك ثورة كبيرة واسعة النطاق دعت روسيا ان تدخل لحكم واعلنت بضم هذه الشبه الجزيرة الى مملكتها وعليهِ كانت تممت بافتتاح القرم عمل الفاتح كازان واستراكان . وكذلك سيبيريا

كانت محت الاثر الاخير من النير المانغولي . والدولتان العسكريتان اللتان كانتا على الدوام تخاصمان مقاطعات الجنوب وهما تتار الكانات والزابورغونة فنيوا تقريباً وكل حكومة استبدادية وغير نظامية ابيدت او كادت تبادامام حكومة كاترينا ومستعمراتها ولما رات الدولة العلية طمع كاترينا واستيلائها على القرم اغتاظت منهـــا وتهددتها بقطع المخابرات وانتشاب الحرب فتداخلت فرنسا في حسم هذا الامر وصرف السفير الفرنسوي لدى الباب العالي جهدهُ في ملاطفة خاطر الحكومة العثمانية فاكراماً لخاطر هذا السفير المحبوب في الاستانة قبل السلطان الاعظم بانضمام القرم والكوبان الى روسيا وذلك سنة ١٧٨٤

وفي سنة ١٧٨٤ زار الدوق الاعظم ولي عهد روسيا وهو بولس الاول مع زوجتهِ تحت اسم كونت الشمال وكونتتهُ البلاد الغربية ولوقي باحتفال عظيم في فرنسا لم يسبق لهُ نظير. واكراماً لخاطر بوتامكين وحباً بهِ عقد السفير الفرنسوي سيكير بين حكومتهِ والحكومة الروسية معاهدة صداقية وتجارية سنة ١٧٨٧ وهذا الامر لم يفز بهِ غيرهُ من الذين سبقوهُ . وفي سنة ١٧٨٨ بعد مداخلة بروسيا وانكلترا باشغال هولاندا طلبت الامبراطورة فرنسا والنمسا واسبانيا لعقد تعاهد بينهم ضد بروسيا وانكلترا

لكنها فرنسا رفضت هذا الطلب وامتنعت من عقد هكذا معاهدة

حرب الدولة العلية الثاني من سنة ١٧٨٧ — ١٧٩٢

وحرب اسوج من سنة ١٧٨٩ — ١٧٩٠

ولما كانت الامبراطورة كاترينا من اشد الملوك طمعاً وميلاً الى الافتتاحات كانت تعلل نفسها كثيراً بتقسيم المملكة العثمانية وترغب ان تجعل لذلك اتحاداً اوربياً لعلمها ان هذا لا تقدر عليهِ وحدها فلم تنجح بهِ ولم يوافقها عليهِ الاَّ حكومة النمسا وقد قررتا هذا بينهما و وافقت عليهِ فرنسا سرًّا . وكانت من غاية روسيا ان يكون من نصيبها اوتشاكوف والارض الكائنة بين نهري بوغ والدنيبر وبعض جزائر الارخبيل ومدن مهمة في الجغرافية الروسية وان تقام منها مملكة تدعى (مملكة اليونان) وتولف من مولدافيا وفالاشيا وبسارابيا والاستانة مملكة باسم (داقي) ويكون حاكماً عليها قسطنطين بولوفتش حفيد كاترينا ويكون من نصيب النمسا الاقاليم المجاورة لها واشترط الملك جوزف الثاني النمسوي ان يكون لهُ عدا عن الاقاليم السربية والبشناق وهرزيكوفين الاملاك الفانيسيانية في دالماتيا وفنبز وكانديا وقبرص . وبعد ان يتمكنوا من النجاح المطلوب مع الدولة العلية يعطى القسم الباقي لكل من فرنسا وانكلترا واسبانيا

فهذا كان اتفاق القسمة المستحيل الامكان المعروف (بالموضوع اليوناني) وكان قد كتب عنهُ فولتير قبل ذلك بنحو ثلاث سنوات

وبسبب هذا الطمع والافتراء كانت تسعى روسيا في القاء الشقاق والعدوان بينها وبين الباب العالي وهي تتهيأ وتستعد للحرب · وقد دعت كاترينا اسم حفيدها الثاني ابن بولس الاول قسطنطين ووضع لهُ اساتذة ومهذبين من اليونان · وجعلت كرسوفا معمل سلاح مرعب وكانت سفستابول تبنى وتشيد وكان الاسطول الروسي يجول بالبحر الاسود ويتقرب من البوسفور وجواسيس كاترينا تنتقل من مكان الى مكان في الاقاليم الروملية والسلافية واليونانية والمصرية تدس سم الفساد والعصيان · وقد اخذت تحت حمايتها هيرا كليس قيصر الكرج · فعملها هذا مع السفر الذي سافرتهُ الامبراطورة بالفوز الادبي سنة ١٧٨٧ الى حكومات الجنوب والاقاليم المفتتحة جديدًا والمقابلات التي وقعت بينها وبين ملك بولونيا وجوزف الثاني والتظاهرات العسكرية التي قام بها بوتامكين امير القرم اغاظ الباب العال جدًا ونظر الى فرنسا فراها متظاهرة بالحيادة واما بروسيا وانكلترا فكيدًا لروسيا وحبًا باضعاف قوتها وعدا

الباب العالي بالمساعدة وكذلك حكومة اسوج اثبتت انها ستحارب روسيا اذا شاء الباب العالي محاربتها

ففي صيف سنة ١٧٨٧ تناول بولفاكوف المرسل الروسي اعلانًا من الباب العالي يطلب بهِ تسليم مافروكورداتو سيد فالاشيا وارجاع قناصل الروسية من ياسي وبخارست والاسكندرية وان تترك حكومتهُ حماية هركليس ملك الكرج حيث هو تحت حماية الدولية وان تلتزم روسيا بان تقبل ان يكون الحق للعثمانيين بالدخول الى المراكب الروسيــــة والتفتيش فيها. فرفض بولفاكوف هذا الطلب وعليهِ قبض ووضع في السبعة ابراج واعلن الباب العالي الحرب على روسيا

ولم تكن كاترينا قد تممت استعداداتها الى النهاية فنظرت نفسها كانها قد اخذت بغتة لكنها ثبتت على شجاعتها المعتادة ولامت نديمها حيث فكر باخلاء القرم وقالت ان التخلي عن شبه الجزيرة مضرٌّ جدًا وكتبت الى بوتامكين تبين لهُ ان التخلي يكون سببًا عظيمًا لخراب سفستابول الموقع المهم لروسيا بعد ان افرغت خزائنها في تشييدها وبنائها حتى صارت قريبة من النجاح ومن الواجب ان لا ينتظر حمل العثمانيين بل يحمل على بندر وختمت قولها. ارجوك ايها البطل الروسي ان لا

نتأخر بل تشجع فبالشجاعة يقدر الانسان ان يكون جبلاً . انتهى .
وكان لكاترينا اكثر من ضد واحدٍ فانها بينما كانت
الدولة العلية تتهددها من جهة الجنوب كانت بروسيا تحيل
لكي تستلم دانتزيك وتورن وتلزم النمسا بان تقبل بارجاع
غاليسيا لها . وتظاهر غسطاف الثالث بغتة وطلب فينلاندا
الجنوبية . فاغضبها ذلك وبدون ان تاتي بجواب اسرعت
بالعساكر وحاصرت نيسلوت وفردريكهام . هذا ولئن كان
صوت المدفع الاسوجي يرن الى حد القصر الشتوي وكان
يمكن للاسوجيين لو كبسوا بطرسبرج ان يستولوا عليها لخلوها
من الحامية لكن الامبراطورة كاترينا ابدت الشجاعة العجيبة التي
كانت تحث بها قوادها وتوصي بوتامكين ان يتدرع بها وتركت
العاصمة بسرعة كلية وتمكنت من جمع اثنى عشر الف رجلٍ
لملاقاة غسطاف الذي توقف عن المسير لقلاقل داخلية وقعت
في معسكره وهو ان قواده كانوا يتهمونهُ بانهُ داس شريعة
البلاد حيث فتح الحرب دون ان يستشير مجلس الاعيان والتزم
ان يرجع اخيراً الى ستوكهلم حيثما قاص الثائرين وقرَّر نظام
الاصلاح الجديد وشغلهُ شاغل آخر وقع بينهُ وبين الدانمرك
اعاقهُ مدة ولكن عند فراغهِ من اعمالهِ عاد فحمل السلاح ضد

كاترينا بينما كانت قد تمكنت من قواها القليلة لردعهِ والحرب اذ ذاك قائمة بينها وبين الباب العالي · وكسر غسطاف في عدة مواقع ما عدا موقعة بحرية في سفانسكا سند استولى بها على ثلاثين مركباً وستمائة مدفعاً وذلك في ٩ تموز (جوليه) سنة ١٧٦٠ واذ ذاك رأى نفسهُ غير قادر لان يتعقب هذا الربح لتكرار خسائرهِ فاضطر ذاك الملك المتقلب لان يوقع على شروط الصلح المعروف بصلح فبريلا · وانتقل من عدوان روسيا الى محالفتها

واما في الجنوب فان الامبراطورة كانت قد جهزت في سنة ١٧٨٨ اربعين الف مقاتل لحماية القوقاس وثلاثين الفاً لحماية القرم وسبعين الفاً تحت قيادة رومانتسوف لكي يشغل الدنياستر · وكان تحت قيادة الامبراطور جوزف الثاني النمسوي ثمانين الفاً يتهدد بها خط الدانوب والساف وجاءت كاترينا بنفسها الى القرم فالتزمت الدولة العلية ان تجعل قسماً من عساكرها يقاتل النمسا والباقي وهو الاكثر عدداً يقاتل روسيا في جهات مختلفة · وضرب الصدر الاعظم العساكر النمسوية في محل يقال لهُ فتح الاسلام فكسرها واستولى على قلع وحصون كثيرة نظير مهاويا ولزرتخانه ونحوها وارسل الى الجهة الثانية

فرقة من العساكر تحت رئاسة شاهين علي باشا لتقوية العساكر المحاربة لروسيا . وعندما كانت العساكر العثمانية متغلبة على عساكر النمسا وكاد الامبراطور جوزف يقع اسيرًا في يدها تقدمت عساكر روسيا واستولت على قرمان وبندر باهتمام القائد سوفوروف وامتلك ايضًا هوطن وازون والبغدان فاشغل ذلك الصدر الاعظم ورأى ان الدول التي وعدت بالمساعدة قد كذبت ورجعت الى الوراء كمتفرجة فارسل يخبر بذلك حضرة ساكن الجنان السلطان الاعظم ويعرض عليه المخابرة بشان الصلح . وكان في نفس الوقت قد توفاه الله واقيم مكانه حضرة ساكن الجنان السلطان سليم فاهتم بتقوية العساكر وزيادتها فجمع مائة وخمسين الف مقاتل وارسلهم الى صوفيا وكانت عساكر النمسا قد انضمت الى عساكر روسيا لمحاربة الصدر الاعظم يوسف باشا وحسين باشا القبودان فانتشب بينهما القتال ودام الى شهرين واستظهرت عساكر الدولة العلية . وتقدم سوفوروف بعساكره وبفرقة من عساكر النمسا واستولى على قلعة بلغراد وقلعة بندر واياتي الفلاخ والسرب وكل المدن التي على ضفاف الطونة وجاء قلعة اسماعيل وهي من امنع حصون الدولة في تلك الجهات . وعندما توفي

الامبراطور جوزف حليف كاترينا واقيم مكانهُ ليوبولد الثاني فهذا ابرم معاهدة صلح مع الباب العالي لم يربح منها غير فرسوفا القديمة وذلك في آب سنة ١٧٩١

واما كاترينا فحيث تخلصت من حرب اسوج صرفت كل جهدها الى قتال الباب العالي وحاصر سوفوروف قلعة اسماعيل وفيها ثلاثون الفًا من الابطال العثمانيين وقطع عنهم الزاد والمؤن وخابرهم مرارًا بالتسليم فلم يجيبوا واصروا على الدفاع حتى اخر نفس منهم وهكذا صار لان سوفوروف صاح بعساكره اخيرًا وامرهم بالهجوم على القلعة دفعة واحدة وان لا يرجعوا احياء او يستلموها فانتشب قتال مهول مخيف بين الحاصرين والمحصورين حتى تغطى العسكران تحت حجاب الدخان المتكاثف جدًا وكانت الكرات تندفع بكثرة من القلعة فتصيب الروسيين فيندثرون تحتها وهم لا ينفكون عن هجومهم غير مبالين بشدة الخطر ولا بنيران العثمانيين القتالة وقد صمت آذان كل من المتقاتلين لارتفاع تلك الضوضاء ولكثرة ارعاد المدافع التي كانت تنحدر كالصواعق على اجسام بني الانسان ولعب العناد والشجاعة براس اولئك المتحاربين فلم يرضَ احدهم بالغلبة وبقي القتال يتعاظم حول تلك القلعة مدة وقد قتل من الروسيين نحو عشرة

الاف نفس حتى تمكنوا من الخنادق وفي الليل صعد الروسيون على جثث القتلى ودخلوا القلعة وحاربوا داخلها حربًا هائلة وكان يخطر للروسيين ان العثمانيين حال دخولهم يسلمون اليهم فصادفوا خلاف ذلك ودام القتال ثلاث ايام وثلاث ليال حتى قتل رئيس العساكر العثمانية وكل الذين معهُ ولم ينجوا منهم الا نفر واحد طرح نفسهُ في النهر وذهب فاعلم الديوان في الاستانة . وقيل انهُ قتل من النساء والاولاد في تلك المعركة نحو ١٥ الفًا . ولما وصل الخبر الى الاستانة هاج الاهالي وطلبوا راس روستجقلي حسن باشا قائد العساكر الذي كان من اعظم رجال زمانهِ في الحروب البرية والبحرية فلاجل تسكين الهيجان احضر لهم راس القائد المذكور

وبقيت الامبراطورة تتبع انتصاراتها وقوادها منتشرة في تلك النواحي واستيلاؤُها على كارمان وكيليا جعلها سيدة مخارج الدانوب وحينئذٍ توسطت دولة انكلترا ودولة بروسيا بعقد الصلح ورات كاترينا اضطرارها الى ذلك اولاً لان مصالح فرنسا واعمال الثورة فيها تدعوها الى المداخلة وثانيًا وهو الاهم رات ان عساكرها قد تعبت جدًا من قتال العثمانيين وانها وان ربحت في عدة مواقع الا ان هذا الربح كلفها كثيرًا من الاموال والرجال

وخافت من ضياع ذاك الربح اذا دامت على الحرب اذ لا تعرف ما يكون قد تخبأ لها في المستقبل وهي تعلم جيداً ان الدولة العلية لاتضعف بخسران تلك المراكز التي اخذت منها وانها قادرة على الدوام من تجديد قوتها وملاقاة عدوها مهما كان وايًا كان فاجابت الى الصلح تحت شروط منها انها تاخذ القريم وجزيرة طامان وجزءا من كوبان وقسماً من بسارابيا والبلاد التي بين نهرى بوغ ودنيستر. وبنت كاترينا على فم مصب هذا النهر على البحر مدينة اودسا تذكاراً لانتصارها وهي مدينة شهيرة على البحر الاسود جهة اوربا سكانها نحو اربعين الفاً وفيها جملة ابنية جميلة واماكن شهيرة اكثر سكانها نصارى وفيها معامل الصابون والبارود واقمشة الحرير والحديد واعظم متجرها في الحبوب. وهكذا انتهت هذه الحرب التي ابتدأت في سنة ١٧٨٩ ووقع على شروطها الصلحية في كانون الثاني سنة ١٧٩٢ ومن راجع التواريخ العثمانية المطبوعة في بلاد الدولة العلية التي اخذنا عنها ذكر هذه الوقائع يرى تفاقم الاضطراب الذي كان مبتدءا اوائذ في الاستانة بين الانكشارية والوزارة والعساكر المنظمة و يتعجب من اقتدارها على القيام بحروب عظيمة كالحرب التي قامت بها وقد كبحت اعداءها واستأصلت مطامعهم ولاريب الى الابد

اقتطاع بولونيا الثاني والثالث مجلس (ديات) غردنو. كوشيزكو

كانت بولونيا من سنة ١٧٧٢ — ١٧٩١ واقعة تارة باضطراب واختلافات وتعاسة متنوعة وطوراً باجتهادات واصلاحات. وقد اقام تيزانهوس مدرسة للطب في فارسوفيا وانشأ غيرها من المدارس الثانيوية في فيلنا وكراكوفي ووضع الفيلسوف الفرنسوي كونديلاك كتاباً في المنطق واحضر استانيسلاس بونياتوفسكي مراسل فولتير وصديق ابن مدام جيوفرين عملة من الفرنسويين والايطاليان واقتدى كثير من المورخين والشعراء من ابناء الوطن بالاجانب وزينوا بعلومهم مدارس بلادهم ومكاتبها. وقال ليليفال ان النجاح كان يجري بسرعة وفي بعض سنين اصبح ينظر الى تلك الاعمال الماضية الوقحة وتلك التطرفات التعبدية بعين الكره والازدراء وكانوا يتكلمون عن الاعتقاد القديم بالسحر ويفسرون الحوادث الجوية المختصة بالطبيعة بنوع عقلي واخلف ذاك الحقد والشقاق الذي كان بين الطوائف الاخاء ولهذا كانت تنشأ طائفة من الشبان بعيدة عن التعصب والفساد الديني السابق متهيجة لاجل الوطن مشعرة بثقل النير الغريب وعاملة

بوجوب الحرية الوطنية وبقبح اعمال آبائهم الذين قادوا البلاد الى الخراب وتركوا مجالاً لانفاذ مطامع الغير في وطنهم

فليقابل بين اهل هذا الزمن واهل زمن الانقطاع السابق حيث كانوا قد فضلوا خراب البلاد ودمارها وهلاكهم على السماح لغير المذهب الروماني بالحرية الدينية متممين بذلك طلب المرسلين وغيرهم من محبي الفساد والشقاق . واذ ذاك رات بولونيا انها في حالة خراب وانها محتاجة لان تحيي لتتخلص من مطامع الروسيين وقد انتعشت نفوسها بمواعيد ملك بروسيا السرية بينما كانت روسيا في حرب الاسوج والدولة العلية من انه يمدها بالمساعدة ويعيد اليها الحرية التامة . وراي البولونيون انه قبل كل شيء يلزم اصلاح الشرائع والقوانين لتكون دستوراً للعمل مقبولاً من الشعب فالف مجمع ديات فارسوفيا في سنة ١٧٨٨ لجنة لاصلاح الشرائع واوصل عدد الجيش الى ٦٠٠٠٠ مقاتل وحكم بضرائب جديدة تحسيناً للمالية . وسريان الحوادث مكن بولونا من اجراء كل عمل فبروسيا كانت تظهر صداقتها لها وانكلترا كانت عاملة كعدوة الدة لروسيا وفرنسا مشغلة بثورتها لايمكنها المداخلة قطعاً وروسيا نفسها كانت واقعة بحرب الباب العالي وعساكرها متفرقة في كل مواقع الحرب . وعليه لزم

بونياتوفسكي مثير بولونيا في هذه المرة ان لا يهتم بكفالة روسيا الشرائع بولونيا ووجوب ملاحظتها بل اهتم بعقد معاهدات هجوم ودفاع فاعطى مجمع ديات سنة ١٧٩١ قانوناً اساسياً لاصلاح الشرائع واشهر ان التاج الملكي يكون بالارث ونادى عائلة السكس الى الخلافة بعد بونياتوفسكي وابطل «الليبروم فيتو» التي كان الحكومة القانونية وان ترتب القوانين باعتناء الملك ومجلس الاعيان ووكلاء السدة الرسولية وان تكون القوة الاجرائية للملك مطلقاً ويكون لهُ ستة وزراء يسئالون تجاه المجالس ويكون هو قائد الجيوش العامة ويكون للمدن حق انتخاب القضاة وارسال نواب الى مجلس الديات. ولم يتجاسر مجلس الديات ان يمس حق الشرفاء من جهة الفلاحين لان الشرفاء هم الطائفة المحاربة التي يمكن ان تتخلص البلاد بها من كل مداخلة. ولكنهُ اشهر انهُ يصادق على الشروط الخصوصية التي تحدث بين السادات والعبيد لفائدة العبيد. فهذا النظام الاساسي كان موافقاً لان يجعل البلاد البولونية في حالة حسنة لو كان لها من السعادة ما يجعلها ان تسندهُ بهِ ولو وضعته قبل ذاك الزمان اي قبل ان اقتطع كلٌّ من دول الشمال قطعة كبيرة منها وهشموها تهشماً اضعفها وجعلها تأن من تحت

السلطة القوية القادرة · واللجنة التي قامت بهذه الاعمال سميت بلجنة ثالث مايس (ايار)

وحيث كانت الامبراطورة كاترينا حاملة على عاتقها الاهتمام والسعي في محاربة الدولة العلية موجهة بكل قواتها الى هناك اعرضت عن اعمال البولونيين ولم تعارضهم بشيء ولكنها عندما وقّعت على معاهدة صلح ياسي وعادت الى بطرسبرج قبلت عرضحال التشكي من اعمال البولونيين ممضى من الغير قابلين من ابطال (الليبروم فيتو) ومنهم فيليكس بونوتكي و برانيشكي وجافيسكي والاخان كوسّاكوفسكي · ومن ثم امرتهم كاترينا ان يعقدوا معاهدة يدعونها معاهدة تاغوفيتسا واعلنت في ١٨ مايس سنة ١٧٩٢ ان روسيا ضامنة الشرائع البولونية وان الذين غيروها هم كمذنبين جاكوبيين · فاغاظ اعلانها هذا كثيرًا من الروسيين العقلاء لتسميتها البولونيين بمذنبين جاكوبيين. فاجتمع الاحزاب وعقدوا معاهدة تاغوفيتسا وعرضوها على الامبراطورة وسالوها الاهتمام بمصالح بولونيا واخضاعها للقوة الروسية من ان تسن نظامًا جديدًا · فبناء على طلب المتعاهدين ارسلت بثمانين الف روسي وعشرين الف قوزاقي فدخلوا ايكران قاصدين كبح الثورة واخمادها وتسليم

مجلس بولونيا الى متعاهدي تاغوفيتسا . وحينئذٍ ارسل بونياتوفسكي الى ملك بروسيا يذكره بمواعيدهِ ويسالهُ الامداد والمساعدة . فاجابهُ فردريك غليوم الثاني اني لست مقيداً بوعدي لكم واني ارى نفسي متخلصاً منهُ لانكم اجريتم كل عمل ضد مشورتي ونظمتم القانون الجديد ونشرتموهُ دون اطلاعي عليهِ فوعدي لكم ساقط . وخابر هذا الملك الامبراطورة الروسية في شان تقسيم بولونيا قسمة ثانية تكون النمسا محرومة منها ويكون لها تعويضاً عن ذلك الاقاليم التي ناخذها من فرنسا الثائرة وكاترينا نفسها وعدت النمسا انها تساعدها على اكتساب بافاريا بدلاً من بيبا . ولما راى البولونيون انهم تركوا من كل مساعد جربوا الان يقاوموا وحدهم الهجوم الروسي . فرجع جيشهم في ليطانيا متقهقراً دون حرب بينما كان قسم من الجيش الخاص يقاتل تحت امرة بونياتوفسكي في معركة زيالانسي وقسم مع تادي كوستيزكو في معركة وبيبانكا على نهر بوغ . وتقهقر الجيش برمتهِ اوجب ستانيسلاس ان يعلن الرضاء بمعاهدة تارغوفيتسا وبابطال عمل بونياتوفسكي المعروف « بعمل ثالث مايس المجيد » والتزم القواد والامراء ان يتفرقوا و ينسحبوا كلٌّ الى ناحية ومتعاهدو تارغوفيتسا استلموا محلاتهم في مجالس المملكة

وابطلوا القوانين الجديدة وارجعوا (الليبيروم فيتو)

ولم يكن البولونيون يدركون سوء الحظ والتعاسة السائرين اليها من جرى قبائح اعمالهم وعنادهم حيث كانوا يجهلون الاقتطاع الثاني الذي اتفق عليهِ حكومتا روسيا وبروسيا الى ان راوا الجيوش البروسية بدورها تقطع الحدود الغربية واعلن ملكهم ان اضطرابات بولونيا قللت من الامان في بلاده المجاورة وان دانتزيك ترسل قمحاً للثائرين في فرنسا وان بولونيا مشحونة بجمعيات الجاكوبيين الذين دسائسهم تضربهِ وببلاده بواسطة دوام الحرب مع فرنسا . وعليهِ فان ملك بروسيا كان يعلن انهُ يرى الجاكوبيين في كل مكان يكون لهُ غاية لان يراهم فيهِ فكان من هذا الاقتطاع الثاني ان اخذت روسيا الاقاليم الشرقية مع ثلاثة ملايين من السكان الى الحد الواقع من حدود كورلاند الشرقية ماراً ببنسك يتصل الى غاليسيا ويشمل بوريسوف ومنسك وسلونسك وفوليني وبودولي وروسيا الصغرى واخذت بروسيا تورن ودانتزيك وبولونيا العظمى وبوزان وغنسان وكاليسخ وثزانتوشوفر . وبهذا ضمت بروسيا الى حضنها مرة ثانية بلاداً تتصل الى نصف بولونيا فيها مليون ونصف من الصقالبة دخلوا تحت النير الالماني مع ان كل

ما ضمتهُ روسيا اليها هو من البلاد الروسية والليطانية

ولم تكتفِ روسيا بسلب بولونيا التي صارت اوانئذٍ قطعة ارض اقل امتداداً من الارض التي دخلت في يدها بل دعتها لتقبل بهذا الاختلاس وتعترف بهِ قانونياً . فاجتمع مجلس الديات في غردنو تحت ازدحام الحراب الروسية مضيفاً الى هذا الخطر الاضرار المالي الذي تحملهُ البلاد من جرى الاجتماعات والمصاريف الحربية . اجتمع بالانتخاب وراى الملك ذاتهُ مجذوباً الى غردنو ليترأس مجلس خراب وطنهِ . وشعر سيافر سفير كاترينا الثانية بهذا الاجتماع وصرف سياسة وحكمة ليعرف معنى هذا الاجتماع مع انهُ كان يركن لاحد اولئك المجتمعين ويظن بهِ انهُ يطلعهُ على افكار القوم ومثلهُ متعهدو تارغوفيتسا قد اختلفوا مع روسيا ونظروا في صوالح بلادهم ولم يروا من الحسن استيلاء روسيا وبروسيا على بلاد بولونية طمعاً واختلاساً .

ومضى عدة اشهر دون ان يقف ذلك السفير على شيء وقد قرر مجلس الديات بالامل الغاش ان يفرقوا أعداءهم قبل ان يصادقوا على معاهدة التخلية وتهدد سيافر المجتمعين بان احاط قصر الاجتماع بطابورين من العساكر واربع قطع من المدافع ومع ذلك فلم يقدر على معرفة شيء وعبثاً كان يتعب ويجد ومضى عشرون

يوماً دون ان يقف على كلمة مرضية من تلك الجمعية (الديات) واخيراً استعمل كل سياستهِ فمرة بالعدوان ومرة بالحب حتى قدر ان يظهر لهُ ولو بالوهم ان بعض البولونيين يكرهون البروسيين كل الكره وانهم يعلقون كل امل بعضد الامبراطورة واعفاءهم من ثقل هذا النير وان تجمع كل المملكة تحت سلطتها . وكان هذا الامر مرضياً لسيافر وطالما ابداهُ وكتب بهِ ومثلهُ سيمون فورونزوف سفير روسيا في انكلترا حيث كتب في هذا الغلط العظيم من مشاركة الدول في اراضي بولونيا مع ان روسيا قادرة ان تكون وحدها سيدة البلاد وفي المستقبل حاكمتها وليس من الحكمة ان تسلم روسيا باتساع بروسيا وتساعد على تقويتها وتضع في يدها جمهوراً كبيراً من الصقالبة . وفي الثالث والعشرين من ايلول سنة ١٧٩٣ والليل التابع لهُ عقد اجتماع متسع للمخابرة ولكن دون ان يفوه احد المجتمعين بكلمة كانهم بكم صمٌ لوجود تانغلس البروسي بينهم وعند الصباح خرج هذا ليحضر عسكرهُ وحينئذٍ تكلم بيالنسكي نائب المجلس واعرض على المجلس المسألة وطرح انكيافتش لدي النواب الروسيين حالة ضعفهم وظلمهم وسالهم الاعتناء بقيام وطنهِ . فلم يبدِ احدهم كلمة واخيراً سال بيالنسكي عند ما راى احباط المساعي هل ان

مجلس الديات يفوضهُ بالتوقيع على معاهدة مع روسيا تضمن لهم ما هو باقٍ من البلاد فلم يجبهُ احد وكرر ذلك ثلاث مرات دون انقطاع نفس وحينئذٍ سمع صوت من بين تلك الجموع الصماء يقول هذه الكلمة فقط (ان السكوت علامة للرضى) وحينئذٍ خرج نواب البابا من غرفة الاجتماع محزونين يمسحون دموعهم عن اعينهم وارفض الاجتماع حينئذٍ . وفي السادس عشر من شهر تشرين الاول عقد مجلس الديات معاهدة ارتباط او بالحري معاهدة استعباد مع روسيا وما لها ان الامبراطورة كاترينا الثانية تاخذ تحت حمايتها حرية الجمهورية البولونية وتضمن لهم شريعتهم (اي القوانين القديمة) والجيوش البولونية التي كانت لاتزال في الاقاليم الداخلة في يد روسيا تحلف يمين الامانة والطاعة . ولا يحق لتلك الجمهورية ان تبقي من العسكر اكثر من خمسة عشر الف نفر لضبط الادارة وحفظ الراحة

ان العدل الانساني يحكم بان ما وقع على بولونيا في سنة ١٧٧٢ من الذل والاختلاس كان بحق قصاصاً لبربريتها وتوحشها وتسليمها ازمة مهامها الى اهواء اعداء الانسانية واما في هذه المرة اي في سنة ١٧٩٣ فما من عدل يسلم بانها كانت مستحقة

كل هذا الذل والانحطاط دفعة واحدة . ومع كل هذا فان
الراي الاكثر في بولونيا كان يتكدر عند سماعهِ بمثل هذه
المعاهدة التي كانت عليهم اعظم من التقسيم الاول والثاني ولا
سيما العساكر التي لم تكن قد تفرقت بعد واما شعب الحقول
فانهُ بقي جامداً وغير متحرك من كل هذه الحوادث غير مهتم
مما يجري على البلاد ومما يفعلهُ الاعيان والامراء ومن المقرران
هولاء القوم اي الفلاحين هم في حالة عبودية كيف كانوا اذا
بقيوا على حالتهم او دخلوا تحت نير السلطة البروسية او الروسية
ولم يكن لهم من رجاء بتحسين حالتهم . واما الشرفاء والاعيان
فقد علقوا اخيراً املهم بتادي كوسثيز كو بطل وييبانكا الذي قام
بالثورة الثالثة

ولد هذا الامير سنة ١٧٥٢ ودخل سنة ١٧٦٤ المدرسة
الحربية وامتاز بها على سواهُ بالذكاء المفرط وقوة الجنان وتدرج
بالاختبارات الحربية حتى بعد صيتهُ واراد ان يتزوج ببنت
سوسنوفسكي احد شرفاء البلاد فامتنع عليهِ بها وعيرهُ بان
اباهُ ذبحهُ الفلاحون فانتقم من قاتلي ابيهِ وكان ذهب الى امريكا
وحضر مواقعها الحربية مع الانكليز ورجع منها بالنيشان
الجمهوري جزاء على بسالتهِ . فبعد التقسيم الثاني لبولونيا انسحب

الى الساكس واجتمع برجال ثالث مايس وهم مالاكوفسكي وابنياس بوتوتكي وكولونتاي ونيامثيفتش وخابرهم بشان وطنهِ وذهب الى فرنسا وصرف كل اعتنائهِ الى ان حصل على مساعدة جمعية السلام العام . وعند هذه المعاهدة كان في درست يولف عصبة جديدة متسعة في بولونيا . وعملهُ هذا جذب الوفا من الاعيان والرهبان واصحاب الاملاك وانضم اليهِ الوف من العساكر التي صرفت من الجيش الالماني . وترتبت هذه المؤامرة على احسن ترتيب من السابق بحيث ان الجنرال ايجالستروم الذي كان في فارسوفيا من قبل الامبراطورة كاترينا لم يقدر ان يقبض ولا على خيط من خيوط تلك الثورة

ومما عجل العمل وقرب زمن الثورة التشديد بصرف العساكر الزائدة عن الشروط المقررة في المعاهدة البولونية الروسية لان مادالينسكي أبى ان يصرف الفرقة التي كانت تحت امرتهِ او يتركها ان تلقي سلاحها فقطع نهر بوغ وانطرح على الاقاليم البروسية ومن ثم وصل الى كراكوفي وعندما بلغها نهضت بولونيا الثانية عاصمة الملوك القدماء وطردت الحرس الروسي واسرع اليها كوسثيزكو شاهراً علم العصيان داعياً الاهالي الى حمل السلاح من كل الجهات لهتك حرمة المتقاسمين

فتقاطر اليهِ نحو خمسة آلاف فلاح وجمع من القرى كل الشيوخ والكهول الذين كانوا قاموا بثورات سابقة والزموا بالقوة كل رجل امتنع عن التداخل او كان فاتر الهمة بطيء الارادة . فاقلق هذا الجالستروم في فارسوفيا وارسل القائدين تورماسوف ودنيسوف على كراكوفي . فالتقى تورماسوف بقرب راثلافيتسا حيث كان قد التقى دنيسوف بكوستيزكو ومادانيسكي بقوات تقارب قواتهِ فتقاتلا طويلاً وانكسر من البولونيين الخيالة من الاعيان واسر كوستيزكو غيران جيش الفلاحين ثبت في هذه المعركة وخلصهُ وقهر الجيوش الروسية واستولى على ١٢ مدفعاً وبعض اسلحة ومهمات . وعليهِ لكي يقاص كوستيزكو جبن الخيالة نزع عنهُ ثوب الاعيان ولبس كواحد من اولئك الفلاحين

فخبر هذا النجاح وصل سريعاً الى فارسوفيا وشخصت رواية في كراكوفي رمزاً على حوادث غاليسيا زادت الثورة هيجاناً واتساعاً . وقد اساء الجالستروم وضع فرقهِ العسكرية وترتيب مراكزها حتى انهُ كان يمكن قطع المخابرة بكل سهولة بين فرقة وثانية ويسهل للبولونيين تشتيتها . ولم يكن بعد قد سلم بيت السلاح للروسيين بل لايزال بيد الوطنيين . ففي السابع

عشر من نيسان عند الساعة الثالثة صباحاً انتشر العصيان في فارسوفيا ودقوا الاجراس بكل الكنائس علامة لذلك «دقة التوكسين» . وهاج الشعب بواسطة الكندرجي كيلنسكي والصراف كوبوستاس واندفع على الفرق الروسية المنفردة ونظر ايجالستروم ذاته محاطاً بالاعداء وهو داخل سرايتهِ بعسكر قليل منفصلاً عن فرقهِ التي كان يهاجمها البولونيون في كل جهة دفعة واحدة وفي اليوم الثامن عشر تسهل لهُ الخروج من سرايتهِ تاركاً للاعداء ١٢ مدفعاً واربعة الاف قتيل وجريح والفي اسير . ووقع في فيلنا عاصمة ليطانيا ما وقع في فارسوفيا وثار الشعب وطرد الجنرال ارسانياف . واقيم في فارسوفيا حكومة موقتة وارسل رسول الى كوسثيزكو يطلعهُ على النجاح ويسالهُ الاتيان اليهم والذين اقيموا هم رجال ثالث مايس . واما الملك ستانيسلاس فانهُ بقي في قصرهِ موقراً لكنهُ تحت الحفظ غريباً عن هذه الحوادث غير انهم كانوا ياتونهُ بحسابها اكراماً لهُ . والحاصل ان ثورة ١٧ نيسان سنة ١٧٩٤ كانت على ترتيب حكومة ثالث مايس سنة ١٧٩١ مشتركة بين الحكومة ورجال الوطن يطلبون حماية فرنسا بدون ان يستشيروها في اعمالهم او يقبلوا منها النصائح . والف مجلس

فوق العادة لمحاكمة الذين خانوا البلاد قبلاً واشتركوا بالذنب مع الاجانب وبرهنوا عليهم بالاوراق التي استولوا عليها من السفارة الروسية . فشنقوا انكيافيتش والرئيسين زابيللو واوزاروفسكي وكوسا كوفسكي مطران ليفونيا واخوهُ رئيس ليظانيا حوكم في فيلنا

وفي تلك الاثناء استولى البروسيون على كاركوفي ونسب الشعب في فارسوفيا خراب هذه المدينة الى الخيانة فهاجوا للانتقام واسرعوا الى الحبوس وقتلوا سبعة من المحبوسين الذين اشتركوا في معاهدة تارغوفيتسا وكانوا من احزاب روسيا . فكدر هذا العمل كوسثيزكو وطلب قصاص الثائرين مع محاكمة المحبوسين المذنبين . وكان البروسيون قد ساروا على الفستولا بينما كان الروسيون قهروا الجنرال زيونتشك في معركة كولكوف . ولم يسمح الزمان بان يترك وقتاً للبولونيين يتنعمون بهِ مسرورين بنجاحهم لان الروسيين استولوا على فيلنا والنمسويين على ليبلين وقد مرّ فرسن الجنرال الروسي على الشط الايمن من الفستولا طارداً بونينسكي وهو يتقدم ليلتقي ببطل روسيا سوفوروف حيث كان يسرع مع جيش ايكرن وكان قد ضرب سياراكوفسكي في كروبتشيتسه وليتوفسكي في برست

فبددهما ولو انتهى اجتماع جيشي روسيا في الحال عند الفستولا
لانتهى العصيان غيران كوسثيزكو الذى كان جاء سيارا كوفسكي
ليقويها رجع بكل سرعة لياخذ موقع ماثيوفيتسي على الفستولا
على بعد مسافة متساوية تقريبًا بين فارسوفيا وليبلين ليقف
في وجه الجنرال فرسن وكان معهُ قوادهُ بوتوثكي وكامينسكي
وكوللونتاي ونيامثيفتش . وفي ليلة تلك المعركة قال نامينسكي
لنيامثيفتش وقد راى غربانًا تحوم عن يمينهم بكثرة هل تتذكر
(تيتاليف) (علامة شوْمٍ عندهم) فاجابهُ . اتذكر ولكن تلك
علامة رديئة على رومانيا وليس علينا . ففي اليوم العاشر من
شهر تشرين الاول هاجم الجنرال كروشتشوف البولونيين
مواجهة بينما كان فرسن يحيطهم من اليمين بالجنرال دنيسوف
ومن اليسار بالجنرال تورماسوف وتزعزع الجيش البولوني
من كرات الروسيين ولم يقدر ان يقاوم هجوم الحراب الروسية
فتفرق في الحال شذرًا مذرًا وترك ٢١ مدفعًا و ٢٧٠٠ اسير بيد
الروسيين وأُسر القواد البولونيون ومسك دنيسوف كوسثيزكو
وعامل الروسيون اسراهم معاملة حسنة واجتهدوا في ان
يعزوا نيامثيفتش على جرحهِ الذي كتبهُ في مصاف اهل العالم
الاخير سنة ١٧٩٤

فحزنت فرسوفيا على هذا الخراب وخلف كوسثيزكو فافرجيسكي دون ان يقدر على تعويض ما خسرهُ الشعب من الشجاعة وفي تلك الاثناء كان قد وصل الجنرال سوفوروف امام براغا واخذ الجيش الروسي في الاستيلاء على المراكز حالاً على صوت الموسيقى بعد ان قسمهُ الجنرال المذكور الى سبعة اقسام وقد لبس كلهُ في ليلة الهجوم قمصانًا بيضاء كأن مرادهم الذهاب الى وليمة عرس وفي اول الصفوف حملت الايقونات المقدسة . وحاصر سوفورف براغا حصارًا مشددًا وضربها من كل الجهات . وفي ٢٤ تشرين الثاني عند الساعة الثالثة من الصباح تزعزعت قوات القلعة وطمرت الخنادق وتسلقت الاسوار ودخلها الروسيون . وقد كتب احد الذين شاهدوا تلك الوقعة عيانًا . ان البولونيين دافعوا دفاع الابطال وقاتلوا بياس وضحوا نفوسهم واحتملت براغا كل كره . وقد اوصى سوفوروف بمراعاة السكان وان لا يقتل احد دون سبب غير ان حنق الروسيين من اعدائهم قادهم بالرغم عن توصية قائدهم الى الفتك والقتل الشنيع فقتلوا ١٢ الفًا واما الاسارى فكانوا كثيرين جدًا . وقد قال سوفورف برسالتهِ البرقية (ان الاسواق مغطاة بالجثث والادمية تجري كالسواقي فتحملها وتنقلها)

فاضطربت فارسوفيا من مذبحة براغا وطلب بوتوتكي عقد
معاهدة ليسلم المدينة فابى سوفورف من ذلك وحصر فارسوفيا
لكن ستانيسلاس توسط المسأ له وحمل القائد الروسي ان
يكفل للسكان اموالهم ونفوسهم وان يعطي لمن اراد من الاعيان
تذاكر مرور ليذهبوا الى حيث شاءوا. ودخل الجيش الروسي
المدينة واستولى على كل المواقع فيها. ولذلك دعت الامبراطورة
الجنرال سوفوروف (بالماريشال الاعظم). وفتح فارسوفيا سهل
للدول الثلاث الاتفاق على اقتسام غنيمة ثالثة في بولونيا فارسل
الملك الى غرودنو وسلم اليه رقعة التقسيم التي بها اخذت روسيا
بقية ليطانيا الى حد النيامن (فيلنا وكوفنا وغرودنو ونوفوكرودوك
وسلوتيم) وبقية فولينى الى حد بوغ (فلاديمير ولوتسيك وكريمنتيين)
وعلى هذا الوجه وصلت الى اعلى حد من البلاد التي حكمتها ملوك
متلدة. واخذت بروسيا كل بولونيا الشرقية ما عدا فارسوفيا.
والنمسا اخذت كراكوفي وساندومير وليبلين وشلم وكلها الى جهة
الشمال. وقد رفض الجيش البولوني ان يقبل من جملة الشروط
بتسليم فارسوفيا فاستقلت لعدم اتفاق الدول بشانها. وعليه
اخذ كثير من الضباط والاعيان يهاجرون فيحصلون على
تذاكر مرور ويسيرون حاملين سلاحهم وامتعتهم دون

معارض اين شاءُوا واما الاسارى الذين اسروا في ماثيوفنسي وفي فارسوفيا اقسموا واعيدوا كلٌ الى وطنهِ . واما القواد العظام فارسلوا الى عواصم الدول المغتنمة . فنقل مادالنسكي الى بروسيا وكوللونتاي وزيونتسك الى النمسا وكوسثيزكو وكايوستاس وكيلنسكي وبوتونكي وفافرجيسكي الى بطرسبرج وما بقي من بولونيا سمي ببولونيا الجديدة تحت حماية روسيا . والذي بارج بولونيا سار الى فرنسا منضماً الى جيشها حاملاً السلاح مدة طويلة فبعد عشرين سنة نظر دوفير وفسكي في ترابيا وزيونتسك في مصر ويوسف بيونياتوفسكي في بوردينو وسيروا الى كل ميادين الوغا في اوربا تقريبًا . وقد قاتل بهم نابليون الاول الدول الثلاث اعداءهم . وبعد هذا التقسيم خمدت نار الثورة في بولونيا واعيد الامان والاطمئنان الى البلاد وصبر البولونيون على ظلمهم حاملين ذاك النير الثقيل وقد اصبحت روسيا السائدة على اكثر الاراضي البولونية وسياستها نافذة فيها وما كان البولونيون ليصبروا على الاهانة والاستعباد لولا قوة اليد الغالبة وسيقود ابن الملك فلاديسلاس جيوش بولونيا ذات يوم الى ناحية موسكو الشهيرة

كاترينا الثانية والثورة الفرنسوية — حرب ايران — نهاية حياتها

عند عشية الثورة الفرنسوية كان لويس الخامس عشر قد عقد معاهدة مع الامبراطورة كاترينا ودولة النمسا ومما حوته هذه المعاهدة مضادة ادعاءات انكلترا البحرية وتعديات بروسيا ومنذ اخذ الباستيل فهمت كاترينا انهُ لايسعها ان تعتمد بمساعدة فرنسا المشتعلة دخليتها بنيران الفتن والاضطرابات ومع ذلك كانت تتبع حوادث باريس مظهرة اعظم غيظ وكدر من تلك الوقوعات الجديدة واشارت على لويس السادس عشر بالهرب الى فارين ورات كاترينا الى استقباح تلك الاعمال من الرعايا وخافت الى ان يقع مثلها في بلادها فامرت بملاحظة الروسيين الذين ترتاب في انهم اصحاب افكار حرة ونفوذ كافٍ وان تضبط مراسلاتهم ومزقت تراجيدية كنياجنين فادم في نوفغورود وارسلت الى سيبيريا راديشتشف مولف كتاب (السفر من بطرسبرج الى موسكو) وهو كتاب مهيج بجسارة فوق الحد تكلم بافكار حرة عن العبودية · ووقف نوكيكوف في سجن شلسلبورغ وقفلت مطبعتهُ واعدمت مولفاتهُ · وصرفت جنيست سفير فرنسا ورفضت ان تعترف اولاً بالقوانين الجديدة المسنونة سنة ١٧٩١ وثانيًا بالمشيخة واعلنت فسخ العلاقات السياسية مع فرنسا

ومنعت المرافئ الروسية عن قبول العلم المثلث الالوان وطردت من بلادها كل الرعايا الفرنسويين الذين امتنعوا عن ان يحلفوا لها يمين الامانة للاصل الملكي الفرنسوي وقبلت بذراعين مفتوحتين كل المهاجرين من فرنسا حباً بعائلة البوربون وبادرت الى الاعتراف بالملك لويس الثامن عشر

وفي سنة ١٧٩٢ كتبت الامبراطورة لائحة مشهورة لاسناد القوة الملكية في فرنسا وتقرير الامتيازات الشريفة اكدت بها ان عشرة الاف مقاتل تكفي لاخماد نار الثورة الفرنسوية فشجعت غسطاف الثالث ان يقوم براس حرب هي ضرب من الحروب الصليبية ضد حكم الجمهور والحت على انكلترا بمساعدة الكونت دي ارتوا والنزول على الشطوط الفرنسوية باساطيلها مع بعض الاسطول الروسي واستنهضت غيرة النمسا وبروسيا الى الانضمام والاتحاد على الثائرين ووعدت انها تود مساعدتهم وانها عند فراغها من الشواغل لا تتاخر عن الانضمام اليهم لكنها كانت قلبياً لا تحب ان تدخل بحرب في الغرب بل كان مقصدها ان يقوم بها غيرها وكانت تقول لقد اخذت مركزي بدوري فانا الان مغلولة الايدي حيث توكلت بالالتفات الى مراقبة العثمانيين والبولونيين والى قصاص جاكوبي فارسوفيا

وكان لها بذلك مقصد سياسي وقد صرَّحت بهِ بقولها الى مستشارها اوسترمان (هل انا محقوقة بما افعلهُ فلديَّ اسباب لا اقدر ان اظهرها امام ملوك فينا و برلين تقضي عليَّ بان اغلَّ ايديهم بتلك الاشغال ونبقى يديَّ مغلولتين لان عندي مهام كثيرة غير كاملة التزم باتمامها ويجب ان ارى كلاًّ من هاتين الحكومتين بشاغل فلا تثقلان عليَّ) . واعتذرت متكدرة لكونها لم تكن قادرة على الاشتراك بالحرب ضد الثورة متعللة بحرب الدولة العلية ومن ثم بوقائع بولونيا وعندما انتهت هذه الحرب تصنعت بان من قصدها ارسال سوفوروف بفرقهِ الى الغرب لكنها كانت توخر ذلك لمقاصد لها في الشرق مغتنمة فرصة اشغال الدول وفي تلك الاثناء نهض الشاه محمد ملك ايران الجديد الى تخريب الكرج واحراق تفليس عاصمة هراقليس فحمي غضب كاترينا واحضرت لقصرها اخاً منفياً للملك المذكور ووكلت فالرين زيوف بافتتاح ايران وتاديبها

وهكذا كانت حياة كاترينا مقرونة بالنجاح في كل مكان وقد ارهبت عالمها وفازت ببعد الصيت وودت فعلاً ان يكون انتفاع البوربون من عنايتها فعالاً ضد المتآمرين وحيث ان مداخلتها في بولونيا ونجاحها في الشرق اهاج من

حسد بروسيا والنمسا واخافهما اعتنت بان تجعلهما على الدوام
متضادتين ولذلك اتفقت بغنيمة بولونيا الثانية مع فردريك
غيليوم على كيد النمسا وبالغنيمة الثالثة كانت مائلة الى فرنسوا
جوزف، على كيد بروسيا . ومن ثم توفيت في ٦ تشرين الثاني
سنة ١٧٩٦ وما من ملك منذ عهد ايفان المرعب زاد في اتساع
روسيا وفتح ما يقابل فتوحات كاترينا الثانية وقد جعلت
حدود روسيا النيامن والنياستر والبحر الاسود بعد ان حكمت ٣٤
سنة اكثرها حروب وافتتاحات

الفصل السادس

سياسة الصلح وفتنة بولس الاول

جلس بولس الاول ابن بطرس الثالث وهو في الثانية
والاربعين وكان ذو فكر ثاقب ومزايا طبعية لكنما اخلاقهُ شرست
نوعاً لما كان يلحق بهِ من الاهانة لان امهُ الامبراطورة ضيقت
عليهِ سبل الحرية كثيراً حتى انها حرمتهُ من تربية اولاده بنفسهِ
ومنعتهُ من ان يظهر امام الجيش الروسي فضلاً عما كان يصيبهُ
من احتقار ندمائها وتباعد حاشيتهِ عنهُ ومن التاثيرات التي

رسمت في اذهانهِ من جرى قتل ابيهِ ظلمًا · فاول شيءٍ فعلهُ ابطال نظام بطرس الاول من ان الخلافة على عرش المملكة تكون لمن استحقها وارادهُ الشعب من ذكور او اناث وحصر العرش الملكي بالارث الاكبر فالاكبر وان تكون من ذكر لذكر فقط على خط واحد مستقيم · واستفاد من جنازة امهِ بان اخرج بقايا ابيهِ من القبر وجعل لهما احتفالاً واحدًا بكنيسة القلعة فالتزم الكسيس اورلوف ان يمشي امام نعش ابيهِ وان يحمل تاجهُ وبعد نهاية الاحتفال والدفن لم يقاص احدًا من عشاق امهِ وندمائها بل ابعدهم منهُ ما عدا بزبوردكو فابقاه وزيرًا للخارجية وجعل كل اتكالهِ على روستوبتشين وارا كتشوف مع انهُ كثير الانتقام يميل الى القصاصي والنفي الى سبيريا اكثر من الرحمة والعفو في كل اجراءاتهِ

وحيث كان يتصور ان القواعد الملكية مزعزعة في روسيا احيى كثيرًا من العوائد القديمة البربرية فالزم العجلات ان تقف عند مروره وان النساء والرجال يسجدون راكعين ولو بالوحل او بالثلج احترامًا للسلطة وسنَّ نظامًا جديدًا يمنع بهِ الناس من لبس البرانيط المستديرة والثياب الضيقة والصداري والقبات الكبيرة الرسمية وكلما هو من هذا الباب وحذف من

اللغة الرسمية كلمات كانت اصطلحت عليها والدتة (كالهيئة الاجتماعية وابن وطن ونحوهما) ورتب قانوناً صارماً على التياترات وعلى علم الاداب ومنع دخول الكتب الموسيقية الواردة من اوربا وارجع الروسيين الذين كانوا يسافرون الى الخارج اما للتعليم واما لغيره ومنع دخول كل فرنسوي الى بلاده ما لم يكن حاملاً تذكرة مرور من ملوك البوربون . ففي سني كاترينا الاخيرة كان قد لحق بالجيش الروسي جملة اضرار عظيمة وكان من اللازم اصلاح تلك الاضرار وارجاع القوة العسكرية الى مركزها الاصلي مع بقاء العوائد التي اعتاد عليها الجيش ليبقى على نجاحهِ مجهزاً للحرب في كل ساعة لكن بولس لم يقم بذاك الاحتياج والاصلاح بل ادخل الى الجيش كل العوائد البروسية حتى ان الروسيين لم يعودوا يعرفون انفسهم من البروسيين وهم تحت الملابس العسكرية التي هي اذناب وبودرة وبكل واحذية وطماقات وقبعات ثقيلة الى غير ذلك . وهذا دعا المرشال الاول سفوروف الى ان يهز برأسهِ ويلفظ هذه الجملة (ان بودرة المواشط ليست من البارود والبكل ليسها من المدافع والاذناب ليست بحراب ونحن ابطال الروس ولسنا بالمان) . وهذه الجملة الزمت هذا البطل المنتصر في كل الوقائع

الروسية ان ينسحب بامر الامبراطور الى قريتهِ في كوتشيفسكي بقرب نوفغورود حيثما صرف وقتًا وهو خالٍ من مهام هذا العالم يدق جرس الكنيسة ويقرأ الرسائل ويرتل في خدمة القداس

واهتم بولس باصلاح المالية والاقتصاد ليعتاض عن الاموال التي صرفت في الحروب المتواصلة مدة طويلة والتي اسرفت في ملاطفة الندماء ومرضاتهم

واما في الخارج فانهُ سعى في بادي بدء بسياسة صلحية وسلمية وارجع الجيش الذي كان تجهز على ايران والهند وترك الكرج لحالها تدافع بذات قوتها واظهر بعض تشفق على البولونيين وارجع المنفيين قديمًا الى سيبيريا ونقل الملك ستانيسلاس من غرودنو الى بطوسبرج وزار كوسثيزكو في شلسلبورغ واطلق لهُ الحرية وفعل كذلك مع سائر الاسارى ووكل كوليتشوف بالذهاب الى برلين ليقول لملك بروسيا انهُ غير راغب في الفتوحات البولونية وغير مسرور من اتساع مملكتهِ . وأعهد الى اوسترمان بان يكتب الى سائر الدول بما مآلهُ ان الروسية ما انفكت عن الحرب منذ سنة ١٧٥٦ وان اربعين سنة بالحرب المتواصلة كادت تهلك الشعب فاختار الامبراطور ان يجيب رعاياه المحبوبين الى الراحة ويضمن لهم السلام الذين يتلهفون

اليو) وكان الامبراطور مع ذلك باتفاق تام مع الدول المتحدة ضد نجاح الجمهورية الفرنسوية وهم ينظرون اليها كمتهددة لاوربا بخراب عام بانقلاب الشرائع والحقوق والديانة والعوائد وهو يرفض كل مساعدة فعلية سلاحية بالاشتراك مع النمسا المضطربة من انتصارات بونابرت في ايطاليا · واسترجع الاسطول الذي كانت كاترينا قد اضافتهُ الى الاساطيل الانكليزية بقصد حصار الشطوط الفرنسوية والهولاندية · والحاصل انهُ اظهر في الاول لدول اوربا انهُ يكره الحرب كرهاً عظيماً ويحب السلام وانهُ وان كان يشترك معهم بالحاسيات الا انهُ مضطر لان يترك الشعب الروسي يرتاح زماناً من الحروب وابان لسفير فرنسا في برلين بواسطة كوتيشوف انهُ غير مشترك بالمحاربة مع الدول وانهُ معتمد لان يعيش بسلام معها

لكنَّ الايام والحوادث ما كانت تطيع هذا الملك الروسي المحب السلام مع ان الصوالح تقضي عليهِ بان يتاثر خطة اسلافهِ بالرغم عن ارادتهِ واميالهِ وان يحافظ على البلاد التي افتتحوها وان كان يكره فيها لان الامة الروسية ذاقت لذة العظمة ورات نفسها بحالة اولية بين الدول الاوربية وان من الضرورة المحافظة على النفوذ الذي لها في كل مكانٍ · فاستيلاء فرنسا

على الجزائر البونية جعلها ان تكتسب موقعاً تهديدياً بالشرق ومجلسها (الديركتوار) فوض دوميروفسكي البولوني لان يجهز فرقاً عسكرية بولونية في ايطاليا . واذ ذاك عثر بانين في برلين على رسالة من هذا المجلس ما كلها وجوب اصلاح في بولونيا تحت حكم ملك من براندبورغ . كل ذلك اغاظ الروسيين وحركهم الى عداوة الجمهورية اكثر مما في السابق . وقد ضمن بولس الاول صيانة اميركانديا وعسكر بعشرة الاف من المهاجرين في فوليني وفي بودلي وقدم ذاته ملجاء للويس الثامن عشر المطرود من برونسويك وعين لاقامته القصر الدوقي في ميتو ورتب مائتي الف روبل لمصروفه . ومما عجل انهاض الروسيين ضد فرنسا الخبر بان سرية فرنسوية كانت تجهز سراً لتقلق راحة شطوط البحر الاسود ووصول بعض امراء منفيين الى بطرسبرج سالوهُ ان يحميهم ولقبوهُ بالسيد الاعظم والاستيلاء على الارض السويسرية بامر الديركتوار (مجلس التدبير) وطرد البابا وطلب الجمهورية الرومانية . فعقد بولس الاول معاهدة مع الباب العالي ضد فرنسا كونها دخلت الديار المصرية ومع انكلترا والنمسا لسبب المباداة بالشر المضاعفة ضد مالطا . وقد تعهد بولس باضافة اسطوله الى

الاسطول العثماني والانكليزي وان يقدم جيشاً ينزل على هولاندا وجيوشاً أُخر لافتتاح الجزائر البونية واخيراً جيشاً عظيماً لمحاربة ايطاليا وسويسرا

محاربات في الجزائر البونية وايطاليا وسويسرا وهولاندا

وفي خريف سنة ١٧٩٨ استولى الاسطول الروسي على عساكر المحافظة في الجزائر البونية ونهض ملك نابلي حينئذٍ على ارض الجمهورية الرومانية غيران شامبيوني عاد بالجيوش النابليونية ودخل نابلي واعلن بالجمهورية البارتينوبية

وعليهِ سلمت روسيا امرة جيشها في سويسرا الى ريمسكي كورساكوف وذهبت جيوش اخر نمسوية وروسية الى ايطاليا العليا حيث كانت بدسائس انكلترا تطلب الغالب في فوكشاني وفي ريمنيك ورأى بولس وهو بحالة اهتمام لتلك الحرب انهُ محتاج الى البطل سوفوروف المتقاعد عن جيشهِ والقائم في قريتهِ على ابسط ما يكون من العيشة البسيطة منتزهاً عن كل عملٍ . فكتب اليهِ يستعطفهُ وقال لهُ في اخر تحريرهِ (اني والعالم الروسي جميعاً نعلم ان سوفوروف غير محتاج للانتصار ولكنما الوطن محتاج اليهِ) . فرضي سوفوروف وعاد الى قيادة الجيوش عن طريق النمسا

فمجلس الديركتوار الذي كان يقوم بتدبير القوات لمحاربة المتحدين كان ملتزمًا ان يدافع ليس فقط عن فرنسا بل عن الجمهوريات الباتافية والسويسرية والشيزالية والليكرية والرومانية والبارتينوبية اي كل الشطر العظيم الممتد من زويدري الى حد خليج تارنت ولم يكن قادرًا بوقت واحد ان يشغل كل مراسح الحرب بقوات تعادل قوات الاعداء بل اقل عددًا منها حيث كان نحو ١٧٠ الفًا ضد اكثر من ثلثمائة الف مقاتل ووكل برون بالمحافظة على هولاندا وكان بت وزير انكلترا يهيئ نزول جيوش انكليزية وروسية تحت امرة دوق يورك واقيم على شط الرين القائدان الفرنسويان برنادوت وجوردان حيث كان الدوق شارل النمسوي بجيوشه . وفي سويسرا كان يقيد العساكر ماسينا . وفي ايطاليا العليا الفرنسوية شرير . وفي نابلي مكدونال . ومن ثم ضرب جوردان في ستوكاخ وشرير في ماكنانو وذلك في ٢٥ اذار (مارس) وانزوى الدوق شارل الى سويسرا ليضرب الجنرال ماسينا هناك وكانت جمعية الدول المتحدة قائمة في راستاد ففكرت النمسا بذبح المفوضين الفرنسويين هناك

وتقهقر الجنرال مور والفرنسوي الذي كان خلف الجنرال

شريرالى ادول امام النمسويين وانضم اليهم الجيش الروسي الذي كان في روزانبرغ وعدده عشرون الف مقاتل وكان جيش اخر روسي في ريبندد ينقدم بسرعة لينضم الى النمسويين. واما الجنرال سوفوروف فانهُ كما تقدم كان بقصد الاتيان الى المواقع الحربية ومرّ بفينا وهناك سألهُ تيكيت وزير النمسا عما في فكرهِ من جهة تدبير المواقع الحربية فلم يبدِ رأياً واظهر عدم مبالاة بهاتهِ الحرب وكتم الطريقة التي كان ينويها عندما يقبض على ازمة جيشهِ وسبب ذلك انهُ كان يحتقر النمسويين ويعرف ضعف ثباتهم ويحتقر ايضاً تدابير المجلس الحربي وتقريراتهِ وكان جلّ ما يجيب عند السوال (ان جلالة الامبراطور ارسل لي ختماً على بياضٍ فلا اقدر ان اعرف ما يكون بالحرب قبل مباشرتها وما يلوح في فكري هو اني اقصد باريس لاعيد العرش الملكي) وكان يهيئ ليطرح الى جيشهِ التعاليم والايعازات التي منها (لمحة عين وسرعة هجوم — راس الجيش لا ينتظر الذنب — الكرة مجنونة وليست ذات حرية كالحربة — الفرنسويون ضربوا النمسويين بشجاعة ونحن سنضربهم بمثلها الخ) وكان يسخر باعمال المجلس الحربي وتمهلهِ ويقول عنهُ متعجباً (امتحانات واهتمامات وتعليمات واعتقاد كثير بمعارفهِ . . . . لو عرف كيف

يغلب لكان عظيماً ولكنهُ دائماً يُغلب وهذا غير موافق ...
وملك المانيا يتوهم انهُ من الواجب عليَّ مثلاً عندما اريد ان
احارب ان اذهب اولاً الى فينا ولكن حوادث الحرب تتغير
سريعًا ولا يقدر القائد ان يحصر نفسهُ ضمن دائرة ترتيب وحدود
معينة .. الثروة تطير كالبرق عند ضياع الفرصة فمن الواجب
على العاقل ان يقبض عليها من شعرها لانها لا ترجع). وذهب
سوفوروف ليستلم قيادة الجيوش النمسوية وجيش روزانبرغ
وكان عدد الجيش الروسي النمسوي مائة الف مقاتل . وعدد
الجيوش الفرنسوية نحو الثلاثين معها الفرق الايطالية واربعة
الاف من الفرق البولونية التي كانت تشخص العنصر السلافي
بالجيش الفرنسوي

وكانت العساكر النمسوية والالمانية تتاخر في سويسرا
اكثر مما تتقدم ولولا كثرتها ومعرفة الارشيدوق شارل بالمواقع
الحربية لانهزمت وقد حكى عنهُ كاتب حياة نابليون (انهُ كان من
القواد الذين يعرفون فنَّ القتال مثل بونابرت). وحكى عن
هذه الحرب ايضًا . حيث قال (اما الجنرال ماسينا فاستلم قيادة
الجيشين وقام بالاستعدادات اللازمة لمنع تقدم جيش النمسا
وتمكن من الاستيلاء على المراكز الموافقة لهُ في المانيا بالقرب من

الرين واخذ ينتظر وهو مطمأن حركات الارشيدوق شارل
اما حالة الجيوش الفرنسوية في ايطاليا فكانت رديئة لان الجنرال
سوفوروف الروسي كان قد تمكن من الانضمام الى جيش النمسا
واستلم قيادة الجيشين وكان عددهما نحو تسعين الف جندي
وكان القوم يلقبون سوفوروف بالمنصور وهم يعتقدون انهُ من
القواد الذين لا يكسرون والظروف مكنتهُ من الفوز على
الفرنسويين بسبب سوء تدبير الجنرال شرير . وعند ذلك
اعتزل الجنرال المذكور عن القيادة العامة في ايطاليا وسلمها
الى الجنرال مورو . انتهى) . وقد كبس سوفوروف ممر نهر
الادبج في كسَّانو وخرق قلب جيش مورو واحاط بجناحهِ
الايمن واسر في ٢٨ نيسان نحو ثلاثة الاف مقاتل . فانسحب
الجنرال مورو الى بيامون . ومن ثم وقع تحت الخطر بواسطة
اضمحلال ثيفا وتورين فالتزم ان يبحث على ملجاء في جبال
الالب . ودخل الجنرال سوفوروف الى ميلان فلوقي باحتفال
واكرام عظيمين من الشرفاء والرهبان والشعب المتطرف وكل
اعداء الثورة . وتسلى وهو مثقل عليهِ بتعليمات المجلس الحربي
في حصار مانتو واسكندرية (في اوربا) وقلعة تورين مع انهُ كان
يرغب في التضييق على مورو وابادة الخمسة عشر الف مقاتل

الباقية معهُ

فاسرع مكدونال بجيشهِ من نابلي بعد ان داوم على اتصال مراسلاتهِ مع مورو وعزم ان يلقي بنفسهِ بين اسكندرية ومانتو وان يفرق بين الجيشين العظيمين فضرب النمسويين على تيدون وقهرهم لكنهُ صادف سوفوروف على ترابيا فاقتتلا ودام القتال ثلاثة ايام اي من ١٧–١٩ حزيران (جون) وعناد الفرنسويين والروسيين والبولونيين جعلهُ دمويًا جدًا وفقد من الجيشين نحو عشرة الاف نفس واخيرًا انهزم الفرنسويون والتزم مكدونال ان يذهب الى شقوق جبال الالب لينضم الى الجنرال مورو. وطرد الحرس الفرنسوي من ارض البارتينوبيين واصيبت نابلي باضطراب مرعب حيث تلطخت ازقتها بالادمية واحرق اللصوص واللازارونيون نحو الفي بيت في تموز سنة ١٧٩٩ . ولما بلغ هذا الانتصار الحكومة الادارية في فرنسا اجتهدت في ان تعيد افتتاح ايطاليا فاقامت على جيش الالب الذي كان يبلغ عددهُ نحو ٤٠ الف مقاتل الجنرال جوبار وهو من الابطال الاشداء وكان قبل خروجهِ قال لعروسهِ الصبية عند وداعها اني ذاهب الى حرب الروسيين وانا متيقن كل التيقن انك لا تريني فيما بعد بل يبلغك خبر مصرعي

واذا سلمت فلا اكون الا مقصراً . ولم تتمكن جوبار وموروق من منع تقدم الجيوش الروسية والنمسوية ولكن كانا يتقهقران امامهما الى ان تمكن القائد الروسي سوفوروف من حصر مدن ايطاليا الحصينة والاستيلاء عليها ومنها مانتو وبشيارا وبيزكتون وقلعة ميلانو وقلعة تورين واسكندرية بيامونت وانضم جيش الجنرال وعدده عشرون الفاً الى جيش الجنرال سوفوروف وحاول جوبار الرجوع الى جبال ابنين ولكن سوفوروف مسك عليه الطريق والزمهُ ان يحاربهُ وصرف الفريقان تلك الليلة في الاستعداد للمحاربة في الصباح . وفي ١٥ آب (اوغسطوس) من تلك السنة انتشب القتال شديداً ومع ان الفرنسويين قاتلوا باقدام وبسالة لم يتمكنوا من النجاح واظهر الجنرال جوبار من الشجاعة ما لا مزيد عليهِ وكان يجول بين صفوف جنودهِ والكرات تتساقط حولهُ حتى اصابتهُ رصاصة فقتلتهُ وكان الجنرال مورو واقفاً بالقرب منهُ عندما قتل فاستلم قيادة الجيش واستانف القتال وقهقر النمسويين الى الوراء غير ان النمسويين والروسيين هجموا دفعة واحدة واطلقوا مدافعهم فتاكد موروق ان لا نجاة لهُ الا بالتقهقر وخسر الجيشان نحو ثمانية الاف رجل وسميت هذه المعركة باسم معركة نوفي . وفضلات الجيوش

الفرنسوية والبولونية انسحبت الى جبال جين وبهذا القتال
اضاع الفرنسويون تماماً ايطاليا والحكومات الثلاث

وبعد هذا الانتصار افترق النمسويون عن الروسيين وفوز
سوفوروف وغلبتهُ للاعداء القت بغضاً وحسداً في قلوب القواد
الالمان وتكدروا من اخذهِ الشهرة عليهم وكذلك تيكيت كان
غير راض من سياستهِ فاوعز بالانفصال عنهُ وهو كان يعلن
انهُ غلب لارضاء المتحدين جميعاً وليس لمطامع النمسا خصوصاً
واراد ان يقيم حكومة موقتة في بياموف ويصلح الجيش البياموني
تحت رايتهِ فزاد الخلاف وتفاقم النزاع فافضى الراي على ان
يترك سوفوروف ايطاليا ويذهب لينضم الى رمسكي كورشاكوف
في سويسرا زاعمين ان الجنود الروسية قادرة على احتمال البرد
اكثر من غيرها وانها تكون حرة اذ ذاك في هلفانيا . فسوفوروف
بعد ان كان عرف وخامة هذا الراي وتاكد انهُ اصبح على طريق
باريس قبل بترك مركزه والمسير الى سويسرا وترك ايطاليا متضجراً
من خيانة النمسويين واعمال المجلس الحربي

وبعد موقعة زوريخ الاولى في سويسرا انسحب الجنرال
ماسينا الى اعالي البيس وراء الخط الواقع عند لينت وبحيرة
زوريخ وليمات وحيث كان قد تعين على الارشيدوق شارل

ان يخلي سويسرا ليذهب الى حصار فيليبسبورغ ويقوم مقامه
سوفوروف ترك مراكزهُ وسار بجيشهِ فقبل ان يصل الجنرال المذكور
وترك هناك جيشاً يبلغ خمسين الفاً من الروسيين والنمسويين
فلحظة واحدة كافية في المواقع الحربية لان توخر في نجاح المنتصر
وهكذا كان الجنرال ماسينا ينتظر سنوح مثل هذه الفرصة
فالتهمها حالاً وسار بمقدمة ستين الف جندي فرنسوي وكبس
في ٢٥ ايلول ممر الليمات قرب دياتيكون وقسم المعسكر الروسي
الى قسمين وحاصر دياتيكون حصاراً مشدداً ودافع عنها الروسيون
ببسالة عظيمة وابوا ان يتخلوا عن غنيمتهم وقاتلوا قتالاً جسيماً
حتى فرغت ذخائرهم ومع ذلك امتنعوا ان يسلموا فقتلوا بصفوفهم
وانطرح كورشاكوف الى زوريخ واقفل ابوابها فتاثرهم ماسينا
وارسل اليهِ في الليل رسل الصلح فقتلوا بالرصاص . وفي اليوم
التابع امر كورشاكوف جيوشه وعددها ١٥ الف مقاتل ان
تجتمع الى بعضها على شكل قلعة وهاجم الفرنسويين بثبات عجيب
وقد قال الماجور ماسون (ان هذه الكومة الكثيفة الغير قابلة
الانخراق كانت ترجع العدو من كل مكان حات فيهِ وهي كالبناء
المرصوص) ومع ذلك فان كثرة الفرنسويين كانت تزعزع
اركانها بهجوم عام من الخيالة والمشاة فتفرق الروسيون الى زوريخ

تاركين ساحة القتال وقد تغطت بالقتلى والمجاريح التي كانت
تلاقي الموت بفرح معانقة الى صدرها الايقونات · وقد خسروا
نحو ستة الاف رجل وخزائن الجيش وهرب كورشاكوف الى
اكليزو وملك ماسينا كل ما كان للروسيين وهناك قتل
لافاتار الشهير وقد قتلهُ جندي سويسري سكران · وكان في
نفس اليوم الخامس والعشرين من ايلول قطع الجنرال سولت
لينث وضرب هوتز وظهر ان المتعاهدين كلهم معًا تقهقروا
بعدم ترتيب الى جهة شافهوز خاسرين عشرة الاف اسير ونحو
عشرين مدفعًا نمساويًا وكل المدفعين الروسيين تقريبًا

وهكذا كان انتصار زوريخ وقد فاز بهِ الفرنسويون من
عدم اعتناء النمسويين وجهلهم وترك المواقع الحربية قبل
الزمان الموافق لان سوفوروف كان يسير بجد ليدرك ساحة
القتال قبل فوات الوقت ولم يكن يخطر لهُ ان الارشيدوق
شارل يتخلى عن مركزه قبل ان يستلمهُ هو وعند وصوله
الى تافرنو بقرب بلنزونا طلب الى المعسكر النمسوي ان يقدم
الى مؤنهِ بغالاً وخيولاً لحملها اثناء مروره في جبال الالب
فامتنعوا ان يجيبوهُ الى طلبهِ · فالتزم بالرغم عنهُ ان يضيع
اربعة ايام ثمينة لاجل الحصول على دواب الحمل من تلك

النواحي . ووصل الى سن كوتار بعد ان لاقى صعوبات كثيرة ومقاومات خطيرة من الفرق الفرنسوية القائمة في المضايق وخلف القمم في الجبل المذكور واخيراً دخل في وادي روسو الضيق الواقع بين جبال شامخة . وقد كتب سوفوروف الى الامبراطور بولس بتعليماته قائلاً (ان هذه المملكة الاهمملكة رعب وخوف فاننا عند كل خطوة نتقدمها كنا نرى لججاً تنفتح امامنا كقبور على امل منها ان تضمنا والليالي المظلمة بالغيوم كانت تتهددنا باصوات الرعود المتواترة والمترادفة دون انقطاع وبنادق الافق ترمينا برصاص الامطار فتسقط علينا مخترقة كثافة الضباب والدوي متواصل ومتزايد من جرى تحدر الشلالات وتساقط الثلوج من الاعالي وتدحرج الصخور الكبيرة الضخمة التي عند وقوعها كانت تسحق الاشجار فتكسرها وتدفعها الى مسافة وطالما ذهبت السواقي بالرجال والخيول الى اللجج . وصعدنا كلنا من محلة صعبة على سن كوتار تلك البناية العظيمة التي تمر الغيوم من تحتها ولم يقف العدو قط امامنا وانهي كلامي بوصف كل المخاوف التي ذكرتها ان اقول ان العناية الالهية قد حفظتنا منها . انتهى) .

واعهد الجنرال ماسينا الى ليكورب ان يقف في طريق

الروسيين ويمنع تقدمهم وكان هذا القائد من اعند القواد فوعد ذاتهُ بانهُ يقوم بعملهِ هذا بجيشهِ الذي يبلغ ١ الفاً ويحصر سوفوروف في وسط الجبال فدافع في ممر رويس واطلق بكل مدافعهِ على الروسيين وقام بقتال متتابع حتى فقد كل مونتهِ واحتياجاتهِ فترك الممر المذكور وذهب بجيشهِ مبتعداً عن اعدائهِ واقام لحماية جسر الشيطان ومن ثم لغمهُ وسار الى سيدوروف ، وهدم جسرها . ولم يصل سوفوروف الى ميتانتهال الا متاخراً بعد ان قطع جبال شاشانتهال المرعبة وخسر نحو الفي رجل في الطريق . وهناك عرف بخراب زوريخ وهرب كورشاكوف فشعر بصعوبة مركزه وانهُ اصبح تائهاً في وسط جبال صعبة المسالك محاطاً بالمخاطر التي تركتها لهُ خيانة متعاهدي حكومتهِ او عدم انتباههم وهو محبوس في ميتانتهال وجيوش اعدائهِ تفوق جيشهُ بكثير وقد ربطوا عليهِ الطرقات . وكان يعلم ان القائد كيدن جاه فاشغل رويس على طريق كلاريس . غير ان هذا البطل الروسي فكر بحكمة للتخلص من بين اعدائهِ وقد قال احد المورخين الفرنسويين عنهُ (ان هذا الوقت هو من افضل اوقات حياة سوفوروف لان تقهقرهُ كبطل هو اعجب واكثر اندهاشاً من انتصاراتهِ المشهورة في ايطاليا) . وما من

قائد وقع باليأس والقنوط وصعوبة المركز وقدر على التخلص متغلبًا باقدامهِ على كل الموانع كهذا القائد الشيخ الذي تجاوز السبعين . فقطع الجبل ماشٍ على علو ٧٥ سنتيمترًا من الثلج المتراكم وجعل مخرجهُ من كلينتهال وطريق كلاريس وترك في موخرتهِ حرس جيشهِ فاوقف مسير الجنرال ماسينا مدة ثلاثة ايام بينما كانت طليعة الجيش تستولي على كلاريس وتطرد موليتور الى نايفالس وهناك وقف موليتور في وجه الروسيين فالتزموا ان يجتازوا من ديتسكويف وقد خسروا بالثلوج ميئين من الرجال . ومن هناك تمكنوا من ان يصلوا الى بلانز وكوار وفلد كيرس وذهب سوفوروف بعد ان تخلص من ايدي اعدائهِ ليصرف فصل الشتاء بين ايللر وليخ

واما العساكر الروسية التي كانت في هولاندا تحت قيادة الجنرال هرمن وهي منضمة الى الجيوش الانكليزية فضربت الفرنسويين في ١٦ ايلول عند برجن وفي اليوم الثاني من تشرين الاول فشلوا والتزم الدوق دي يورك الانكليزي قائد الجيش العام هناك ان يسلم بصلح ١٨ تشرين اول وعليهِ فقد رجع الجيش الروسي مع الجيوش الانكليزية بعد ان أُسر منهُ اكثر من عشرة الاف اسير وقتل وجرح كثيرون منهم فعاملهم

الانكليز ببرودة ووضعوهم في جزائر كرنزي وجرسي وهكذا كان ماسينا قائد الجيوش في ايطاليا وبورين في هولاندا اضعفوا من قوات المتعاهدين وقرروا راحة الحدود . وكان في الجيوش الانكليزية والنمساوية كثيرون من الاسارى الفرنسويين واما بونابرت الذي كان قد عاد حينئذٍ من مصر وسورية لقلب الحكومة الادارية في فرنسا واقلاع جرثومة الفتن فقد طلب الى النمسا ان تسلمهُ عشرة الاف اسير فرنسوي فيطلق مقابلها اسارى الروسيين فامتنعت وقالت انها لا ترغب ان تبدل اسراها الا بالنمساويين الماسورين عند فرنسا . ومن ثم طلب الى الانكليز ان يبدلوهم فاجابوا ان بدل اسراهم باسرى غير انكليز مضاد لمباديهم ولا يخفى ما في جواب كلتا الدولتين من حب الذات والخطاء . فقال بونابرت للانكليز هل تمتنعين عن تخليص الروسيين الذين ساعدوك في الحرب وكانوا يقاتلون في صفوف جيشك تحت قيادة جنرالك الدوق اوف يورك . وقال لحكومة النمسا هل تتقاعدين عن خلاص الرجال الذين مكنوك من الفوز ونصروك في ايطاليا وتركوا في اسرك عدداً غفيراً من الفرنسويين فهم شجعان وانا سارجعهم الى امبراطور روسيا بلا بدل ليوكد اني اعتبر الشجعان وامر على

الفور برد سيوف الضباط الروسيين وبجمع الاسرى المذكورين في اكس لاشابل وعددهم عشرة الاف نفس . فالبسهم جميعًا ملابس جديدة على نسق ملابس الفرق الروسية التي اخذوا منها وقلدهم اسلحة من احسن الاسلحة الفرنسوية وامر ضباطهم ان ينظموهم جيوشًا وفرقًا ومن ثم سمح لهم بالرجوع الى صفوفهم الجرارة التي كانت مجتمعة عند حدود فرنسا لتهاجمها وتسلب راحتها . ولما بلغ الامبراطور بولس فعل بونابرت تعجب من شهامتهِ وحسن تصرفهِ بقدر ما تكدر من دولتي النمسا وانكلترا وحبهما للذات وبادر حالاً الى الانفصال عن الاتحاد معهما واقام بينهُ وبين نابوليون موادة صادقة . وكتب اليهِ بخط يدهِ ما ياتي (ايها القنصل الاول . اني لا اكتب اليك للبحث عن حقوق الرجال والاهالي فيحق لكل بلد ان تقيم لنفسها الحكومة التي توافقها ولكن حين ارى رجلاً رئيس امة عارفًا بان يسوس ويحارب يجذب قلبي اليهِ . فقد كتبت اليك لاخبرك باني تكدرت من انكلترا التي تتعدى على القوانين الدولية ولا تنقاد الاَّ الى حبها الذاتي وصوالحها فاروم الاتحاد معك لاقطع الاجراءات غير العادلة التي تجريها تلك الحكومة . انتهى) . وهكذا انفصلت روسيا عن

الاتحاد مع الدول التي كانت تحارب فرنسا وارسلت سفيرًا الى برلين واعترفت بالحكومة الجديدة اي حكومة بونابرت

جمعية المتعاهدين والبحث ضد الهند

ولم يكن الامبراطور بولس وحده المتكدر من اعمال النمسا بل سوفوروف وكل روسيا تقريبًا وقد اتهموها بالخيانة ضدهم ولذلك اجتهد الامبراطور فرنسوا النمساوي بايعاز انكلترا ان يقنع روسيا ويبرر قواده من ارتكاب مثل هذه الخيانة التي اضاعت معسكر كورتشاكوف. واوشكت ان تضيع سوفوروف وجيشهُ ونسبت ذلك الى سوء المفهومية. فلم تصدق روسيا مثل هذا الاعتذار وقام لديها على صحتهِ الف شاهد واخلص بولس الود لفرنسا وشعر عن حكمة بطيبة قلب نابليون وادرك سوء مقاصد انكلترا واهتمامها باحباط مساعي القنصل الاول واظهر كدرهُ وغيظهُ من ظلم انكلترا البحري حيث كانت اشهرت ان مرافئ البلاد الفرنسوية ومرافئ متعاهديها تحت الحصر واراد تجديد المعاهدة المتعلقة بوجوب امنية البحار ودعا الى الاتحاد معهُ بروسيا واسوج والدانمرك. واول من وقع على هذه المطالب الروسية بونابرت غير ان انكلترا كانت السائدة في البحار فلم تراعِ مطالب الدول في جنب صوالحها. وحينئذٍ ذهب الجنرال

سرانجتبورتن ليرجع بالعساكر الماسورة التي اطلقها نابليون وتبعهُ كوليتشوف بخطة سياسية من قبل سيده ليعرض على بونابرت خلوص روسيا ويسالهُ ان ياخذ لنفسهِ لقب ملك وان يحصر ارث العرش بعائلتهِ ليكون ذلك وسيلة عظيمة لردع المبادي العدوانية التي حملت اوربا لاجلها السلاح ضد فرنسا وعلى هذا اجاب القنصل الاول هذا الطلب بالشكر والامتنان وفتحت طرق المراسلات بين العاصمتين على الاسس الاتية ·

(على فرنسا ان تحترم استقلال نابلي وورتمبرغ وان تهب كغرامة بعض قطيعات لملك سردينيا وان تحفظ لنفسها الضفة الشمالية من الرين وان تتحد وروسيا على تعويض الاضرار اللاحقة بالامراء المخلوعين) ومن ثم اخذ بولس ينجذب يومًا بعد يوم باكثر رغبةٍ الى محبة نابليون وقد علق صورهُ في جدران قصره وسائر محلات جلوسهِ وكان يشرب علنًا بصحتهِ · وقد طلب بعنف الى لويس الثامن عشر ان يترك ميتو

وهذه المحبة والمودة بين كل من بولس ونابليون قادتهما الى التعاهد على موضوع عظيم جدًا وهو قلب الحكومة الانكليزية الهندية قلبًا تامًا ومع ان فرنسا كانت لاتزال تشغل مصر وتحرس الشطوط الجنوبية من مملكة نابلي كانت تهتم لان تدخل الممالك

الهندية والبلاد العربية مع الجيوش الروسية ولكي يبرهن الامبراطور بولس لنابليون عن صدق نيتهِ ادخل جيوشهُ الى القوقاس واجاب طلب ابن هيراقليس بانضمام الكرج الى مملكتهِ وعين للحملة الهندية طريقين تسير عليهما ارساليتان الاولى روسية وعليها كنورنغ وتعين لهُ ان يمشي من كياف وبخارا على الانديس الاعلى واتامان واصحبهُ برسالات الى قوزاق الدون وامرهُ بالحركة من اورانبورغ واعداً اياه بكل ثروات الهند . واوصاه ان يعلن في كل مكان يجتازه في طريقهِ للحكومات الوطنية ان روسيا بسلام مع كل الشعوب وبعدوان مع الانكليز التي ترغب في ان تضحي صوالح العالم كافة لحفظ صوالحها الذاتية . والثانية فرنسوية تتالف من ٣٥ الف جندي تحت قيادة الجنرال ماسينا تسافر من شطوط الرين وتركب عند مخرج الدانوب المراكب الروسية الى تاكانروغ ومن ثم تصعد الدون الى حد بياتي ايسبيانكايا وتقطع الفولغا في تساريتسين وتنزلهُ الى حد استراخان ومن هناك تقطع بحر الخزر على المراكب الروسية الى استراباد على الشط الايراني حيث ينتظرها هناك الجيش الروسي وعدده ٣٥ الفاً ومن ثم يسير الجيشان معاً من هرات وكندهار على الانديس الاعلى وتباشر الحرب وافتتاح الهند الانكليزية وكان بحسب تعديل

بونابرت ان الجيش بمدة عشرين يوماً يصل الى الدانوب وخمسة وخمسين يوماً الى استراباد وخمسة واربعين يوماً الى الانديس فيصل بنحو مئة وعشرين يوماً من ضفات الرين الى السند وتعين ليرافق هذا الجيش صانعو بالونات واصحاب مهن وجوق من العلماء . وعلى الحكومة الفرنسوية استصحاب اشياء ثمينة ومبهجة من اعمال فرنسا الوطنية لتفرَّق بالوقت المناسب على امراء تلك النواحي . وكان الامبراطور بولس يجهد نفسهُ ليضم اليهِ امبراطور بروسيا ويحملهُ على قطع العلائق مع الانكليز كغيره من الدول التي اجابتهُ الى ذلك وهذا الاتحاد الدولي اضرَّ جداً بالمصالح الانكليزية غير ان السعد الذي يخدم نابليون اوانئذٍ او بالحرى الذي كان عين ليخدمهُ مدة غير طويلة لم يقبل ان يقرر لحياتهِ الاخيرة راحة ولم يرضَ بان يطيل عمر الامبراطور بولس الاول بل حادث فوق العادة وهو ذبح هذا الامبراطور مزق تلك المعاهدة وهدم اسسها وذلك في ٥ اذار (مارس) سنة ١٨٠١

والسبب في ذبحهِ هو انهُ كان قد تكلم مراراً بكلام مهين ضد ابنهِ البكر اسكندر وزوجتهِ فكانا يكرهان اعمالهُ ويضادان مبادئهُ وانضم اليهما جمهور عظيم من الامراء والفلاحين كانوا يجتمعون معاً على الدوام ويتخابرون بشان تقلب الامبراطور

وتلونهِ لانهُ كان اولاً يحب السلام ويكره الحروب ثم ما لبث
ان اظهر كل اميالهِ الى الاتحاد مع الدول ضد فرنسا وبعدئذ
تمسك بموادة نابليون ضد انكلترا وانهُ ايضاً غيَّر نظام الخلافة
عند جلوسهِ على العرش وبعد ذلك عمل على الرجوع عنهُ
الى غير ذلك · ولم يكن هذا كافٍ لايقاع عمل فظيع في البلاط
الروسي مثل هذا العمل الاَّ ان اولئك القوم كانوا قد اعتادوا
على الثورات ومعاندة ملوكهم والايقاع بهم ومن تتبع هذا التاريخ
من حين قيام هذه العائلة الى يومنا هذا يرى ان ما من ملك
سلم من المخاصمات والمنازعات الداخلية حتى ان بطرس الكبير
وكاترينا الثانية العظيمة لاقيا كثيراً من المصاعب والمضادات
غير انهما اقشعا غيوم الفتن وتغلبا على المصاعب بما اعطيا من
الحكمة والاقدام والاصابات نفسها التي كانت محبوبة من
رعاياها اكثر من غيرها ولا سيما عند قيامها على العرش ظهر ان
ايام ملكها لم تسلم من الاضطراب فكانهُ قد فرض على الروسيين
القيام على ملوكهم واحداث الفتن الداخلية على الدوام · وكانوا
في بادئ بدء يقررون وجوب نزع التاج عن بولس ووضعهِ
على راس ابنهِ اسكندر الاول · وكان بانين الذي ارسل قديماً
الى برلين يهتم باجراء هذا العمل واتمامهِ بهمة ونشاط وهو على

الدوام ينهض همة اسكندر ويهون عليه مثل هذا الامر واخيرًا
نزع من قلبهِ كل المخاوف وحركهُ لان يقدم على مثل هذا
الامر الخطير الذي كان في اعينهم سهلاً جدًّا ومثل بانين هذا
كان الكونت باهلين احد شرفاء ليفونيا وهذا كان روح
المؤامرة فمركزهُ المهم وخطتهُ العالية ساعداهُ على القيام بها
بنجاح واطمئنان لانهُ كان حاكم العاصمة ووكيل نظارة البوليس
وكان يتظاهر بخدمة الامبراطور بولس مظاهرة جدية ويقف في
سبيل كل ما يجعلهُ ان يعرف بوقوع هذه الفتنة وكان يزيل
من راسهِ الشكوك التي كان يلحظ منها سوء نية احد المتآمرين
الى ان قرب الزمان المناسب لمثل هذا العمل وثبت للامبراطور
اجراء مؤامرة سرية ضدهُ . فاجتمع ذات يوم بهِ وقال لهُ اتتذكر
ياباهلين ما جرى في سنة ١٧٦٢ من الفتنة . قال اتذكر ياسيدي
لاني كنت اوائذٍ قائد عشرة بالحرس . فدفع اليهِ الامبراطور
رسالة ضدهُ وقف عليها وقال لهُ انهم يريدون الان ان يعيدوا
ذاك الزمان . فاجاب اني سمعت بمثل ذلك ولكي اعرف غايات
اعدائك واسبر كل اعمالهم التزمت ان اتظاهر كاني روح
الفتن فيركنون ويطمأنون

وعلى رواية سابلوكوف ان مهارة باهلين وتصرفهُ كانا

يقومان باجراء اوامر الامبراطور نفسه فكان يزيد عدد المفتنين واذا سمع احداً يشكو من بولس ينظر في وجهه و بين عينيه ويقول فقط «ج . . . ف . . . . ما يتكلمهُ الرجل الشجاع بجرى» . وكان يهيج غضب اسكندر ضد ابيـه . واكتسب باعماله انضمام تاليزين احد امراء فرقة بر بوراجنسكي وعدة شبان من ضباط الحرس . وكان اكثر القائمين بهذه الفتنة هم من الذين قاموا بالثورة ضد بطرس الثالث . وقد سال باهلين ذات مرة بانجكسين من هانوفر وهو احد روساء ذاك الاتحاد ضد الامبراطور . ماذا يحدث ياترى اذا كان الامبراطور يرفض التخلي عن العرش الروسي . فاجابهُ (لا يخفى انهُ يلزمْ تكسير البيض عند عمل العجة)

واغتنمت انكلترا هذه الفرصة لتقوية الاحزاب المضادين لسياسة الحكومة الحالية . ووافقها بلاتون زوبوف احد ندماء كاترينا الثانية وبعض البولونيين الذين كانوا يخافون رجوع بولس عن اسلاب البولونيين ولسوء حظ هذا الامبراطور كان قد عزل روستوبتشين وابعد اراكتشاف الكثير الطاعة والامانة . ثم شعر بسوء عمله واحتياجه اليهما فكتب يدعوهما اليه لكن بعد فوات الفرصة لانهُ وقع فعلاً تحت خطر اعدائه .

وفي ليل اليوم الثالث والعشرين من اذار (مارس) كان يحيط القصر حرس سمينوفسكي واكثر ضباطهم من المشتركين بهذه الفتنة وكان بولس داخل القصر ينتظر بان يسلمهُ باهلين كل اعدائهِ فادخلهم عليهِ ودنا بنيكسان منهُ وقدم لهُ قانون تخليهِ عن العرش وطلب اليهِ ان يوقع عليهِ فامتنع فقصدوا اجبارهُ وقصد الدفاع عن نفسهِ واشتد العراك قوياً وسقط المصباح الذي كان ينير الغرفة فاظلمت ووقع الامبراطور بولس تحت ارجل اولئك الظالمين القساة وسحق بضربة من نقولا زوبوف وقيل من الامير باشفيل

وعند الصباح دعى ولدهُ اسكندر ليجلس على التخت الروسي ولم يقدر ان يضبط نفسهُ عن التاثير من هكذا امر مرعب فحزن مستقبحاً هذا العمل . ونال الفرح اشدهُ في انكلترا والحزن اعظمهُ في فرنسا ونظر بونابرت الى سقوط امبراطور روسيا بكدر وشعر بان هذا السقوط يضر بحكومتهِ كثيراً او يؤخر انفاذ مقاصدهِ وقد قال . ان التاريخ سيوضح سر هذا الموت المحزن ويظهر للعالم نتيجة مهمة جاء بها هذا التغيير العجيب . انتهى .

الفصل السابع

اسكندر الاول وحربهُ الاولى مع نابليون . وقائع اوسترليتس وايلو وفريدلند ومعاهدة تيلسيت

حال جلوس هذا الامبراطور الجديد ابتدأ بسياسة جديدة مناقضة لسياسة ابيهِ فبعث برسالة الى جورج ملك الانكليز ما لها انهُ يرغب في مصالحتهِ ومحالفتهِ . وامر برفع الحجز عن المراكب الانكليزية وبان تطلق حرية الملاحين الاسارى ودعا الاميرال باركر بان يكف تعدياتهِ عن الدانمرك . فهذا السلوك اظهر خراب جمعية المتحايدين . وفي ١٧ تموز (جوليه) من سنة ١٨٠١ توسط على صك التحكيم التي بهِ كانت انكلترا تؤذن بان الحصار لكي يكون اجبارياً يجب ان يكون فعلياً وترفض زيارة المراكب الحربية . واما غاية الامبراطور الجديد فكانت ان العلم لا يحمي البضائع وان لا حق للمراكب الحربية بمنع الزيارة ولا بمسك المراكب التجارية . وان ترجع الى اسوج الجزائر التي اخذت منها وعليهِ عقد صلح بين اسوج والدانمرك وبين انكلترا قبل ان يتم ترتيب المواقع المختلف عليها

وكان الامبراطور اسكندر يتظاهر بانهُ يرغب بمسالمة

فرنسا والاتحاد معها وامر الكونت ماركوف ان يداوم في باريس المخابرات التي كان قد ابتدأ بها كوتيشوف . ففي زمن بولس الاول كان بونابرت يوكد بان الاتحاد ثابت متين ويرى ان الاحوال جارية بسرعة على طريقة مرضية لهُ ولدولتهِ فعزم ان يتخذهُ كسلاح قاطع مميت ضد انكلترا ليهدم بهِ عظمتها . لكن في هذه المرة كان يدرك بحذقهِ ان التعليمات التي كانت ترد على ماركوف من اسكندر تحذرهُ من التطرف معهُ فاغاظهُ ذلك وشعر بانهُ يريد بذلك اكتساب الوقت لتقرّر المعاهدات بينهُ وبين الدول

ومع ذلك فان بونابرت اظهر مودتهُ لاسكندر واقام مقامهُ عند تتويجهِ دويورك وقبل بكل اعتبار واحترام الكونت ماركوف وابان لهُ شدة ميلهِ للامبراطور الجديد لكنهُ اوضح لهُ ان الحالة بين الدولتين لا تبقى كما كانت وان لاحق لروسيا ان تطلب من فرنسا ما تعهدت بهِ لاجل حملة الهند وقال لهُ . ان افكار بولس الاول العظيمة الموافقة لسياسة فرنسا كانت كريمة بهذا المقدار فكنت ارى من نفسي اني ملزوم بان اكون كقائم مقام في جيشهِ . انتهى . وتضجر كون روسيا كانت تبحث عن كل مسئلة طفيفة تجريها الحكومة الفرنسوية وان المراد معاملتها

كجمهورية غير مستقلة

وعضد اسكندر مطالب ملك سردينيا باتفاق مع انكلترا وعينت لجنة دولية لتقرير السلام في اوربا ومع ان انكلترا كانت تضاد بونابرت مضادة غير متناهية كان معتمدها كورنوالس يرغب فيهِ ويحب نابليون وكانت حكومتهُ قد اوصتهُ بان لا يهتم بالمسائل الاجنبية في جنب الفوائد البريطانية · وفي ٨ تشرين الاول (اكتوبر) وقع على معاهدة بين روسيا وفرنسا وفي اليوم الحادي عشر انتهى اتفاق سري على الشروط الاتية · اولاً · على الدولتين ان تتعاضدا لاجل تعويض الاضرار التي لحقت بجرمانيا المتفق عليها في صلح لينغفيل · ثانياً · يتفق على تقرير احوال ابطاليا وترتيب اعمالها · ثالثاً · تتوسط روسيا بالصلح بين كل من الباب العالي وفرنسا · رابعاً · على فرنسا ان تخرج عساكرها من نابلي ومن مصر · خامساً . يعوض على ملك سردينيا بحسب المواقع الحالية . سادساً . يعوض بما يوافق على سادات بافاريا وويرتمبرج وباد . سابعاً . استقلال الجزائر البونية

فهذه المعاهدة تبعت صلح لينغفيل بين فرنسا والنمسا وسهلت صلح اميان بين انكلترا وفرنسا وقررت حق السيادة

بتدبير مهام العالم الى روسيا وفرنسا · وهذه الاصول هي التي
كان يتمنى بولس الاول ان يقررها وكان بونابرت حبًا بهِ يريد
ان يتخلى عن بيامون ونابلي وايطاليا غير ان بولس المومأ اليهِ
كان يحارب لاجل حرية البحار وكان يتهدد انكلترا في البلطيك
وفي الهند ويجتهد باخذ الثار الفرنسوي منها . وبالعكس كان
اول عمل من اسكندر ترك متعاهديهِ ومصالحة انكلترا . وكان
من غاية بونابرت اعاضة الاضرار الى جرمانيا وكان طبعًا
يرغب في توسيع املاك العيال في بافاريا وويرتمبرج وباد
ودارمستاد المتقربين من العائلة الروسية ارضاء لخاطر اسكندر
الاول وعلى الاخص انهُ كان يريد ان يكافيهم على امانتهم
بالاتحاد الفرنسوي وكان يعتقد ان بذلك تمتد سلطة فرنسا
على شط الرين الايمن لاسلطة روسيا · وسيرى ذلك في سنة
١٨٠٥ حيث اسرع كل الامراء الجرمانيين الى محالفة فرنسا
وعقد معاهدة الرين · ولم يكن اسكندر راضيًا من بونابرت
وان كان قد عاقدهُ على السلام لانهُ كان يراهُ راغبًا بالانفراد
بترتيب احوال العالم وحده وسفيرهُ ماركوف يُعامل ببرود
وقلة ملاطفة ولا سيما ان في ايطاليا كانت مصلحة ملك سردينيا
وتعويض اضرارهِ تتاخر وتمتد وبونابرت يتعلل بذلك وفي

١١ ايلول (سبتمبر) لفظ بوجوب ضم بيامون الى فرنسا وكان يرفض دائماً ان يعين التعويض الذي وعد بهِ مع انهُ في الاول كان عرض ان يضم اليهِ بارم وبليزانس فاعطاها الى ابن ملك اسبانيا واراد ان يقدم فقط سيان واوربيتلو وخمسمائة الف ليره وهو يقول · بقدر ما يراد دراهم ابذل ولكن لا شيء زيادة عن ذلك وهذه المصلحة لا يجب ان تهم الامبراطور اسكندر اكثر مما تهمني · واما في سويسرا فهلفانيا التي كان سوفوروف طافها باجمعها منتصراً انفذ بونابرت سلطتهُ فيها وقبل منها لفظة (مصلح) واشغل المحلات المضطربة من جرى عدم الاتفاق واما صلح اميان بين فرنسا وانكلترا فقد ضعف وكاد يفسخ وخاف اسكندر على ضياع مصالح نابلي وهانوفر من فرنسا وما لبثت ان تحققت تلك المخاوف بحرب بين فرنسا وانكلترا وتقدم الفرنسويون من الالب اذ كان لا يمكنهم ان يهملوا مواقع مهمة كتلك فكوفيون وسن وسير اشغلوا تارنت ومورتيه هجم على هانوفر وعقد قرضاً في هامبورغ وكذلك توسكانيا وهولاندا تدرعنا بجيوش فرنسوية (في حزيران (جون) وتموز (جوليه) سنة ١٨٠٢)

واما سياسة ماركوف في باريس فكانت قليلة النجاح

وكان كغيره من اعيان الروسيين يكره في حكومة فرنسا الجديدة وفي بونابرت ويميل الى المهاجرين وحالما كانت المكائد البوربونية تحيط بالقنصل الاول كان يظهر ذاتهُ كمسرور ويتطرف بالكبر والعناد ضد البلاط القنصلي . وعند موت الجنرال كيلرك ابن عم نابليون لبس الحداد كل الجوق السياسي في فرنسا ما عدا ماركوف فانهُ خالف ذلك . ومسكت رسائل قدح ضد الحكومة وجد اسمهُ في راس قائمة الموقعين عليها وعندما سئل عن ذلك اجاب (ان الامبراطور اسكندر يرغب في هذا ومثلهُ الطائفة الروسية) . وامتنع الامبراطور اسكندر عن فصلهِ من فرنسا بالرغم عن الحاح تاليران الذي قال عند وقوع الحرب مع انكلترا (ان وجود رجل في فرنسا كماركوف ذي مركز اولي ونية رديئة مضرٌ جدًا ومكروه من بونابرت) وكان بونابرت يتشكى من عمل المهاجرين الفرنسويين حيث كانت روسيا تعضد دسائسهم وهم كريستين كاتم اسرار كالون القديم في باريس وفرناك في روميه وانتراك في درست . وبعد وقوع قلائل واضطرابات سياسية وحدوث اختلافات قطعية ما عاد ظهر ماركوف في قصر التويلري وطلب اخيرًا الى روسيا وو كل مكانهُ اوبريل وهذا ايضًا لم يرضِ الحكومة الفرنسوية ولا خفف

من الاضطراب الداخلي بين الحكومتين

وما زاد تثقيل العلائق بين الدولتين اخذ الدوق دي انجيان وقتلهُ . ووصل خبر هذا الحادث المحزن عشية يوم اخنص للاجتماع بالمخابرات وقبول الاتحاد الدولي وعليهِ مرَّ الامبراطور اسكندر بالقرب من سفير فرنسا وعليهِ ملابس الحداد ومن خلفهِ اهل البلاط ولم يتلفظ بكلمةٍ . واظهر نفسهُ باللقب الذي اعطي لهُ في معاهدة تشن من انهُ كفيل الحكومة الجرمانية وسلم مجمع راتيسبون لائحة بادعائهِ واسرعت اسوج وانكلترا الى عضدها . وكذلك اوبريل قدم الى نابليون لائحة يقاوم بها مقاصد الحكومة الفرنسوية واختلاسها حقوق العالم واكتسابها لبعض اراضٍ متحائدة . فاجاب نابليون على الفور بصفة رسمية متشكيًا من الدعاوى الباطلة التي تختلقها روسيا ضدهُ ومن سوء مقاصد وكلائهِ السياسيين ومن الدسائس التي كانوا يدسونها بحمايتهم للمهاجرين في كل مكان واشهر ان حادثة تتانهام كانت من الحكومة على سبيل المحاماة عن نفسها . وبعد مبادلات تشكيات ودعاوٍ ولوائح اعتراضات ظلب الوكلاء السياسيون وفسخت العلاقات السياسية

وكان بونابرت في تلك الاثناء قد سمي امبراطوراً على فرنسا ولبس في ميلان تاج ايطاليا واضاف للارض الفرنسوية جان وغيّر قوانين هولاندا وتهدد انكلترا بعساكر من بولونيا فكل هذا دعا الدول الى تاليف معاهدة دفاع وهجوم ضده فسافر نوفوسيلتوف احد وزراء الاسكندر المحبوب منه الى لوندرا بتعليمات من ما لها ان يوخذ من الفرنسويين المتظاهرين بحماية الحرية هذا السلاح المخطر عندما ينتشر بين العالم وان يعطى للشعوب المضطربة مثالاً حسناً باقامة ملك سردينيا وبارجاع الحرية الى سويسرا وهولاندا بان يقيموا حكومات باختيارهم وان يشهر بين الشعب الفرنسوي ان الحرب ضد حكومتهم فقط وليس ضدهم وان الدول تعرف انها ثقيلة عليهم . وكان ايضاً من جملة تلك التعليمات ان اسكندر قصد اهاجة اوربا معتمداً على الحدود الطبيعية والطوائف والجبال وزيادة عن ذلك رتب تقسيم المملكة العثمانية على الحالة التي يمتنع عليها فيما بعد البقاء في موقع اوربا الاصلي . فمجلس بريطانيا قبل ببرود هذه التعليمات ولكنه عقد معاهدة اعانة وهي ان تقدم انكلترا مليون ومائتي الف ليره انكليزية عن كل سنة لاجل مائة الف جندي تضعهم روسيا تحت السلاح

ودخل بهذا الاتفاق كل من دولتي اسوج ونابلي وكانت النمسا قد ضربت بافاريا حليفة نابليون ووضعت رجلها في هذه المحالفة ولكي يطمئن الامبراطور اسكندر من جهة فردريك غيليوم الثالث حيث كان عمل على معاهدة الدولتين فرنسا وروسيا جرب لان يجذبهُ اليهِ ويحملهُ على الحرب فاشهران جيوشهُ مزمعة ان تقطع سيلازيا وبومبرانيا . فامتنع فردريك وجمع جيوشهُ واعلن اولاً انهُ يحافظ على الحيادة غير ان اختلاس الفرنساويين لاراضي انسباخ وبيريت والحاحات زوجتهِ غيَّر افكارهُ واجتمع مع اسكندر بحضور زوجتهِ على قبر فردريك الكبير ومن ثم التزمت بروسيا بان تتعهد بتقديم ثمانين الف مقاتل اجابة للاتفاق الدولي اذا امتنع نابليون عن موافقة شروطهِ وكانت تحوى تلك الشروط استقلال المانيا وايطاليا ودفع الغرامة لملك سردينيا . وحمل هذه الشروط الى نابليون هوكويتز

وعند اجراء هذه المخابرات كانت القوات الروسية قاصدة مواقع القتال ليضم بعضها الى جيوش النمسا الثلاثة (فالارشيدوق شارل كان في ايطاليا . والارشيدوق جان في تيرول . وماك والارشيدوق فرديناند في بافاريا) وعشرين الف روسي تحت

قيادة هاتولسكي تدرجوا لينضموا الى الاسوجيين وبحلوا جميعاً في سترالسند وعشرين الفاً أُخريقيدهم الجنرال سينيافين سارت لتنضم الى الانكليز وتنزل على نابلي وعدا عن الجنود الموكلة بحفظ حدود الدولة العلية وبروسيا كانت تجمع في مورافيا تحت اوامر بيكسهورن والامبراطور اسكندر الاول قوات عظيمة . وكان حول الامبراطور وزراؤهُ الثلاثة وهم سزارتوريسكي وتوفوسيلنسرن وسزكونوف وكل الحرس الامبراطوري وحرس الخيالة وفرق باربوراجنسكي وسمينوفسكي وايسمايلوفسكي ونخبة جيشهِ وكوتوزوف بخمسة واربعين الف مقاتل اسرع الى نهر إين ليضم الى الجنرال ماك

ووصل كوتوزوف هذا الى برونو على نهر إين عندما علم بتسليم أُلم وتلاشي جيش ماك ورأى ذاتهُ حينئذٍ انهُ عرّض للخطر العظيم ببعدهِ مسافة عظيمة كهذه عن موقع الجيش الاصلي وكان تحت امرتهِ جيوش اعتادت القتال وثلاثة قواد من اشهر القواد الروسيين وهم باكراسيون احد ابطال حرب سنة ١٧٩٩ وتلميذ سوفوروف القائد المشهور ودوكتوروف رئيس جيش الرمانات الجسور وميلورادوفتش الملقب (بمراد الجيش الروسي) . وكان يقال عن الذين يتبعون هذا الاخير

(انهُ يجب ان يكون الذي يسير في جيش ميلورادوفتش حياة ثانية مهيئة ليستعملها عوض حياتهِ الاولى) . ولما رأى كوتوزوف ذاتهُ متهدداً خاف ان تسبقهُ على ضفة الطونه فرسان مورات فاجتاز الى الضفة الشمالية حيث كان اودينو ولان ومورتيه . وبعد معاركات دموية بينهُ وبين جيش اوردينو في لامباخ وامستاتان قطع الطونه عند كرمس وهجم على معسكر مورتيه في ديرنستات وصعد جهة الشمال لينضم الى الجيش الروسي العظيم . ولكن هجوم مورات ولان على جسر فينا اوقعهُ تحت الخطر ولاسيما اواسط جيشهِ الايمن حال رجوعهِ الى مورافيا ولكي يخلص معسكرهُ التزم ان يكرس مؤخرتهُ ووكل باكراسيون العنيد بتوقيف الفرنسويين فتحصن هذا في هولابرون وشنكراين ووصل مورات بالاول وحاول ان يطاول في المخابرات ليكسب الوقت الكافي لوصول الجنرال لان اليهِ وكانت الغاية نفسها غاية باكراسيون ليتمكن كوتوزوف من الفرار . فقبل رسل مورات وعرض عليهِ عقد هدنة باسم القيصر فاجابهُ ومضت عشرة ايام . ولما بلغ نابليون ذلك غضب وارسل اليهِ امراً بالهجوم وكان مع باكراسيون عشرة الاف مقاتل فقاتلت بثبات مدة ١٢ ساعة . وفي الليل رحل خاسراً الفي قتيل ومدافعهُ

باجمعها وعند وصولهِ الى كوتوزوف عانقهُ ومدح من بسالتهِ لانهُ خلصهُ وقال لهُ (انت عشت وهذا يكفيني)

وتم انضمام كوتوزوف الى بيكسهورن والنمسويين . وجمع نابليون في برون تحت امرتهِ سبعين الفًا وامبراطوري روسيا والنمسا ثمانين الفًا وكان الروسيون يفاخرون بانفسهم لانهم من ابسل البسلاء ويباهون بالمعارك التي اجراها كوتوزوف وباكراسيون ويتكلمون باحتقار عن النمسويين اذ انهم تركوا ذواتهم عرضة لزوابع الفرنسويين فاخذوا الم بسهولة كلية وكانوا يحتقرون ايضًا بونابرت الذي كان مديونًا بانتصاراتهِ السابقة لضعف وجهالة اخصامهِ . وارسل القيصر اسكندر اوانئذٍ البرنس الشاب دولغروكي حاملاً رسالة الى نابليون مآلها . انك اذا كنت ترغب في الصلح السريع فعليك ان تترك ايطاليا واذا غلبت فيصير من المتوجب عليك ان تتخلى ليس فقط عن الرين ولكن عن بيامون وسافوا والبلجيك . انتهى . وعند قراءة نابليون الرسالة صرخ قائلاً (ماذا . وبروكسل ايضًا) ثم صرف الرسول بعدم اكتراث وقال بعد ذهابهِ (ان اخصامي مجانين لانهم يطلبون ربحًا وهم يتقهقرون فماذا يفعلون بفرنسا لو غلبت)

وقد قال جير كيافيتش قائم مقام المدفعيين . من الصعب ان يتصور الانسان الحماسة التي دبت في دواخلنا كلنا عند رجوع دولغروكي والامر المضحك المستغرب اننا كنا نتكلم ونتوهم باننا ذاهبون الى باريس واننا في طريقها وجميعنا نمدح الشاب دولغروكي وعمرهُ اذ ذاك ٢٥ سنة فانهُ لم يرضَ بان يعترف بعنوان الرسالة بلقب امبراطور فرنسا بل سماهُ رئيس الامة الفرنسوية . وعندما وقف بين يديهِ لم ينزع برنيطتهُ عن راسهِ الاَّ انهُ بعد مضي ايام قليلة انقلبت كل امالنا وعلمنا صعوبة المركز الواقعين بهِ . انتهى) ووضع النمسويون رسماً لمواقع جديدة وعرضوها على الامبراطور اسكندر فاستحسنها . وهي ان براكسيون من اليمين يقاتل الجنرال لان وجيوش الحرس الامبراطوري تحفظ سهل براتزن ودوكتوروف وكوتوزوف وميلورادوفيتش ينزلوا الى وادي كولدباخ ليمنعوا نابليون من الرجوع وقطع الطونة ويطرحوهُ على جبال بوهيميا

وفي ليلة يوم المعركة كان الجميع يظنون ان نابليون يرحل منقهراً وقد امر دولغروكي الجيوش ان تنظر جيداً من اي جهة يرحل الفرنسويين . وفي صبيحة ٢ كانون الاول غطى وادي كولدباخ ضباب كثيف فكأن بحراً من الحليب تذهب روس

امواجهِ اشعة الشمس . وكان على اعالي براتزن من شرقي الوادي الامبراطوران المتعاهدان ومن الغرب على اعالي شلابانيز نابليون واقفاً يراقب حركات اعدائهِ ويرى بتمييز الصفوف الروسية تنحدر من سهل براتزن وتغيب تحت الضباب عند بحيرات سوكوليتز وساتشان وميتزايي من جهة اليمين وهو يسمع صوت عجلات المدافع فيدرك جهة مسيرها وسرَّ جدًّا عندما تاكد ان اعداءهُ يسيرون الى جهة المواقع التي تنبأ انهم يكونون بها وقد وضع لها رسماً بحذقهِ وعندما صار اواسط الجيش الروسي في سهل براتزن اشار الى جيوشهِ بالهجوم وفي نحو عشرين دقيقة تسلق الجنرال سولت تلك السفوح وانحدر على كوتوزوف وميلورادوفيتش حيث كانت جيوشهما لا تزال في السهل واشتبك القتال عظيماً وامتزج دخان البارود بكثافة الضباب فتغطى المتقاتلان بضبابين كثيفين بالكاد كانت تقدران تخترق جوفيهما انوار الكرات المندفعة لتنظر لها طريقاً وتعرف مكان وقوعها وكانت الحرب انتشبت في كل ناحية وابرقت وارعدت من الجهات الاربع وكان الامبراطور اسكندر في وسط جيوشهِ وقطع الحديد والرصاص المنبعثة من الاعداء تتساقط حواليهِ ودوي المدافع يقرع اذانهُ بشدة والكرات تخذف

من فوق راسهِ فخاف عليهِ فوادهُ وطلبوا اليهِ ان ينقهقر الى الوراء
فانسحب محاطاً بطبيبهِ وقائد مائة وجنديين من القوزاق. واجتهد
ابن القيصر قسطنطين ان يدفع بفرسان الحرس فرسان مورات
فاختلطا ببعضهما وتقاتلا على ظهور الخيول. وكان باكراسيون
في موخرة يمين الروسيين فجعل يضرب وهو ينقهقر امام الجنرال
لان. وفي شمالهِ كانت صفوف دوكتوروف ولانجرون تتاخر
متمسكة بنسيج البحيرات واجتازوا عند الصباح بمعسكر دافوست
وحينئذٍ فاجئتهم بغتة الجيوش الفرنسوية المنتصرة وهي راجعة
من سهل براتزن فتجدد القتال المخيف هناك مدة ساعات ثم
تقهقر الروسيون بترتيب واجتازوا الجليد فوقعت كرة فرنسوية
على الجليد ففتحتهُ وسقط من عليهِ الى العمق فغرق نحو الفي نفس
وقد حمى دوكتوروف التقهقر باطلاق القنابر والقتال المتتابع.
وقد قال دوماس. لايقدر الانسان عند نهاية معركة خسرها
ان يصنع اعظم مما عملهُ الروسيون

وهكذا كانت نهاية تلك المعارك وقد انسحب الروسيون
الى اوسترلتس بعد ان خسروا وحدهم بدون التكلم عن خسائر
النمسويين ٢١ الفاً و١٣٣ مدفعاً وثلاثين علماً واشتد حنقهم
من متعاهديهم ونسبوا اليهم التقصير وتذكروا واقعة زوريخ

حيث اتهموهم بالخيانة وقد اصابوا بلومهم النمسويين لانهم هم
الذين وضعوا رسم هذه المعارك ولا سيما انهم يقاتلون في بلادهم
على اراضٍ درسوها وتمرنوا تكراراً في مواقعها وطرقاتها فكان
من اللازم ان يحسنوا تعيين المراكز الحربية وان يعرفوا قوة
الحصون والمدن . وقد كتب دولغوروكي برسالة الى الامبراطور .
انهم (اي النمسويين) قد جاءوا بجيش جلالتكم ليسلموه الى
العدو اكثر مما جاءوا بهِ للمحاربة واني اقدم لكم برهاناً على ذلك
ان كل مقاصدنا وتدابيرنا يعرفها الفرنسويون حالاً . وقال
روستوبتشين . ان الخيانة موكدة من محالفينا لان الرسم عرفهُ
بونابرت قبل الاجراء بثماني واربعين ساعة وقد هجم قبل
انبثاق الفجر وعند الابتداء بالقتال حمل نصف النمسويين
السلاح والنصف الآخر ذهب الى العدو وبعضهم ضربوا على
عساكرنا . انتهى

وفي اليوم الرابع من الشهر المذكور اجتمع امبراطور النمسا
وبونابرت وعقدا صلحاً شفاهياً وتعهد الاول بان جيوش حليفهِ
اسكندر ترحل بالتدريج الى بلادها باوقات يعينها نابليون
دون ان تضر بجيشهِ . وفي اليوم السادس والعشرين وقّع
على معاهدة صلح ومن شروطها ان يتخلى فرنسوا الثاني عن

فينيتي والتيرول . وخلع ملك نابلي وقام مكانهُ جوزف
وزادت مملكتهُ بضم فينيتي . وصار القائد مورات دوق بورغ
الاعظم وقد تقوى امراء بافاريا وويرتمبرغ وباد من اسلاب
النمسويين ولقبوا بالقاب ملوك . ونظراً ان عائلة نابليون ترتبط
بمعاهدات زيجية مع عيال بافاريا وويرتمبرغ وباد . وازمعت
اتباع خلف شارلمان ان تقوي جيوشهُ من مائة الى مائة وخمسين
الف جندي وكان هوكويتز الذي اعهد اليهِ بان يبلغ بونابرت
الشرط الاخير في بوتسدام وجد في شنبرون امام المنتصر والتزم
ان يوقع على معاهدة تقضي على بروسيا بقبول هانوفر بدلاً عن
بعض اراض تتخلى عنها . وهكذا ظهر ان الاتفاق الذي بني
عسكريًا اضمحل سياسيًا . وقد انفردت روسيا بان سببت
خراب نابلي وانتشرت خيانة النمسا وبروسيا على وجه الارض
ومعاهدة شنبرون التي كانت ظواهرها تدل بانها تربط
بروسيا بفرنسا انتجت حربًا جديدة ورجعت الدول وهي روسيا
وانكلترا واسوج وبروسيا الى تجديد الاتحاد . واسرعت بروسيا
في سنة ١٨٠٦ الى فتح الحرب قبل انضمام عساكر محالفيها اليها
فدخلها نابليون وافتتحها تمامًا وعندما اراد الامبراطور اسكندر
ان يدخل ميدان الحرب علم بانكسار حليفهِ في جهات مختلفة

فتذكر عمل النمسويين في سنة ١٨٠٥ وانكسارهم في أُلم قبل ان ينضم اليهم وشعر في هذه المرة كالمرة الاولى بان ثقل الحرب سيقع عليهِ وان في هذه المرة المصيبة اعظم لان الحكومة البروسية كانت قد اضمحلت تماماً واشغل الفرنسويون برلين العاصمة واستلمت كل مواقع اودور وفستولا ولم يبقَ بالشمال لفردريك غليلوم غير ثلاث قلاع وهي دانتزيك وكينجسبير وميمال ونحو اربعة عشر الف رجل تحت قيادة الجنرال لستوك

وكانت روسيا بعد حوادث اوسترلتس ارادت ان تتخابر مع نابليون ببعض قضايا تكفل للدولتين السلام فبعثت اوبربل الى باريس يقوم بذلك ولما كان هذا يكره في الحكومة الحالية رُفض ووجدت روسيا نفسها بارتباك عظيم اذ لاح لها قرب وقوع حرب جديدة لم تكن لها في بال بينها وبين العجم والدولة العثمانية وعليهِ قدم سزارتوريسكي وزير الامور الخارجية لائحة للامبراطور يشور عليهِ بالصلح ويبين لهُ الصعوبة الواقعة فيها الحكومة وان من الواجب عليها اختيار اخف الويلين لتحفظ بولونيا وان تتجنب الهجوم ولو مهما كلفها وان غاية نابليون وادعائهُ ارجاع بولونيا وتحرير العبيد وانهُ لاضرر على روسيا مطلقاً اذا كانت المانيا تابعة لفرنسا تحت شروط ان

يتجاوزنا بليون وازروالب ويلزمه اخلاء كاتارو والجزر اليونية وتكفل سيثيل لملك نابلي وتعطى غرامة لملك سردينيا وهذا اوفق جداً اذ بمساعدة نابليون يتم المقصد الروسي من جهة البلكان وهو الذي يكفل نجاح الدولة وتقدمها

ولكن لما كان الامبراطور يريد حفظ المملكة الالمانية ويرغب في بقائها لم يلتفت الى طلب وزيره بل رغب في الحرب وامر بجمع قرعة جديدة يوخذ بها واحداً عن كل مائة نفس ـ وان يسير الاسراع الى صنع اسلحة جديدة في بلاده وفي الخارج ونظم فرقاً جديدة ودعا اليهِ الشبان من اولاد الشرفاء ووعد بان كل من خدم منهم في الجيش مدة ستة اشهر رقاهُ الى رتبة ضابط حيث ان اكثر ضباطهِ قتلوا في سهل براتزن فاجتمع اليهِ منهم نحو ١٢ الفاً . وامر الكهنة ان تخطب في الكنائس وفي كل مكان ان الحرب ليست للمجد الباطل ولكن لسلامة الوطن .
وارسل وفداً مخصوصاً الى انكلترا لاستقراض ستة ملايين ليرا ودعا النمسا للاشتراك بالحرب ولما سحقت بروسيا طلب الاربعة عشر الف جندي التي تحت قيادة الجنرال لستوك

فسار الجنرال بوكسهورن على ٢٨ الف مقاتل وبنيكسن على ٦٠ الفاً وهذا الاخير احد رجال ثورة ١٨٠١ معروف بالشهامة

والتفنن وقد قام باعمال ادهشت نابليون . والفلد ماريشال القديم كامانسكي القائد المطلق على جميع القوات التي كانت على فستولا لكنهُ شعر بضعف فتخلى عن مركزه وخلفهُ بنيكسن ودخل القواد الفرنسويون الى فارسوفيا في بولونيا وهم مورات ودافوست ولان وننظموا عند ضفة بوغ فكانوا يمين الجيش العظيم والقائدان سولت واوجير وقطعا فستولا في مودلين وكانا اوسط الجيش وناي وبرنادوت شمالهُ وقد اشغلا تورن وايلبنغ واقام الجنرال مورتيه في بوميراني تجاه الاسوجيين وحاصر الجنرال لوففر وضباطهُ دانتزيك. وانهى جيروم بونابرت وفاندام افتتاح سيلازيا فالتزم بينكسن ان يخلي بولونيا بعد وقوع معارك كثيرة وخصوصاً في بولتسيك في ٢٦ كانون اول وانسحب عن طريق اوستر ولانكا تاركاً في وحول بولونيا ثمانين مدفعاً وعشرة الاف رجل تقريباً

ونظراً لاشتداد الرياح وكثرة الامطار وتساقط الثلوج التزم الجيش الفرنسوي ان يطيل القتال ويرتاح في مراكزه لانقضاء فصل الشتاء وقد لاح للجنرال بينكسن ان يرفع جناح جيشهِ الشمال ويمر بين المعسكرين اي معسكر برنادوت ومعسكر ناي فسيحق الاول ويطرح بالثاني الى البحر وبذلك يرفع الحصار

عن دانتزيك ويحصر الحرب في براندبورغ في موخرة نابليون فقاوم برنادوت بشجاعة عظيمة وثبت في موهرينكن واوسترود ثباتًا تامًا امام الجيوش الروسية حتى تمكن نابليون من ان يسرع الى انقاذ المذكور وشعر بينكسن بالخطر الذي كاد يقع بهِ ورأى نفسهُ انهُ اوشك ان يحاط من جناحهِ الايسر وتنقطع عنهُ المخابرات فالتزم بالتقهقر ووكل بحمايتهِ براكسيون ففاز بمجد عظيم وحمى موخرة الجيش كما حماها في شنكراين وقد القى بنفسهِ الى الهلاك لاجل وقاية الجيش فجرح بليغًا وجيشهُ تقريبًا فني عن اخره . فتمكن بنيكسن من الاسراع الى ايلو واتخذ لنفسهِ المواقع عند شرقي هذه المدينة على خط اعلى يمتد من سكلودنين الى سربالن وخلف اواسطهِ قرية سوسكارتن وفي طليعتهِ نحو مائتي وخمسين مدفعًا

ووصل بونابرت الى ايلو وبرفقتهِ سولت واجيرو ومورات وجيش الحرس وكان ينقصهُ دافوست ليكون جناحهُ الايمن وناي جناحهُ الايسر وكان هذا الاخير قد اعيق بسبب تعقبهِ الجنرال لستوك وكذلك بنيكسن كان ينتظر استوك ليكون جناحهُ الايمن واشتبك القتال في ٨ شباط . ولم يقدر احد ان ينظر الى الجيشين بدون ان يبيت متحيرًا وموثرًا تاثيرًا يصعب

وصفهُ فكان يرى ارضاً متجمدة وسماء مظلمة وغيوماً ماطرة وثلجاً متساقطاً وارياحاً شديدة هابت وحركات الوف من الفرسان والمشاة الذين كانوا ينتقلون من مكان الى مكان ليحلوا في المراكز الموافقة للقتال وضجات الوف وضوضاء كانها مياه كثيرة هائجة مختلطة برياح نصف الليل وابتدا باطلاق المدافع قبل طلوع الفجر وكان صوتها مخيفاً وخال الناس ان اساسات الارض تتزلزل لان احذق المدفعيين من الجيشين كانوا يطلقون سبعمائة مدفع وشعر الرجال بانهم اصيبوا بالصم من الاصوات التي تحاكي هزيم الرعود القاصفة . وكان الجيشان يقابلان الرصاص والكرات وقطع الحديد والفولاذ المتقذفة من فوهات الوف من الاسلحة النارية المهلكة باجسادهم بلا استتار بشيء وكانت فرق بل جيوش برمتها تذوب امام ذلك الويل العظيم والثلج الكثير يندفع بعنف على اوجه الهاجمين والمهجوم عليهم والصفوف تحمل وتتقهقر وتعود الى الحمل في احوال لم يرَ الانسان اردأ منها ولا يقدر اللسان ان يقوم بوصفها ولم يرَ المتقاتلون نور الشمس لان دخان البارود ملأ الجوّ وجعل النهار مظلماً كالليل . وكانت الجنود الحاملة تقتل وتُقتل وتجرح وتُجرح تحت ظل تلك الخيمة الدخانية الكبريتية

واضحوا لا يرون نيران المدافع والبنادق والفرسان تغيردون ان تميزبين الصديق والعدو واستمر ذلك القتال المهلك بين مائة واربعين الف نفس ٨٠ من الروسيين و٦٠ من الفرنسويين حتى غابت الشمس واتصل القتال الى الليل وكان الجيش الفرنسوي قد تقهقر وبونابرت في وسطهم يدعوهم لان يتقدموا ويثبتوا وقد انتشب القتال ١٨ ساعة وصبغ الثلج احمرًا بدماء الابطال وتغطى السهل بجثث القتلى والجرحى والوف من الذين جرحوا طرحوا على الثلوج يئنون ويصرخون فغلب انينهم ضوضاء الحرب ولم يكونوا قادرين ان يجيدوا ليخلصوا نفوسهم من ذلك الهلاك المخيف وامست مدينة ايلوفي وسط لهيب مضطرم واحترقت قرى كثيرة وكان احتراقها علة لازدياد بلاء ذلك اليوم فان كثيرين من النساء والاولاد هربوا من منازلهم ليتجنبوا الكرات الساقطة فيها والنيران المتنشبة وكان القتال لا يزال قائمًا على ساق وقدم . وبعد غسق ذلك اليوم وقف نابليون مستكنًا في الكنيسة التي استولى عليها بعد ان فتحها الروسيون وقد امسى اكثر من اربعين الفًا من الجيشين ملقى على بساط الارض وانابيب الدماء تنفجر من اجسامهم وقتل من الخيل نحو عشرة الاف فرس منها ما قطع

اربًا ومنها ما جرح بليغًا وارتفع صهيلها الناشئ عن التالم
وهي تعدو دائسة الجرحى بحوافرها الحديدية لا تبالي بسوء حالهم
ولا ترق لاوجاعهم . وافتخر الروسيون بثباتهم مدة طويلة امام
جيوش نابليون مع انهم كانوا غير مستترين معرضين لنيران
الفرنسويين الذين اجتمعوا ببنايات ايلو واتخذوا حصنًا . ولم
يفز الفرنسويون ويرجعوا عن تقهقرهم الاَّ بعد وصول الجنرال
دافوست حيث ان حرس اوجيرو وفرقة سن هيلار الذين
هاجموا جناح الروسيين ضاعوا تقريبًا وقد تغطوا بغمامة ثلجية
وخسروا ببضع دقائق خمسة الاف ومائتي رجل وتقدم مشاة
الروس تقريبًا الى حد مقبرة ايلو حيث كان نابليون ووصل
الجنرال لستوك بعد ان تقوى الفرنسويون وقهقروا الروسيين
وخسرتهم خسائر عظيمة ففرقة اوسترمان لم يبقَ منها الا الفين
وخمسمائة رجل . وقد قال بوكدانوفيتش (ان رئيس القواد
قرأ بارتجاف تعديلات قواده ولم يبقَ عندهُ سوى ثلاثين
الف رجل تحت السلاح ومثلها قتل وجرح والجنرال
دوكتوروف وسبعة آخر من الجنرالين جرحوا واستفاد من
ظلام الليل بان يرحل بمقاومة ذات مجد عظيم ولو تعوق لانتصر
وقد حق لفرنسا ان تعلن عن نفسها انها انتصرت لانها

بقيت سادة ساحة القتال وكانت كل الجيوش الروسية قد دخلت القتال بخلاف الجيوش البونابرتية فان فرقة ناي ومشاة الحرس لم تشترك بالقتال ولكن الحزن كان يعلو وجوه جميعهم لانهم راوا الوفا من الابطال ممددة على بساط الارض ومثلها يأن من الاوجاع والالام وان هذا النصر الذي هو بدون نتيجة ولا جدوى قد أُشتري باغلى الاثمان بدم رجال من الجبلة البشرية وربما كانوا من اشدّ رجال ذاك الزمان شجاعة . وقد وقف الجنرال ناي ناظراً الى الارض الواسعة المصبوغة باحمرار الادمية وقال (ما هذه المذبحة واين فائدتها) . فكانوا يحتملون اشد مشاق الجوع والبرد وبعد المسافات ورداءة الطرق والسهول الموحلة . وقد اضعفت مقاومة الروسيين حسابات نابليون ولا سيما ان الاحوال في اوربا كانت تضطرب وقد سقطت الاسعار في باريس وحوادث كثيرة كانت تقضي على بونابرت ان يرتاع لكنهُ كان يتجلد . ولكي يحقق انتصارهُ ويقوي جيشهُ ويطمن فرنسا ويشجع العصيان البولوني ويردع المانيا والنمسا بقي اسبوعاً كاملاً في ايلول وهو يومل ان روسيا وبروسيا تطلبان اليهِ الصلح فانتظر عبثاً واخيراً كتب الى ملك بروسيا بالرسالة الاتية

اني ارغب في تقصير زمان ينكد عائلتك وان اعيد الانتظام الى المملكة البروسية بالسرعة الممكنة فان قوتها المتوسطة لازمة لراحة اوربا . واروم مصالحة روسيا ولا صعوبة في ذلك اذا لم يكن لروسيا نوايا رديئة متعلقة بالدولة العثمانية ومصالحة انكلترا ذات شان عند كل الامم . ولا امتنع عن ارسال سفير الى مميل ليكون عضواً في موتمر تعقده فرنسا واسوج وانكلترا وبروسيا والدولة العلية وربما استمرت هذه الجمعية سنين كثيرة وذلك لا يوافق حال بروسيا فاخترت ابسط الوسائل التي تروج نجاح رعاياك واتوسل الى جلالتك ان تتاكد رغبتي القلبية في تمكين الصلات الحبية بيني وبين دولة صادقة كبروسيا وبيني وبين روسيا وانكلترا . انتهى

وخابر بنيكسن ايضاً قائد الجيوش الروسية بشان الصلح فاجاب ملك بروسيا بعدم قبوله الصلح واصرَّ على مداومة البقاء مع الروسيين واجاب بنيكسن . ان سيده اقامه قائداً للحرب وليس للمخابرة . واتفق ملك بروسيا وامبراطور روسيا في بارتانسين سنة ١٨٠٧ على الشروط الاتية . اولاً . اعادة ترتيب بروسيا وارجاعها بحدودها كما كانت قبلاً في سنة ١٨٠٥ ثانياً فسخ المعاهدة الرينية . ثالثاً . ارجاع تيرول وفينتي للنمسا .

رابعاً . قبول انكلترا بالاتفاق وتوسيع هانوفر . خامساً . تجديد عائلة اورناج ودفع غرامات لملوك نابلي وسردينيا . انتهى . ولكن الملك فرنسوا النمسوي تردد طبيعياً في الاشتراك بالحرب لان الارشيدوق شارل تعلل بضعف المالية . واما اسوج فانها كانت ضعيفة طبعاً بالرغم على رغبتها في معاندة نابليون والتزم غسطاف الرابع ان يعقد هدنة مع الجنرال مورتيه واظهرت الوزارة الانكليزية التي كانت تدس سم العدوان في عموم دول اوربا ضد نابليون عدم اكتراث وانتباه الى الاتحاد ورفضت ان تكفل لروسيا قرضها الجديد الذي يبلغ مائة وخمسون مليون فرنك ولكنها لم تفترعن دس الدسائس وكبح عدوها وتؤمل بان الجيوش الروسية ستثل عرشهُ ولما رات ان سبستياني سفير فرنسا في الاستانة حمل الباب العالي على فتح الحرب على روسيا اجهدت نفسها في ان تحولهُ عن عزمهِ وان يشترك بالحرب ضد فرنسا ولما لم تنجح سياستها ومخابرتها عولت على التهديد فارسلت ببوارجها ودخلت الدردنيل عنوة غير مبالية بالمدافع العثمانية ووجهت بمدافعها الى المساكن وحينئذٍ طلب الانكليز الى الباب العالي ان يطرد سفير فرنسا من العاصمة ويسلم الانكليز بوارجهُ وان تتحد مع محاربي نابليون

والاَّ فانهم بنصف ساعة يجعلون القاعدة رماداً. فاطال الباب العالي المخابرة مع الانكليز وهو يحصن مواقع الدفاع وكل سكان المدينة كباراً وصغاراً رجالاً ونساء يدبرون الاعمال وفي اقل من اسبوع اقاموا على الحواجز ٩١٧ مدفعاً عادياً و ٢٠٠ مدفع ضخم جداً واطلقت جميعها على المراكب الانكليزية فالتزمت ان ترجع خاسرة خائبة بعد ان خسرت امحتها وتعديها ٢٥٠ رجلاً

وفي ٢٦ ايار (مايس) سلمت دانتزيك الى الفرنسويين بعد حصر شديد استمر اكثر من شهر ونصف وكان فيها نحو ٢٥ الفاً من جيوش الدول المتحدة. وفي ٢٥ حزيران (جون حمل الروسيون بغتة قاصدين الاحاطة بجيوش المارشال ناي وكانت جيوش بونابرت منتشرة في طول ١٥٠ ميلاً فاجتمعوا وحملوا من كل جهة فكانت اصوات المدافع وحمل الجنود وصليل السيوف تسمع على الدوام ليلاً ونهاراً من هنا ومن هناك. وكان بينكسن قد تقوى بان انضم اليه نحو عشرة آلاف من القوزاق والحرس الوطني وفي ميمنة الجيش كورتشاكوف وفي شماله باكراسيون غير ان عدد الفرنسويين كان اكثر من الروسيين فقهقروهم الى كينستات ولى نكاندورف ورأى بينكسن انه سيحاط جديداً من اعدائه فرحل الى هيلسبرغ وكان

الروسيون يقفون للقتال كلما وصلوا الى قرية فتروج سوق المنايا
وتطلق المدافع عليها والبنادق هادمة البيوت منزلة الويل والهوان
الى ان تحترق ويلتقي الرجال في الاسواق الملتهبة فيتقاتلون
بالسيوف والحراب حتى امسى نحو ٠ الاف بيت بدون سكان
وكانت الكلل وقطع الرصاص تصيب النساء والاولاد
ووطئوا الحقول المزروعة بارجلهم ومع ذلك كان ويل
الحرب لاينقطع ولم تكن شفقة ولا رحمة الى الدموع والتوسلات
واجتمع الروسيون عند ضفات نهر آكل وهم تسعون
الف رجل فاقاموا الحواجز وحفروا الخنادق وجعلوا مواقفهم
منيعة حصينة واقاموا مائة مدفع ليدفعوا بها كرات الهلاك
والبلاء ٠ وهجم الفرنسويون على تلك المدافع وكانوا نحو ثلاثين
الف جندي تحت قيادة الجنرال مورات وناي ولم يكن بونابرت
معهم ٠ فاطلق الروسيون عليهم تلك المدافع فاهلكت كل
الصفوف الاولية ومع ذلك لم يرتدوا بل تقدموا حتى بلغوا
الحواجز وقتلوا جنود المدافع وهتفوا قائلين النصر النصر ٠
وسمعوا على غير انتظار صوت الحوافر وطبول الهجوم فرفعوا
اعينهم واذا بجيش من فرسان الروسيين عدده عشرة الاف
فارس هجم عليهم فانقطع صياح النصر حالاً وتبعهُ ضوضاء الهلاك

والذين كانوا قد بلغوا الحواجز هلكوا واستمر القتال الى ان
خيم الظلام وغطى الدخان الكثيف ميدان الحرب بستار الويل
والهوان فكانت تنير ساحة القتال انوار المدافع . وجعل المطر
يهطل كأن السماء تبكي على شر الانسان الى نصف الليل ثم اخذ
اطلاق المدافع في ان يقل وكادت الجنود تهلك من التعب بعد
قتال لاقتال اشد منهُ استمر ١٢ ساعة . وطاب للعساكر النوم
بين القتلى والجرحى الذين كانوا يئنون على ارض قد صبغتها
دماء القلوب البشرية

وفي الصباح اشتد البرد وكثر المطر وكان نابليون قد
وصل الى جيوشهِ . وظهر بنور الشمس منظر تقشعر منهُ الابدان
ولم يكن بين الجيشين الا مسافة نصف اطلاق مدفع وفي هذه
المسافة ١٨ الفاً من القتلى والجرحى . واتفق المتقاتلان عند الصباح
ان ينفكا عن القتال لدفن القتلى واعالة الجرحى ولهذا اخذ
الجيشان ان يختلطا كان لاعداوة بينهما واشترك الجنود بمساعدة
المصابين وبعد اتمام ذلك رجع كل منهم الى موقفهِ . ودبر
نابليون تدبيراً حربياً مكنهُ من الهجوم على موخرة اعدائهِ فادرك
بينكسن ذلك وتقهقر دون ان تطلق بندقية والفرنسويون
يتاثرونهُ الى ان التزم ان يقف في فردلند عند زاوية ضفة نهر آل

واتخذ موقعاً لا يتخذهُ الا كل جسور من رجال الحرب لانهُ جعل
جيشهُ محصوراً ومن خلفهِ المياه الراكضة فوق الصخور المتشعبة
فلا يمكنهُ مطلقاً ان يرجع الى الوراء عند التقهقر الا بعد ملاقاة
الهلاك وقد اصبح مسجوناً في وادي آل · ووصل الجيش الفرنسوي
الساعة الثانية صباحاً واقاموا في احراش بوستهنان الى حين
وصول بونابرت ومنعوا الروسيين عن المشي · وهجم الجيش
الروسي على فرقة الجنرال لانز هجوم الاسود معلقاً الامل باهلاكها
قبل ان تتمكن الفرق الاخرى الفرنسوية من نجدتهِ وكان
بونابرت بعيداً نحو عشرة اميال فسمع اطلاق المدفع الاول
وبعث الى فرق جيشهِ في كل جهة بان تسرع الى نجدتها ·
وصعد الى اكمة عالية ليرى القتال منها · وسرَّ كثيراً عندما راى
انحشار الروسيين بقرنة النهر وقال لاحد ضباطهِ انهُ لا يتيسر
لي ان ارى عدوي مرة اخرى في مثل هذه الغلطة · فوضع
الجنرالين لان وفيكتور للمحافظة وامر مورقيه ان يقف في الشمال
ويستكنَّ مقابل كورتشا كورف بحيث يظهر ان الحركة ستكون
من اليمين من الجنرال ناي الذي وقف مقابل براكاسيون
وقد امسك نابليون ذراع هذا المارشال واشار الى بلدة فردلند
الصغيرة والجيوش الجرارة الروسية قائلاً هاك العرين فاذهب

اليه بدون ان تنظر الى ماحولك وادخلها واستولِ على الجسور بدون ان تبالي بما عن يمينك او يسارك او موخرتك فانني انا والجيش ساهنم بذلك وكانت فرقتهُ ١٤ الف جندي وباشارة واحدة حملت كل الصفوف الفرنسوية وكان منظر الهجوم جميلاً جداً . فارتفعت اصوات كهزيم رعود متواصلة و وقف نابليون في وسط الفرق التي حفظها احتياطاً

وفي برهة قصيرة احترقت فردلند واستولى ناي عليها وحلَّ في شوارعها التي كانت الادمية تجري فيها انهاراً . ولما خيم الظلام اشتدَّ البلاء وكان منظر ميدان القتال مخيفاً وهدمت كل الجسور وطرح الجيش الروسي المتقهقر الى النهر ومنهم من وجد مخاضات فعبر النهر والمياه الى صدرهِ ولما وصلوا الى البر اقاموا الحواجز وقد غرق الوف منهم والشواطي باتت مغطاة باجساد المقتولين وكان الرصاص يصب على النهر والاقدام مزدحمة فيه كانهُ برد كثير ساقط من السماء فاحمرَّ ماؤُهُ بدم المصابين . وتبدد شمل الدول المتحدة وعادت لا تقدر ان تمنع بونابرت عن التقدم ورحل الكونت لامبار ومعهُ ٢٩ مدفعاً من الضفة الشمالية والباقون هربوا عن الضفة اليمنى ووصل مورات وداڤوست وسولت الذين لم يشتركوا بهذه المعركة الى كنيجسبرغ وهرب

لستوك عند علمهِ باحتراق فردلند ولم يعد باقٍ الى فردريك غيليوم الثالث الا قلعة مدينة مميل الصغيرة وخسر الروسيون من ١٥ الف الى ٢٠ الف مقاتل وثمانون مدفعاً (في ١٤ حزيران)

ووصل الى اسكندر وهو في جيربرغ رسالة من بنيكسن يقتصر بها باخبارهِ انهُ التزم ان يفرغ شطوط نهر آل ليقف في مراكز اكثر افادة تقيهِ لبينما تصل اليهِ القوات التي يقيدها لوبانوف روستوفسكي مع انهُ لم يكن مع لوبانوف الا الوفاً قليلة من الكلموك وبهذا العدد القليل المتوحش كان بينكسن يومل سلام المملكة الروسية . فتعجب الامبراطور اسكندر من اعمال بونابرت ونظر الى قلة جيوشهِ وانهُ يحتاج الى جمع جيش جديد ورأى من الواجب عليهِ الرجوع والدخول في الاراضي الروسية وقد اشار عليهِ احد اركان حربهِ وهو باركلي دي توللي ان يطيل الحرب وينهزم امام الفرنسويين ويحرق كل ما يكون في طريقهِ ليصل بهم الى اقفار روسيا فيهلكون هناك . فلم يرق ذلك في خاطر الامبراطور وتامل ان ينال حالة احسن من ذلك . وكتب الى بينكسن رسالة قاسية وبعث بالقائد لوبانوف ليسهل طريق المخابرة بالصلح مع بونابرت وعين لمقابلتهِ

القائد تالبران . وكان اسكندر يشعر بقباحة اعمال الانكليز وسوء مقاصدهم وانهم لا يقصدون بالاتحاد الدولي الا ترويج مقاصدهم ونجاح تجارتهم وكبح عدوهم مع انهم تخلوا عن مساعدته بعد ان قيدت ارجله بشرك الحرب ورفضوا كفالة القرض الروسي

ولما وصل نابليون الى شواطي النيامن الفاصل بين اوربا وفيافي روسيا المتسعة اوقف جيوشه . وكان اسكندر امبراطور روسيا وفردريك غليوم ملك بروسيا في الشاطي الشمالي من ذلك النهر ومعهما سبعون الفا من بقايا جيوشهما الجرارة . وفي الجهة الثانية نابليون في مائة الف . وعند الضفة اليسرى بلدة تلسيت الصغيرة واهلها نحو عشرة الاف نفس ولما بلغها بونابرت وصلت اليه رسالة اسكندر بطلب المهادنة والمصالحة فاجاب وكان الامبراطوران يرغبان في سرعة التخابر فعين اليوم الخامس والعشرين من شهر حزيران للمقابلة الاولى وكان بونابرت يشعر بتاثيرات العظمة ويعلم كيف يجعلها تؤثر في الاخرين . فان اثنين من اقوى ملوك الدنيا كانا مزمعين على الالتقاء ليقطعا القتال او يبقياه . وامست تلك الجحافل وعددها اكثر من مائتي الف نفس على ضفتي ذلك

النهر الضيق يقابل بعضها بعضاً . وكانت دول اوربا تنظر اليهم مترقبة ذلك ولما كان الامبراطور الفرنسوي عارفاً بهِ استغنم سنوح الفرصة ليجعل للاجتماع تاثيراً لا ينسى الى الابد ويقوم بما يرضي الرجل العظيم الذي كان يرغب في ان يحالفهُ ليتمكن من كيد كل اعدائهِ . فامر بصنع فلك عظيم فاخر يقام في وسط النهر وجعل فيهِ من الاثاث افخرهُ وزينهُ باجمل زينة واجملها وبذل مبلغاً وافراً ليجعل الاتقان تاماً . واستمر الجيشان على الجانبين واجتمع الوف من اهالي الاماكن المجاورة ليشاهدوا ذلك المنظر البهج وكانت الطبيعة تبتسم لهذا الاتفاق فان الشمس ظهرت بعظمتها غير العادية . وبعد الظهر بساعة اطلقت المدافع من الجانبين عند نزول كل من الامبراطورين الى قاربهِ لياتي الفلك ومعهُ قليل من القواد الكبار وتبعهُ الحشم والخدم في قوارب اخرى وجعل الفلك الكبير لاجتماع الامبراطورين فقط فوصل نابليون الى الفلك قبل اسكندر وتقدم الى الجانب الاخر منهُ ليستقبلهُ ولما اجتمعا قبَّل احدهما الاخر بلطف وكان كل رجل من الجيشين ومن المجتمعين ينظر اليهما . ولما تلاقيا ضجَّ الجميع داعين لهما فخال القوم ان الجوَّ قد تمزَّق ولو اطلق الف مدفع لما سمع صوتها . ودخلا

الفلك معاً واول ما لفظ بهِ الامبراطور اسكندر قولهُ . اني ابغض الانكليز بغضك لهم وانا مستعد لان اسير في سبيلك في كل ما تفعلهُ لمقاومتهم . فقال بونابرت . اذا كان هذا الواقع فقد انتهى كل شيء وتم الصلح . وتحابا وتوادَّا وكلٌّ منهما جذب بفصاحة الاخر ولطفهِ وقال اسكندر (لم احب رجلاً كما احببت نابليون) . وقال لهُ نابليون الاوفق ان نتخابر بدون واسطة وزرائنا فان ذلك يمنع وقوع سوء المفهومية . وننهي في ساعة مالا ينتهي بواسطتهم في ايام ولا يجب ان يكون بيني وبينك ثالث

وكان عمر اسكندر اذ ذاك ثلثين سنة فانشرح صدرهُ من كلام نابليون ورغبتهِ بالسلام دون واسطة الوزراء . وقال بونابرت الاوفق ان نجعل بلدة تلسيت متحايدة فندخلها ونقرر الاعمال هناك فقبل اسكندر واتفقا على نزول اسكندر وحراسهِ في شطر من المدينة ونابليون في الشطر الاخر . وامر نابليون في الحال بعد رجوعهِ الى معسكرهِ ان تقام اعظم الاستعدادات اكرامًا للامبراطور فارسل اثاثًا من افخر الاثاث الى المكان الذي اعد لهُ وهيأ كل اسباب الراحة من مالهِ . وفي غد ذلك اليوم اجتمع الامبراطوران ثانية في الفلك وكان ملك بروسيا

المنكود الحظ مرافقاً لامبراطور روسيا وهو ذو فكر خامل
ومنظر غير مرضي وعقل قليل الادراك وامست يدهُ بيد ذلك
الفاتح العظيم ولا يحق لهُ ان يسترد الأَّ ما رضي نابليون
ان يردهُ لهُ . اما اسكندر فكان يخابرهُ كمساوٍ لهُ لانهُ لم يفتح
ولا شبر ارض من مملكتهِ فاجتمعا نصف ساعة فقط وبات
ملك بروسيا مضطرباً واراد ان يعتذر عن محاربة فرنسا وكان
نابليون كريم الاخلاق فلم يعظم على ضيفهِ بالتوبيخ واللوم
واكتفى بالقول ان من اعظم المصائب ارتضاء بلاط برلين
بطرح اوربا في نيران الحرب بالانقياد الى حيل الانكليز

وفي الساعة الخامسة بعد الظهر من ذلك اليوم عبر اسكندر
النهر ليذهب الى منزلهِ فسار نابليون الى الشاطئ ليلاقيهُ
فتقابلا كانهما صديقان قديمان وبالغ نابليون في ملاطفتهِ
وموانستهِ وقام الجيش الفرنسوي باكرامهِ احسن قيام وسير بهِ
الى منزلهِ والمدافع تطلق والجيش الجرار يضج فتناول الطعام
مع نابليون واتفقا على المواكلة كل يوم عندهُ وهما في كل يوم
يركبان ويسيران على شاطئ النهر للتنزه ويتكلمان بحرية .
وتقوت رباطات الصداقة والحب بينهما وهما يصرفان اعظم اوقاتهما
بالمفاوضة لوضع المعاهدة الصعبة . ولما راى قواد الجيشين

وضباطهما الحب الجاري بين الامبراطورين توادوا وتحابوا وتصافوا وكانت الولائم في المعسكرين متتابعة كانهما معسكر واحد . وفي ذات يوم قال نابليون لاسكندر قد بلغ جنودي من الشجاعة غايتها غير انهم يميلون الى البحث عن احوالهم ميلاً متجاوزاً حدود الاعتدال فلو كان عندهم من الثبات والانقياد الاعمى ما عند الروسيين لضاقت الدنيا دون فتوحاتهم . وذات مرة كان نابليون واسكندر يمشيان معاً فمرَّ بحارس فرنسوي فسلم عليهما بالسلاح بكل اعتبار . وكان في وجهه اثر جرح عظيم من سيف طويل ترك اثراً من جبهته الى ذقنه فنظر نابليون اليه بشفقة ثم قال لاسكندر . يامولاي الاخ ماذا تقول في الجنود الذين يشفون من جراح كهذا الجرح . فنظر اسكندر الى الجرح وقال . وانت يامولاي الاخ ماذا تقول في الجنود الذين يقدرون ان يجرحوا جرحاً كهذا الجرح

وكان الامبراطوران يصرفان ساعات كثيرة مجتمعين باسطين رسم العالم امامهما ولم يختلفا الا على امور الشرق وما يتعلق بهِ اما ملكة بروسيا فاتت تلسيت مع زوجها معلقة الامل بالحصول على شروط اوفق من الشروط التي حصل زوجها عليها بواسطة جمالها ولطفها . وكانت من اجمل نساء

ذلك الزمان مزينة وهي في سن الثلاثين برقة ودلال ولطف جعلتها مشهورة في اوربا · وقد قال نابليون عنها · كانت ملكة بروسيا ذات حذق ومعارف كثيرة وادراك غير عادي · وكانت مديرة اشغال المملكة وبالحقيقية انني كنت افرغ جهدي في اتقان الحديث ومع ذلك كانت صاحبة الكلام تتكلم عما يخطر لها بلطف وحذق يمنعان جليسها عن ان يتكدر منها ولو وصلت في اول الامر لاثرت في نتائج مخابرتنا على ان حسن الحظ جعلها تتاخر الى ان قررنا كل شيء · ولما وصلت زرتها فرأيت جمالها ولكن كانت قد فقدت قليلاً من رونق الفتوة · ولا نجعل للجمال واللطف دخلاً في امور الدولة · انتهى · وفي نهاية الوليمة الاخيرة نزل معها نابليون الى اخر درجة من السلم وهناك وقفت وتفرست في عينيهِ وشدت بيدها على يده وقالت من يصدق اني حظيت بمواجهة بطل هذا الزمان ولم يمكني من ان اثبت لهُ اني مختصة بهِ · فاجابها ياسيدتي اني متاسف من ذلك وهو من نحسي ولما وصلت الى عجلتها طرحت نفسها فيها وغطت وجهها بيدها وسارت وهي تبكي بكاء مراً · واشتد عليها الحزن فماتت بعد ذلك ببرهة ليست بطويلة · فان تحريضاتها جعلت بروسيا تشهر الحرب ونفسها المفتخرة لم تقدران تحتمل الخراب

الذي اوقعت فيهِ عائلتها وبلادها غير ان اسكندر لم يترك بروسيا بل حمل نابليون على ان يرد الى فردريك غيليوم بروسيا القديمة وبوميراني وبراندبورغ وسيلازي (في ٧ تموز)

فهذه البنود كانت تضحي حق بروسيا في الغرب ونابليون مال الى ان ياخذ منهُ كل املاكهِ بين الرين والب مع ماكدنبورغ وفي الشرق كل بولونيا وعلى نوع ماظهر انهُ قطع جانحي النسر البروسي · واقام في الجهة الغربية من الالب دوقية وستفاليا وفي الشرق دوقية فارسوفيا العظمى · واصبحت دانتزيك مستقلة وقضاء بيلوستوك انضم الى روسيا وارجع الى امراء مكلانبورغ واولدانبورغ قطيعاتهم لكن كان عليهم ان يشتغلوا بتحصينها للدفاع عند الحصار البري · ومثلها الساكس وحكام تورنج وكل امارات المانيا الصغيرة الزمت بان ترضى بمعاهدة الرين هذا وان لاترد الى ملك بروسيا بعض ممالكهِ الا عند دفعهِ غرامة الحرب · وعليهِ فاصبحت بروسيا بعد ان كانت تسعة ملايين من الانفس خمسة ملايين وبعد ان كان دخلها ١٢٠ مليون فرنك صار ٧٠ مليونًا

وعدا عن الشروط المتعلقة ببروسيا كان من شروط معاهدة تلسيت · اولاً · على اسكندر ان يتوسط بالصلح بين

انكلترا وفرنسا كون انكلترا حليفة روسيا وعلى نابليون ان
يتوسط ايضاً بين روسيا والباب العالي كونهُ حليف السلطان
الاعظم . ثانيًا . على اسكندر ان يعترف بحكومة اعضاء عائلتهِ
واخوتهِ فجوزف على نابلي ولويس على هولاندا وجيروم على
وستفاليا وان يعترف ايضاً بشروط المعاهدة الرينية اي بقيام
كل الممالك التي اقامها نابليون . ثالثًا عليهما ان يضمنا بالاشتراك
بقاء املاك روسيا وفرنسا الحالية كما هي . فهذه المعاهدة الاولى

وفي المعاهدة الثانية وهي السرية . ان ترد كاتارو الى فرنسا
وان يلحق باملاكهِ كل الجزائر اليونية . وانهُ اذا جرّد فرديناند
من سيثيليا لا يكون لهُ خلافها الا باليار او جزيرة قبرص
وكنادا وحينئذٍ يعرف جوزف بملك سيثيليا وان يعطى الى
الجبل الاسود غرامة الهرز وكوفة وخلاف شعوب كانت ثارت
بدسائس روسيا وانهُ اذا اضيفت هانوفر الى مملكة وستفاليا
تحصل بروسيا عند حد الالب الايسر على ارضٍ يبلغ عدد
شعبها من الثلاثة الاف الى الاربعة الاف من السكان

وفي المعاهدة الثالثة السرية وهي معاهدة دفاع وهجوم
كتب بها . اولاً ان الشروط ترسل الى انكلترا في اول كانون
الاول (ديسمبر) فاذا لم تاتِ بنتيجة تفتح روسيا عليها الحرب في

اول كانون الثاني (جانفيه) . ثانيًا . ان يكون للباب العالي فرصة ثلاثة اشهر لتقرير الصلح مع روسيا . وانهُ اخيرًا على الدولتين المتعاهدتين اي فرنسا وروسيا ان يتفقا على اختلاس كل اقاليم المملكة العثمانية في اوربا ما عدا الاستانة العلية والروملي . ثالثًا . اغصاب اسوج بترك انكلترا وقطع مخابرة الدولتين واذا امتنعت تدعى الدانمرك لمضادتها وتضم فينلاندا الى روسيا . رابعًا . ان تطلب النمسا للمشاركة بالحصار البري ومثلها اسوج والدانمرك والبورتغال وان يمنعوا البوارج الانكليزية من التقرب من سواحل بلادهم

ومن نظر في هذا الصلح يرى انهُ حق لان يسمى احد فروعهِ بدسيسة او ان يلقب بخيانة لان كلاًّ من الملكين كان يراعي صوالح بلاده قبل ان ينظر كالواجب في غيرها فنابليون التي حالفتهُ الدولة العلية عند بداية الحرب وتركت انكلترا والدول المتحدة وعرضت بلادها للخطر وردت البوارج الانكليزية عن عاصمتها عمل على عدم الاهتمام بها وسلم سرًّا بان تخسر من استقلالها في تركية اوربا وقد ندد بهِ اكثر المورخين ولاموهُ على عدم ثباتهِ في صداقة الدولة العلية فاحتج ان الثورة في الاستانة قد قلبت صديقهُ السلطان سليم فانحلت

عقدة الود على ان نابليون عمل مثل هذا العمل في غير مرة مع حليفتهِ اسوج وقد سمح بتضحيتها وتقديمها ليكون لهُ الحق باجراء مقاصده الاحتيالية في اسبانيا التي كانت جيوشها تقاتل بشرف وثبات تحت اعلامهِ . اما اسكندر فراعى في هذا الصلح صوالح حلفائهِ اكثر من نابليون ولو قليلاً وبالكاد سمح بمحاربة حليفتهِ انكلترا التي لم تعاملهُ معاملة حليف بل تركتهُ وهو في ساحة الحرب وامتنعت عن ان تكفل لهُ قرضةً مع انها كانت تعدهُ بالامداد المالي ومارضي ان يسمح بنزع بعض املاك ملك بروسيا بعد ان اصبحت كل بلاده بيد نابليون الاول ولم يقبل ان يتنزل عنها كلها ورضي تحت لطافة اللفظ بقيام دوقية فارسوفيا ليرى تكوين بزرة من بولونيا عند حدوده فهذه المعاهدة المستغربة لو اجريت تماماً لكانت ارضت الدولتين غير انها كانت تضمن بالداخل حياة روسيا اكثر من فرنسا . لان فرنسا ملتزمة بان تفرغ كل قواتها في اراضي اسبانيا العقيمة بينما تكون تلك قد استولت على احسن قسم في الشرق وعلى الدانوب وانفذت مطامع اسكندر الذي كان يرغب في ان يحقق آمالهُ بتاثر مقاصد سفياتوسلاف وبطرس الاكبر وجدتهُ كاترينا المعظمة وشكراً لرضاء كلا الامبراطورين من هذه المعاهدة اهدى

بوساماته الى قواد الآخر فكان يرى وسام صليب الجيون دينور في صدور ذوي الرمانات (لازاراف) وبالعكس . وكثيرون من القواد قاموا باحتفالات وولائم لقواد الجيش الذي كان منذ مدة يحاربهُ ومثلهم كان يفعل الجنود

مفاوضة اورفورث والحرب مع انكلترا واسوج والنمسا والدولة العلية والعجم

فهذه المعاهدة اوجبت تغييرًا عظيمًا في السياسة ولهذا التغيير التزم اسكندر ان يفترق من اصدقاء صبائهِ وان يقلب وزارتهُ ويتخلى عن مستشاريهِ كنوفوسيلتسوف وكوتشوبي وستروكونوف . ودعى لمجلسهِ عملاء للسياسة غيرهم . فاقام على الخارجية رومونتسوف وسبيرانسكي مستشارًا للدولة وهذا الاخير كان يتعجب من زكاء قريحة نابليون ويظهر اندهاشهُ من كل اعمالهِ ورغب عن صفاء نية في دوام محالفة فرنسا . وقد قال بودوكين احد روساء الصقالبة في زماننا (ان صلح تلسيت جاء بحذق نابليون الاول لكن شروطهُ اخف ثقلاً من الشروط التي وضعها لنا نابليون الثالث تحت اسوار سبستابول ونصيب اوربا كان غير ذلك النصيب لان سبستابول القلعة الشهيرة كانت تتوقد مضيئة على شاطئ

البحر الاسود والبرطائفاً بادمية رجال حرب مشومة)

واما الراي الروسي فكان عدوانياً محضاً كارهاً في هذا الصلح ومبغضاً لفرنسا ولم تكن الاعيان بعد قد ادركت حالة الاضرار الناتجة من الثورة ولا سيما والدة الامبراطورة فانها كانت ميالة جداً الى البوربون ومحاطة بكثير من المهاجرين الفرنسويين وفي بلاطها قسم نافذ الكلمة من الانكليز والنمسويين . ولم يكونوا اغتاظوا فقط من ترك المحالفات القديمة السريع بل كانوا يغتاظون من التقاعد عن كبح العدو المفروض عليهم كبحهُ . وكذلك كانوا يرون الى بولونيا وقيام دوقية فارسوفيا من الاملاك البروسية البولونية بعين عدم الاهتمام . لكن كان يكدرهم في ذلك انقياد شعوبها الى نابليون ونفوذ كلمتهِ فيهم

واحتمل سافاري الذي كان ارسلهُ نابليون سفيراً الى روسيا ثقل ضربة هذه التاثيرات المعاكسة لمقاصد سيدهِ وكان يرى ان الشعب غير مائل اليهِ لتصورهِ ان لهُ بعض اليد بمسالة انكهيان . وكتب سافاري الى باريس (ان الراي العام في روسيا مستعد بحمية ونشاط للقيام بمضادة الفرنسويين حتى انني لم اقبل ان اسكن ولا باحقر اللوكندات . وقبول

الهيئة الروسية لي ولاتباعي كان ببرود جداً وعدم اكتراث بالرغم عن التفات الامبراطور اسكندر وكرامتهِ وفي مدة السنة اسابيع التي اقمتها هنا ما قدرت ان افتح لذاتي ولا باباً والامبراطور يرى ذلك متأثراً ويرغب في ان يسلكوا معي في غير هذا الامر. وحال وصولي الى بطرسبرج تاكدت بانهُ يقام علناً في الكنائس صلوات ضدنا وخصوصاً ضد الامبراطور نابليون) . وكانت مكاتب باعة الكتب مملوءة رسائل طعن وقدح وسب ضد فرنسا وامبراطورها وضد السفير الفرنسوي . وفي ذلك يقول سافاري (لا شيء يعادل قلة الوقار الذي تجاسر باجرائهِ عالم الصبوة الروسية ضد سيدهم وذات مرة ضجرت من حادث اظهر لي نتيجة هذه القبائح ومامن عجب لتواتر الاخبار والاشاعات في بلد كثرت فيهِ الثورات والفتن)

وكان سفراء الدول يكتبون الى عواصمهم بما يقع في روسيا وما منهم من يظهر رضاءهُ من الامبراطور فسفير اسوج كتب الى غسطاف الرابع «لا يزال يزداد بكثرة عدم الرضاء من الامبراطور اسكندر ولقد يقال بحوادث ترعب السماع وقد يئس رجالهُ الخاضعون لهُ من المقاومات لكن لا واحد منهم او من المقلقين والمشيعين الاخبار يثبت على انفاذ مقاصده او يجسر ان يعلن شغباً

تمام الخطر الذي يزعمون انهُ واقع فيهِ من جرى الحادثات الخصوصية والاجتماعات العمومية المتعلقة بتغيير الحكومة» على انهُ وصل لاذني الامبراطور بعض اخبار مثل هذه اخيرًا وقد كتب اليهِ موروفينوف (وان تكن ايام الانتصار قد مرَّت اي الايام التي كانت بها روسيا تسن الشرائع وتكثر من الفتوحات وان تكن ايضًا خسرت كل الاميال الجيدة التي تعودتها حين شبوبيتها فابناؤُها يفضلون ان يسكبوا آخر نقطة من دمهم من ان ينحنوا صاغرين امام سيف رجل استقل على عرشهِ بالضعف والخيانة وعدم الاهلية) واخذ المورخ كارمزين في ان يستعد لتاليف لائحة ليطرحها بين يدي اسكندر بشان روسيا القديمة وروسيا الجديدة

وبوجه الاجمال ان خاصة الناس وعامتهم كانت تهتم باظهار النتائج الموثرة ضد فرنسا فالتراجديات الوطنية من قلم كربوكوفسكي واوزيروف والقصائد الطعنية من قلم جوكوفسكي وقصص كران بابا كريلوف والمطبوعات الدورية التي وزعها الكلينكانيين والشيشكوفيين وغيرهم كلها كانت تهيج الخواطر باظهار البغض ضد نابليون وكره حكومة فرنسا الجديدة . وفي نفس تلك السنة اي سنة ١٨٠٧ اشهر الكونت

روستوبتشين هجواً عاماً برواية عنوانها (الاشياء الجديدة او المائت الحي) مشيعاً سوء الاعمال والمقاصد الفرنسوية النابليونية ومن اقواله (هل نبقى زماناً طويلاً بتقليد السعادين . ياتي بلادنا الرجل الفرنسوي متخلصاً من المشنقة او السجن بداعي سرقة او جريمة فنختطفهُ ونعتبرهُ وهو يظهر لدينا بتكليفات وتفاخر مدعياً انهُ امير شريف قد ضيع ثروتهُ لاجل محافظتهِ على الامانة او الايمان مع انهُ لم يكن بالحقيقة الا خادم غرفة او بقَّال او انهُ كاتب برسومات الملح او قسيس محروم طرد من وطنهِ. ماذا يعلمون الاولاد اليوم . يعلمونهم الفرنسوية لان يلفظوا جيداً او لان يجعدوا شعورهم ويصلحوا ملابسهم) . وكان ياتي ايضاً بشتائم وسباب شديدة ضد المطامع الفرنسوية منادياً شجعان ايلو بقوله (فخراً لك يا ايها الجيش الروسي المنتصر الحامل السيف باسم المسيح وفخراً ومجداً لامنا الحنونة روسيا ولامبراطورنا . السلام لكم يا ايها الابطال الروسيون تولستواي وكوجين وغاليتسين ودوكتوروف وفولكونسكي ودولغروكي السلام الابدي في السماء لك ايها الشاب الباسل غاليتسين . تيهي يا روسيا عظمة ومجداً ودعي الجنس البشري يرجع للوراء امامك ولا يقدر ان يعارك ضد قوتك الغير مغلوبة لقد اتى

عدوك كسبع غضوب يزأر ظاناً انهُ يفترس كل شيء ويراهُ يهرب كذئب جائع يصرُّ باسنانهِ . انتهى)

وكثيرون من الكتبة جاهروا باعظم منهُ ولو عددت كل التاليف والرسائل التي نشرت في هذا المعنى منذ ثاني يوم معاهدة تلسيت لضاق المقام دون ذكر اسمائها . وكل ذلك دليل واضح على ان بغض نابليون كان من الامور الطبيعية في روسيا سرى بالعدوى من شخص الى اخر حتى عمَّ الاكثر . ومع ان الانكليز ضربوا كوبنهاغن قاعدة الدانمرك بطريقة قبيحة جداً ومريعة تابى النفوس البشرية ان تسمع بذكرها وتنفر الطباع السليمة عند ذكر الفظائع التي انتحوها لضربهم تلك المدينة المشهورة في ايلول سنة ١٨٠٧ لم يتكدر الروسيون منهم ويستفظعوا اعمالهم الاَّ حالما بلغهم الخبر لكنهم نسوا تلك التاثيرات السيئة بعد ذلك بقليل من الايام . وتقرر ان معاهدة تلسيت لم تكن مقبولة الاَّ من ثلاثة اشخاص وهم الامبراطور اسكندر وروما نتسوف وكيل الاخنام وسبيرانسكي . واخذ الامبراطور يتوهم بان انفاذ تلك المعاهدة سيخرج الى عالم الوجود وقد سعى بنفي عائلة براغانس واسقاط البوربون من اسبانيا وطرد البابا من رومية وبواسطة المكلمبورغيين فكر بان يضع رجلهُ في البلطيك وفي الفستولا .

غيران هذالم يتحقق قط وتولستواي سفير روسيا في فرنسا كان يجتهد في باريس بمعاركات سياسية شديدة ومع ذلك لم يقدر ان يفوز باقل نجاح يعود بنفع على نصيب فردريك غيليوم الثالث ولا ان يحصل على اخلاء الممالك البروسية الموعود بهِ وقد اخرت الحرب البحرية مع انكلترا التجارة الروسية وقد سبق سفير فرنسا في الاستانة الى عقد هدنة بين الباب العالي وروسيا بموجبها كان على روسيا ان تخلي الولايات الدانوبية . ولم يعد من ثم امل لان يخدع الامبراطور اسكندر من جهة تصوراتهِ الحارة المتعلقة بتقسيم ممالك الدولة العلية (حفظها الله)

وكان نابليون يضطرب من جرى افتتاح حرب جديدة اسبانية ونمسوية وانكليزية ورای من الواجب عليهِ ان يرضي حليفهُ ولو بعض الرضا فسعى في اجتماع ثان بامبراطور روسيا يتفقان بهِ على امور راهنة موافقة لصالح الحكومتين . وكان قد تعين كولانكور موخرًا سفيرًا لفرنسا في روسيا وقد كتب هذا السفير ما ياتي (في سنة ١٨٠٧ ارسلت سفيرًا الى روسيا وكان نابليون بغاية مجده ومع انهُ يحب الاقتصاد كثيرًا كان يرغب في ان يمكن سفير اعظم امة في الدنيا من ان ينوب عن امتهِ بالعظمة التي تليق بها . وقال لي اني اعطيك تحويلاً ابيض لتنفق ما يلزم ان

تنفقهُ سفارتك فانهُ لاينبغي ان تكون كالاهالي الذين يجمعون الثروة ولاينفقون منها ما يكون مناسبًا لها . فلا يجب ان يظهر ان بلاط فرنسا دني حقير واخونا امبراطور روسيا يحب الملاهي والتنعمات فاقم ولائم ومآدب فاخرة . اما بلاط امبراطور روسيا فكان زاهيًا زاهرًا ورايت فيهِ كل ما نسمعهُ انهُ كان في بلاط الملك لويس الرابع عشر الفرنسوي في زهوهِ . ولم يرَ في بلاط ما رايناهُ فيهِ من اسباب الحظ والملاهي فكان جامعًا للفتوة والجمال والعظمة والسرور . وفي ايام مثول ارباب الخطط وعظام الرجال لدى حضرة الامبراطور للتبريك والتهاني كنا نرى في قاعات القصر غرائب كالتي قرأنا عنها في كتاب الف ليلة وليلة . فان نساء من اجمل نساء العالم كنَّ يدخلنهُ لابسات افخر ملابس ومزينات باثمن الحلى واجملها فتظهر عليهن فعلاً عظمة الشرقيين ومنهنَّ من كنَّ حاذقات عارفات ومنهن من كنَّ جاهلات مدعيات غير انهن جميعًا كنَّ جميلات جدًا مولعات بالموسيقى والرقص . اما الفتيان فكانوا بتصرفاتهم الحسنة وبلاغة حديثهم وملابسهم الفاخرة المتظمة يفوقون فتيان باريس . انتهى) وثبت لدى العالم اجمع ان الامراء في روسيا كانوا يبغضون الامبراطور نابليون فتحزبوا عليهِ وفي رئاستهم

ام الامبراطور وتقرر عند الناس ان الامبراطور اسكندر لا يقدر ان يثبت في مضاداتهم ومراضاة حليفهِ ومع ذلك فقد عول على الاجتماع بهِ ثانية وقد اخلص لهُ الود بالرغم عن كل الموانع وقرب سفيرهُ منهُ كل التقرب فكان يشاركهُ في الافراح والمسرات ويوكد ان مبغضي نابليون سيرجعون عن عنادهم ويعترفون بحسن مبادبهِ

وعين الاجتماع في اورفوث في اليوم السابع والعشرين من ايلول سنة ١٨٠٨ وعند اقتراب هذا اليوم تحولت ابصار اوربا كلها اليهِ لترى ماذا ينشاء عن اجتماع امبراطور الروسيين وامبراطور الفرنسويين . وتقرر في عقول الناس ان نصيب العالم متعلق بهِ واخذ الملوك والامراء ورجال السياسة وكثيرون من الاعيان يذهبون الى اورفورث ليشاهدوا احتفال هذا الاجتماع . وكان نابليون صاحب الضيافة فتهيأ ليقوم بحقها ويكرم المضافين جميعًا بما يليق بمقامهم . فخرج من باريس ومعهُ برتيه وتاليران وشامباني وماريتسا وتولستواي سفير روسيا وجيش من الحشم عظيم . ووصل الى المكان المذكور بعد الظهر بعشر ساعات وكانت اقدام الملوك والامراء والادواق واعيان رجال السياسة والقواد واكابر خدم الدين قد ازدحمت في

اسواقهِ وبعد ان حيى هولاء القوم نابليون ركب فرسهُ وسار معهُ ملك سكسونيا وكثير من الاعوان وتقدموا ليلاقوا امبراطور روسيا وكان قادمًا في عجلة مفتوحة يرافقهُ اخوهُ قسطنطين والوزراء تولستواي ورومانتسوف وسبيرانسكي وكولانكور السفير الفرنسوي . فالتقوا بهِ على بعد ستة اميال ولما راى نابليون عجلة الامبراطور اسكندر سار اليها ركضًا بشوق وحب فنزل عن جوادهِ وخرج الامبراطور الروسي من عجلتهِ واعتنقا بسرور وتواد . وكانت قد تهيأَت افراس لركوب امبراطور روسيا واعوانهِ وحشمهِ فسار الامبراطوران راكبين ودخلا المدينة وكل منهما بجانب الآخر يتحدثان بصداقة وسرور

وفي المدينة عرَّف اسكندر صديقهُ بكل عظماء رجالهِ ومثلهُ فعل نابليون وكانوا يحضرون الاجتماعات معًا . واتفقا على ان يتناول اسكندر الطعام في كل يوم عند مضيفهِ . وفي المساء اقيمت مادبة فاخرة جدًّا احضرها اعظم رجال اوربا وزينت المدينة بالانوار واقام احذق مشخصي فرنسا بتشخيص رواية محزنة تظهر الصفات الحسنة والسجايا الممدوحة وكان اسكندر جالسًا بجانب نابليون . فقال احد المشخصين ان صداقة رجل عظيم منحة من المعبودات . فلما سمع اسكندر ذلك تحركت في احشائهِ

دواعي الكرامة ووقف بجلال وامسك يد نابليون بلطف واحنى راسهُ قائلاً اني اشعر بحقيقة هذا الكلام كل يوم · فلما سمع الحاضرون ذلك ضجوا جميعاً حتى تزلزلت جدران قاعة التشخيص وكانوا ملوكاً وادواقاً وامراء وعظماء السياسة

وكان الامبراطوران يجتمعان ملياً على انفراد · اما اسكندر فكان يطمع بالحصول على القسطنطينية وتقرر في عقل نابليون ان روسيا قوية جداً بدون ان تضم القسطنطينية وتوابعها اليها ورأى ان لاسبيل الى موافقتهِ الى مثل هذا الطلب لما فيهِ من الصعوبة واراقة الادمية والخراب الاوربي غير انهُ كان راغباً جداً في ارضاء اسكندر · واستمرَّ الاجتماع نحو عشرين يوماً وبعد مفاوضات كثيرة سرية حلَّ الامبراطوران كل المشاكل ووقعا على شروط هذه ملخصها · اولاً · ان امبراطوري روسيا وفرنسا جددا محالفتهما وتعاهدا بالمحاربة والمصالحة معاً · ثانياً عليهما ان يتفاوضا بشان الاماكن التي يمكن ان يستوليا عليها بعد هذه المحالفة · ثالثاً · عليهما ان يطلبا الى انكلترا عقد صلح بشروط موافقة جداً · رابعاً · ارتضت روسيا ان يبقى جوزف ملكاً على اسبانيا · وان تصعى فرنسا بما يثبت لروسيا فينلاندا وفالاشيا (الفلاخ) ومولدافيا وتتم روسيا بما يثبت

لفرنسا كل املاكها الحالية خامسا . يمكن لروسيا بمراضاة فرنسا
ان تستولي على الولايتين الدانوبيتين اما بالحرب واما بالسلام
غير انهُ يلزم عند اجراء العمل الاتفاق بين الدولتين فرنسا وروسيا
على الاسلوب اللازم اتخاذهُ بحيث لا يخاطر بالصداقة المقررة
بين فرنسا والدولة العلية . سادساً . اذا اضطرت روسيا
لاجل استيلائها على الولايتين الدانوبيتين اي الفلاخ والبغدان
وفنلاندا الى وقوع حرب او التزمت فرنسا الى الدفاع عن
مملكتي ايطاليا واسبانيا فعلى كل من الحكومتين ان تقوما معاً
بالحرب والدفاع . انتهى

وكتب نابليون بخط يدهِ الى ملك انكلترا طالباً عقد
الصلح ووقع على التحرير الامبراطوران . واضطربت النمسا
كثيراً لانهُ لم يسمح لها بالاشتراك بهذه المخابرة وقال نابليون
لسفيرها الذي كان ارسلهُ امبراطور النمسا ليقدم بالظاهر
احتراماتهِ للامبراطورين حيث اجتمعا ببلد قريب من بلادهِ
وبالباطن ليراقب احوالها السياسية . بلغ مولاكَ ان يستعد
الى الخروج من اشغال اوربا مادام يميل الى تكدير راحتها .
واعطاهُ نابليون رسالة ليقدمها الى مولاهُ اودع فيها كل افكاره
الحرة المبنية على كرامة الاخلاق

وفي المفاوضات السرية التي جرت بين الامبراطورين تحدثا عن طلاق نابليون من زوجته جوزيفين وتزوجه فتاة من عائلة روسيا الامبراطورية وكان نابليون يرغب في ذلك املاً بالحصول على وريث لعرش فرنسا لان زوجته جوزفين تزوجها ارملة ولم تلد له ولداً لا ذكراً ولا انثى وظناً منه بان ارتباطه بالزيجة من احدى بنات الامبراطورية الروسية او النمسوية يجعله معروفاً بين الملوك وتلتزم تلك الدولة ان تحالفه محالفة اكيدة عائلية وبسبب هذه المحالفة يرجع السلام الى اوربا وتنقطع الحروب والاضطرابات العدوانية التي كانت تقع من الدول ضده . واسكندر كان يرغب فيه حباً بالامبراطور نابليون لانه كان قد تعشقه وسكر من حسن مباديه وافكاره وطمعاً بان يجعله آلة لانفاذ اغراضه في الشرق وبواسطة محالفته ومساعدته يقدر ان يحصل على كل ما تطلبه السياسة الروسية واقيم مقام تولستواي في باريس كوراكين . ودفعت بروسيا ٢٠ مليوناً غرامة حرب لفرنسا فسلمها نابليون البلاد التي اتفق مع اسكندر بان يسلمها اياها وامر جيوشه باخلائها . وبالاختصار انهما اي الامبراطوران تمما اتفاقهما وافترقا ورافق نابليون ضيفه من طريق اورفورث الى ويمار وهما يتكلمان سراً باجتهاد .

وبعد المكالمة قبّل احدهما الاخر بحب وكانا متحدين برباط الصداقة الصحيحة والسياسة والمطامع فدخل اسكندر عجلتهُ وركب نابليون فرسهُ واخذ كل منهما يد صاحبهِ للوداع الاخير وافترقا وسار اسكندر قاصداً بطرسبرج ورجع نابليون صامتاً متاملاً الى اورفورث ولم يلتقيا بعد ذلك غير ان جيش كل منهما التقى بجيش الاخر في لهيب موسكو وفي ميدان حرب واترلو

وازمعت هذه المعاهدة المعقودة فى تلسيت والمثبتة في اورفورث ان تلقي روسيا في ميدان حروب جديدة ضد انكلترا واسوج والنمسا وعدا عن ذلك ان التكديرات السياسية كانت لاتنقطع منذ سنة ١٨٠٦ بينها وبين الدولة العلية ومنذ جلوس اسكندر الاول بينها وبين العجم وشعوب القوقاس . وكانت محاربة انكلترا ذات اهمية من جهة ومن جهة ثانية وهمية وبينما كان الاسطول الروسي الذي كان في الارخبيل وعليهِ الاميرال سينيافين راجعاً من الاوقيانوس يبحث على ملجاء التزم ان يسلم الى الاميرال كوتون الانكليزي بعد عقد معاهدة واخذ الى انكلترا فاحسنت معاملة ضباطهِ وملاحيهِ كل الاحسان واعيدوا الى روسيا على حساب انكلترا وبعد مضي خمس سنوات اعيد الاسطول ايضاً

واما غسطاف الرابع ملك اسوج فتظاهر بما جعل الناس تختم بضعف ارائهِ او بعناده فاراد ان يقاوم نابليون وان يسلم ليضم فنلاندا الى روسيا التي قررت وجوب الاستيلاء عليها بالسلاح واشهر رسالات طعن ضد نابليون وامران تترجم بالفرنسوية لتبلغهُ وتبلغ حليفهُ اسكندر ولقبهُ بالحيوان ولم يعرف ان يتحد مع الدول فلم يرضَ ان يسالم انكلترا عن طوع وكره في الاتحاد مع بروسيا كونهُ كان يحتقرها جدًّا لتعاستها ولم يقبل ان يوافق على اعمال صهره اسكندر وكان هو الرجل المنفرد بين العالم الذي فرح بضرب كوبنهاغن عاصمة الدانمرك واحتفل لذلك . وعندما التزم الامبراطور اسكندر ان يبتدأ بصنع اول افتتاحيهِ لارتباطهِ السلمي مع فرنسا وتعهدهِ بالحصار البري نفر من ذلك واهان المعتمد الروسي واجبر الى ان يمضي معاهدة مع انكلترا في ١٨ شباط (ففريه) سنة ١٨٠٨ يستمد منها الاعانة ضد روسيا وبسبب هذه المعاهدة قطع ستون الفًا من الجنود الروسية تحت قيادة بيكسهورث كيومين التي كانت منذ زمن كاترينا الحد الفاصل بين الدولتين . وارسل اعلانًا الى اهالي فينلاندا ان يتحركوا الى الاشتراك بهذه الحرب وان يستكنوا في بلادهم وان يسموا نوابًا يبعثونهم الى المجمع الذي ازمع اسكندر

ان يجمعهُ · وطردت الجيوش الروسية الجيوش الاسوجية المتفرقة الى جهة الجنوب وفرقوها بوقائع متتابعة وافتتحوا تقريبًا فينلاندا في اذار (مارت) ١٨٠٨ وهيلسنكفور وسيفابورغ الحصينة وابو وجزائر الاند جميعها سقطت بين يدي الروسيين · ولم تتوقف الجيوش الروسية في مكان الامرتين امام كيلنكسبور الذي فاز عليها في معركتين ولكنهُ التزم ان ينسحب الى براري بوتني وارسل قوم من الفنلانديين الى الجيوش الفنلاندية التي كانت تخدم في جيوش الاسوجيين ليطلبوا اليهم الهرب باسلحتهم وذخائرهم ووعدوهم بريالين عن كل بارودة وريال عن كل سيف وستة ريالات عن كل حصان ففرَّ كثيرون منهم · وتقوت روسيا في مدة الشتاء في جزائر الاند وقطعت ثلاث فرق تحت قيادة كولنرو براكاسيون وباركلي دي تولي خليج بوتني على الثلج وحاربت عند الضفات الاسوجية وفي تلك الاثناء ثارت العساكر الاسوجية في ستوكهلم في ١٢ اذار (مارت) سنة ١٨٠٩ على غسطاف وبدون ان يسفك نقطة دم قبض عليهِ من جنوده واودع السجن في دروتينكولم مع عائلتهِ · وبعد مدة قصيرة اطلق سبيلهُ وسافر الى اوربا تحت اسم القائد غسطافسون واعهد بالحكم الى خالهِ تحت لقب شارل الثالث عشر وهذا وافق

روسيا ووقع على صلح فردريكسهام وفيهِ سلم فينلاندا الى حد تورنيا وفي سنة ١٨١٠ توفي البرنس كريستيان اوغسطوس دي هولستين الذي تعين من قبل الدول وليًا لعهد ملك اسوج . فانتخب عوضًا عنهُ اوغسطامبورغ برنادوتي شريف من فرنسا فلم يستحسن بونابرت هذا الانتخاب وفضل انتخاب دانواي الذي جلوسهُ اقام الاتحاد السكنديناڤي ولم يستحسن هذا الفوز على اسوج في كل بطرسبرج ولذلك كان يقال عند ذكر اسوج (يا اسوج المسكينة) ومع انهم كانوا يرغبون في الاستيلاء على فينلاندا منذ زمن طويل لم يرق في اعينهم الاستيلاء عليها في هذه المرة اذ كانوا يتصورون انها عطية من نابليون . وطلب اسكندر حسب وعدهِ تعيين مجمع لفينلاندا وكفل لهذه الدوقية قوانينها وامتيازاتها .

وكان في نيسان (افريل) سنة ١٨٠٦ قد ابتدأ حرب بونابرت مع النمسا (الاتفاق الدولي الخامس) فرأى اسكندر ان يبذل جهدهُ لمنع هذه الحرب فلم يقدر وكان نابليون قد وافقهُ رغبة بالسلام لكن النمسا امتنعت مدفوعة الى ذلك بما استكن في قلب امبراطورها من البغض لنابليون وبالحاحات انكلترا وقد تصور الضعف بالجيوش الفرنسوية لكثرة حروبها ولاسيما

حربها الاخير في اسبانيا . وكان اسكندر يحب ان يشارك نابليون
في هذه الحرب مشاركة فعلية ليظهر لهُ حبهُ وصدق وعده عند
المحالفة لكنهُ كان يمتنع عندما يرى بغض الشعب والامراء وفي
مقدمتهم والدتهُ لهذا التحالف . ولما فتحت الحرب لم يرَ مندوحة
من الاشتراك بها ولو على الاقل تظاهراً فارسل بثلاثين الف
جندي تحت قيادة البرنس غاليتسين وامرهُ ان يسير ويحارب
باتفاق مع دوقية فارسوفيا (التي انشاها نابليون من نصيب
بروسيا في بولونيا) ضد الارشيدوق فرديننذ . فحرب روسيا
هذا مع النمسا كان كرواية اختلاقية وهمية ولكنها كانت بالفعل
ضد جيش بولونيا المشترك معها بالحرب وكان الروسيون
يكرهونهُ جداً ويخشون نجاحهُ في غاليثا وفي كل مدة المحاربة لم يلتق
الروسيون والنمسويون سوى مرتين المرة الاولى في معركة اولانوفكا
حيث قتل فيها واحد وجرح اثنان ومع ذلك فقد بعث القائد
النمسوي الى غاليتسين يعتذر اليهِ بقولهِ انهُ كان يظن انهم البولونيون
والمرة الثانية في معركة بودغورجي عند كراكوفيا قتل فيها اثنان
وجرح مثلهما

ولكن المعاركات كانت تحوات على الاكثر بين الروسيين
والبولونيين وكثيراً ما كان فيخلى غاليتسين عنهم وقد تغاضى حتى

استرجع النمسويون ساندومير. فتكدر بونياتوفسكي قائد البولونية وتشكى بهِ الى الامبراطور اسكندر فلم يحصل على فائدة من اصلاح هذا السلوك الكثير الخيانة . ودخل الروسيون لامبرغ بعد ان كان قد استولى عليها البولونيون . وفي كراكوفيا اوشك الجيشان ان يتماسكا وكان غاليتسين يلقي بالبولونيين في كل جهة مخطرة وقد كتب الى اسكندر يقول (ان المتحدين معنا يقلقوني اكثر من النمسويين) وكان يتشكى من ان بونياتوفسكي اتخذ لنفسهِ لقب رئيس الجيوش الفارسوفية . اورئيس الجيش التاسع العظيم . مع انهُ تحت امرتهِ . فاجاب على ذلك بونياتوفسكي بقولهِ ان الامبراطور نابليون اعطاني هذا اللقب وهو وحدهُ لهُ السلطان في ان يعطي قواد فارسوفيا اللقب الذي يريدهُ . وكان غاليتسين ايضاً يظهر ان بونياتوفسكي يقوي جيشهُ بالعساكر البولونية الهاربة من المعسكر النمسوي ومن اشراف ليطانيا مع انهم من رعايا روسيا . وكان يشخص في ملاعب غاليثا ملك بولونيا خارجاً من قبرهِ وحدود بلادهِ الى نهري دون ودنيبر . واشار على اسكندر ان ينزع من الفرنسويين هذا السلاح الذي تتقوى بهِ فارسوفيا . فرفض القيصر متعللاً بعدم ثبات البولونيين وضرورة

حفظ اقاليمهِ الليطانية من كل عدوى

وفي اجتماع شنبرون الذي سبق معاهدة فينا لم يقبل الامبراطور اسكندر ان يقوم احد مقامهُ بالمخابرات حيث كان لا يرغب في ان يضحي النتائج التي سيحصل عليها ولكنهُ بذلك ترك النمسا بدون عضد والتزمت ان تسلم بكل اقاليمها الايلرانية وكل غاليثا . فاضاف نابليون غاليثا الغربية وفيها ١٥٠٠٠٠٠ نفس لدوقيتهِ العظمى (فارسوفيا) واعطى ٤٠٠٠٠٠ نفس وغاليثا الشرقية الى روسيا وذلك في ١٤ تشرين اول (اوكتوبر) سنة ١٨٠٩ . فهذا التعويض كافياً للقيصر الروسي ليجعلهُ ان يقوم مقام الخطر العظيم من اتساع دوقية فارسوفيا وبقائها في يد نابليون

وكانت الحرب بين روسيا والدولة العلية لا تزال قائمة بالتتابع . ففي سنة ١٨٠٤ طلبت روسيا الى الباب العالي عقد معاهدة ضد فرنسا لكنها اشترطت عليهِ ان يكون رعاياه القائمين بخدمة الدين الارثوذكسي تحت حمايتها فرفض ساكن الجنان السلطان سليم هذا الطلب ولم يرغب في محالفة روسيا بل حالف فرنسا وكان يسرُّ من نابليون ومن انتصاراتهِ واعترف لهُ بعد واقعة اوسترليتس رغماً على اجتهادات انيالينسكي

السفير الروسي بلقبهِ الامبراطوري وارسل سفيراً من قبلهِ الى باريس مع هدايا للامبراطور المذكور. وبعد معاهدة انتصار فينا ذهب معتمد عثماني الى باريس ليقوي المعاهدة مع نابليون. وعزل ابسيلانتي وموزوري رئيسا فالاشيا ومولدافيا الخاضعين الى روسيا وهذا العمل حسب نقض بند من بنود معاهدة ياسي مع كاترينا الثانية

وفي ذلك الوقت ابتدأَت اضطرابات السرب وكانت انكشارية هذا البلد قد جمعت جنوداً منوعة كجنود مصر والجزائر واخذوا في ان يضطهدوا الشعوب المسيحية هناك فقاومهم الباشا الذي كان على بلغراد في عدة معارك بالمشاة والخيالة فلم يفز بنتيجة واحتقر اولئك الانكشارية كثيراً من المسلمين ولم يصغوا الى مقاصد الحضرة السلطانية ولا راعوا سلطتها وما كانوا يطيعون الا لرؤسائهم. وكان هذا الجوق في تلك الايام يكثر من الثورات في نفس دار السعادة غير مراع جانب العبودية (راجع تاريخ الدولة العلية) فضاد حضرة السلطان سليم هولاء المعتدين وكان هو السلطان الاول الذي فكر في ابادة هذا الجوق والتخلص منهُ كما تخلصت روسيا من وجاق الاسترليتش وهو الذي اجتهد باقامة عساكر منظمة معلمة لتقوم بكبحهِ

وكان كثيرون من السربيين تعودوا حمل السلاح في حرب كاترينا الثانية وجوزف الثاني وكثيرون منهم خدموا في الجيوش الروسية والنمسوية ولما عيل صبرهم من القتل والعذاب المر ثاروا على الانكشارية واقاموا رئيساً عليهم تشرني جورج (جورج الاسود) وهو تاجر خنازير غني وطردوا بعض المسلمين من بلغراد ومن كل القلاع مدعين انهم يجرون اوامر حضرة السلطان الاعظم ولكن عندما اراد السلطان ان يسكن هياجهم ويامنهم على انفسهم ابوا واعلنوا استقلالهم فحاربتهم الدولة العلية وكادت تفنيهم عن آخرهم وتقاصهم على الخروج عن طاعتها ولم تبادر روسيا في سنة ١٨٠٦ الى اعانتهم وتخليص حدودهم وارسل اليهم القيصر فرقة تحت قيادة القائد بالا

واقام السفير الروسي في الاستانة الحجة على فصل ايبسيلانتي وموروزي وان هذا الانقصد فسخ معاهدة ياسي وبدون اعلان فتح الحرب قطع الجنرال ميشالسون الروسي الحدود ونهب مولدافيا ومعهُ ٣٥ الف جندي وفتح كوتين وبندر ودخل بخارست وتقدم الى جهة الدانوب فاراد السفير الانكليزي ان يتوسط امر القتال فلم يصغَ لهُ السلطان الاعظم وحينئذٍ قطع الاسطول الانكليزي وعليهِ الاميرال

ديكورت الدردنيل وطلب طرد السفير الفرنسوي فدفع وارجع بالخيبة كما تقدم . وخرج الاسطول العثماني من الدردنيل فالتقى بالاسطول الروسي وعليهِ سنيافين في مياه تينيدوس وتاخر عنهُ بعد ان تبادل بينهما اطلاق المدافع شديداً . وبعد ذلك بزمن قصير خلع حضرة السلطان سليم بسبب ثورة الانكشارية . فاظهر نابليون غيظهُ من ذلك وفكر في ان يضحي الاملاك المحروسة ارضاء لمعاهدة تلسيت

وكان قد خلف سباستياني سفير فرنسا في الاستانة كيليامينو فامرهُ نابليون بمساعدة الروسيين حقيقة . ومع ان الهدنة كانت عقدت تهيئة للمخابرة بالصلح بقيت الجيوش الروسية شاغلة الاقاليم التي اعهد في ادارتها الى مجلس مولف من روسيين ورومانيين . وبعد معاهدة اورفورث رفض حضرة السلطان ان يوافق على تقسيم سلطنتهِ فعادت الحرب الى ما كانت عليهِ وذلك في سنة ١٨٠٩ وكان النجاح في هذه السنة متعادلاً بين المتحاربين فافتتح الروسيون تقريباً كل قلاع الدانوب لكن الوزير الاعظم ضربهم في بلغاريا واوقع عليهم جملة خسائر . وفي سنة ١٨١٠ افتتح ثانياً المارشال كامانسكي بلغاريا الى حد البلكان وانتصر في باتينيا بقرب روستشوك

وفي سنة ١٨١١ خلف كامانسكي كوتوزوف فهذا قاد بالوزير الاكبر الى الضفة الشمالية من الدانوب وفاجاه هناك وفرق مجتمعهُ ولكن بسبب فسخ المعاهدة الفرنسوية الروسية ضعف الجيش الروسي الدانوبي من الحصول على النتيجة وقد راى من بسالة العثمانيين وتجديد الجيوش التي كانت لا تنقطع على الدوام مع ارتباك داخلية الباب العالي وكثرت الاضطرابات والثورات التي دامت عدة سنين (بداعي استبداد الانكشارية ولم تنقطع الاَّ في زمن ساكن الجنان السلطان محمود خان) ولهذا عقد مجلس في بخارست سنة ١٨١٢ وفيهِ تنزلت روسيا عن فالاشيا ومولدافيا (الفلاخ والبغدان) وحفظت لنفسها بسارابيا (بلد في الروملي) مع قلاع كوتين وبندر وبريت والدانوب الاوطى واكتسبت اسماعيل وكيليا وهما حد المملكتين ووجب ان يعين ثانيًا حاكمان لفالاشيا ومولدافيا واشترط في البند الثامن من هذه المعاهدة ان يمنح العفو السلطاني مسيحيو السرب الذين بقوا من رعايا الباب العالي وان يقام عليهم جورج الاسود. وفي حرب سنة ١٨١٢ و١٨١٣ لم تاخذ الدولة العثمانية ولا قطيعة من الارض لكنها استفادت منها بانها فسخت البند الثامن المذكور واهلكت الجيش السربي وارجعت النظام

القديم وهرب جورج الاسود واكثر اعيان السرب الى اراضي النمسا وعذب كثيرون من الذين اشتركوا بالثورة . غير ان واحدًا من اولئك السربيين بقي في البلد وترك العثمانيين يأمنون وهو ميلوخ او برينوفتش وعرف كيف يرتب ثورة جديدة وحال اشتداد الاضطهاد أعطى اشارة جديدة سنة ١٨١٥ ومن ثم اعاد استقلال وطنهِ وفي سنة ١٨١٥ قبل الباب العالي ان يحكم السرب البرنس ميلوخ وجمعية وطنية تكون تحت شرائع اهلها ونظاماتها عائدة لسلطة السلطان الاعظم وتكون قلاعها ومواقعها الحصينة بيد الجنود العثمانية ودام هذا النظام الى سنة ١٨٦٧

وفي اثناء حرب الدولة العلية كانت تعديات العجم متواصلة وقد قصد الشاه ان يضم الكرج الى مملكتهِ وكذلك طوائف القوقاس وارسلت روسيا جنودها فاشغلت اقسامًا كثيرة وامتاز بالانتصار البرنس تيتسيانوف والكونت غودوفتش وتورماسوف وكوتليارفسكي . وقبض تيتسيانوف على والدة قيصر الكرج ماريا حيث كانت تسعى في اخراج بلادها من سلطة الروس ونقض المعاهدة التي عقدها ابنها البكر مع بولس الاول راغبة بالانضمام الى العجم وارسلها الى بطرسبرج وافتتح

ايضاً شيروان ولكنهُ ذبح بخيانة عند اسوار باكو من الخان حسين كولي فقام بثاره القائد غلاسينوب وقتل الخان علي كونهُ اشترك بقتل تيتسيانوف واخذ منهُ دربان وارادت العجم ان تتقدم لمساعدة الطوائف القوقاسية فقطع الامير عباس مرزا اراكس ومعهُ عشرين الف مقاتل وهناك ضُرب وتبدد شملهُ وهذه الحروب طالت الى حد سنة ١٨١٣ وفي السنة نفسها شغلت روسيا بما هو اهم من افتتاح حرب جديدة استدعت انتباه كل قوات روسيا

دوقية فارسوفيا العظمى اسباب الحرب الثانية
مع نابليون

ومع ان روابط الحب بين نابليون واسكندر كانت متينة في بادي الامر وكان لا يظن انها تنفصم ما لم يمت احدهما الآن الظروف وتواتر الحوادث وتناقض المقاصد جعل تلك المحبة تضف تدريجياً والاسباب التي اوجبت فسخها كثيرة منها . اولاً . نمو دوقية فارسوفيا العظمى ثانياً . المشاكل التي تسببت من سلوك الروسيين حين محاربة ١٨٠٩ . ثالثاً . رجوع نابليون عن عزمهِ بالزواج من العائلة الروسية وتزويجهِ ببنت من العائلة النمسوية . رابعاً . الخصومة المتجددة بين الدولتين في

الاستانة وعلى الدانوب . خامسًا . المعاهدات التي انشاها نابليون في المانيا الشرقية سنة ١٨١٠ . سادسًا . التراخي في المحاربات البحرية . سابعًا. كثرة التسلحات التي كانت تجريها كلتا الدولتين وتفصيل ذلك كما ياتي

انهُ في معاهدة تلسيت كان قد اقام نابليون دوقية فارسوفيا او (وارسو) من الاقاليم البروسية ومجموعها ٢٥٠٠٠٠٠ نفس وفي معاهدة فينا وسعها من غاليثا الغربية اي كراكوفيا ورادوم وليبلن وساندومبر وفيها ١٥٠٠٠٠٠ نفس وسهل لنفسهِ اتخاذ الوسائط لقيام بولونيا وارجاعها على ذات العظمة الاولى التي كانت لها وربما اعظم ايضًا . ولم يرض باعطاء دانتزيك الى احد واعلن انها بلدة حرة . وكان يمكنهُ الحصول على الاقاليم الايلرينية النمسوية والاستيلاء على ما بقي من غاليثا ولم يكن يرى من الضرورة استرجاع الاقاليم التي كانت نصيب روسيا من بولونيا دون صعوبة مع ان هذه الاقاليم لم تكن بولونية في الاصل بل هي ليطانيا وروسيا البيضاء لكن كان يفكر في ان يسترجع ما اعطاهُ هو ذاتهُ الى روسيا من اسلاب بروسيا والنمسا كبيلستوك وغاليثا الشرقية . وان كان اجداد فردريك حكموا في بولونيا لكنها استقرت اخيرًا على بيت سكس وسنة ١٧٩١ كانت اجتهدت

في تحقيق الخلافة لستانسيلاس بونياتوفسكي

وفي سنة ١٨٠٧ وضعت جمعية بولونية نظاماً جديداً اشبه بنظام ثالث مائس سنة ١٧٩١ وبعثتهُ مع وفد مخصوص الى نابليون فقبلهُ وامر ملك ساكس بابعاد المتوظفين البروسيين وان يحكم بولونيا مع اعيان البلاد . فشكل حول الملك وزراء عليهم مسئولية الاعمال الداخلية والخارجية . وسلطة الشرائع كانت مشتركة بين الملك والمجلس فالمجلس ¦ يتالف من ستة اساقفة (مطارنة) وستة حكام ¦ وستة روساء طوائف والجوق الشرعي يتالف من ستين نائب منتخبين من رتبة الشرفاء واربعين منتخبين من نواب المدن . ¦ وبعد الاستيلاء على ¦ غاليثا الغربية زاد عدد اعضاء المجلس . وقد حق لنابليون ان يفتخر لكونهِ اقام حكومة مستقلة تجتمع في القصر الملكي القديم والمجلس المذكور كان يجلس في حجر كل اقسام بولونيا الحية . واعطى لهذه الدوكية قانونهُ المدني الذي سنهُ في بلادهِ وان كان لا يمكن التوفيق بين احكامهِ وحالة البلاد لكنهُ كان وسيلة لاشهار حرية العبيد مع حفظ حقوق السادات الاقدمين بتملك الاراضي فكان من حال بولونيا انها نالت حريتها في هذه المرة اكثر من السابق

وكان جيش هذه الدوقية في سنة ١٨٠٧ نحو ثلاثين الفًا وبعد سنة ١٨٠٩ بلغ الخمسين الفًا وعليها جوزف بونياتوفسكي ابن اخي منتخبها الاخير وهو بطل بعض المعارك البونابرتية وتحت امرتهِ كان دوميروفسكي رجل محاربة سنة ١٧٩٩ وزابونتسك الذي كان حارب مع الفرنسويين في مصر وكلوبيثيكي رئيس جيش اسبانيا البولوني الجسور. وكان هذا الجيش يتحرك بجدة على الدوام من مذكرات ولوائح كان ينشرها على الدوام ضابط بولوني (وهي مذكرات الجنرال براندت) واصلح المدفعيون الفرنسويون بونتام وبلّيته. واصلح هاكسو واليكس القلاع وهي بلوتك ومودلين وتورن وزاموسك

واما وزراء الدوقية فكانوا ستانيسلاس بوتوثكي لرئاسة المجلس العالي وجوزف بونياتوفسكي لنظارة الحربية وقيادة الجيوش العامة ولوبنسكي لنظارة العدلية وماتيسزفيكز للتجارة وسوبولوفسكي للبوليس والضابطة الخ وكلهم كانوا من ذوي الحمية والغيرة الوطنية ومع كل هذا فكان الثزارتور يسكبون جماعة من الدوقية يتحفظون من اظهار ذواتهم وعند تعاسة هذه الدوقية مالوا الكرم اسكندر. وبالاختصار ان نمو الجيش الفارسوفي المقيم على الفستولا كمقدمة للجيش العظيم كان موضوع قلق

للقيصر الروسي وغضب للروسيين . وكان اسكندر يشكى من شرفاء الدوقية الذين لهم اراض في ليطانيا وكانوا يتنقلون من خطة الى ثانية لانهم علة المشاجرات السياسية الدائمة وانهم يحركون قضيب بولونيا على تلك الحدود الليطانية فكل ما كان يقع في بولونيا من هذه المشاكل كان كافياً لان يفصم عرى المودة كما تقدم

ومن تلك الاسباب ايضاً موضوع الزيجة التي كان اسكندر يرغب في ربطها بين اخته حنة والامبراطور نابليون ولم يتوفق الى اتمامها وقد حال دون ذلك صعوبات داخلية وخارجية فوالدة الامبراطور ماريادي ويرتامبرج كانت تفوضت بوصية من بولس الاول بخولها الحق المطلق بالتصرف بامر زواج بناتها وكان يعلم القيصر ان لاحق لهُ باجبارها على انفاذ غايتهِ ولاسيما انها كانت تحتج بان شريعة الكنيسة الارثوذكسية لا تسمح قطعاً بالزواج من رجل مطلق وهي قد خطبت من برنس ساكس كوبورغ واختها كاترينا تزوجت من دوق اولدانبورغ . ونابليون طلق زوجتهُ الاولى كونها لم تلد لهُ فربما كانت حنة مثلها لم تاتهِ بالنسل الذي يطلبهُ فيمكن ان يطلق الثانية ايضاً . واختلاف الاعتقادات المذهبية مانع عظيم يمنع

وقوع مثل هذا الزواج لانهُ لا يمكن لحنة المذكورة ان تعتنق المذهب الكاثوليكي ونابليون لا يسرّ ان يرى كاهنًا وكنيسة ارثوذكسية في قصر التويلري . وبسبب هذه الموانع كان يطيل اسكندر المخابرات بهذا الموضوع ويرى من وجه اخران من صوالحهِ عقد مثل هذا الزواج فكان عند المخابرة بمثل هذا مع نابليون يسند كلامهُ بان يطلب اليهِ ان يعدهُ وعدًا ثابتًا بعدم اعادة بولونيا وقيامها ثانية . فسئم نابليون من هذه المماطلة والتفت الى عائلة هاالسبوغ النمسوية وبسرعة كلية اجابت طلبهُ فتزوج من ماريا لويزا بنت امبراطور النمسا

فهذا الزواج اغاظ اسكندر جدًا وتاسف من وقوعهِ وعرف ان امبراطور النمسا عرف كيف يقدر على فسخ روابط العلاقة بين فرنسا وروسيا . وثبت عندهُ ايضًا ان اتفاق النمسا وفرنسا يضر بمصالح روسيا الجوهرية في الشرق ولا سيما على الدانوب . وفي سنة ١٨٠٦ كان تاليران قد قدم لنابليون رايًا بان يعوضوا على النمسا اي ان يملكوها الاقاليم الروملية والسلافية وهذا كان يفتح باب عدوانٍ واسع بين روسيا والنمسا . واذا بعدت روسيا عن الدانوب تلتزم بان تلتفت الى اسيا الوسطى والى هندستان ومن هذا ايضًا كان يبقى باب للشقاق

على الدوام مفتوحاً بينها وبين انكلترا . وفي غيروفت ايضاً
قدم ديروك لائحة الى نابليون ومآلها . ان المعاهدة الروسية
مضادة للسياسة الفرنسوية وان املاك فرنسا في ايطاليا والمانيا
تكون متهددة على الدوام من اجراءات روسيا في السرب
واليونان وان روسيا ما كانت تحامي عن بروسيا الاَّ لتستخدم
جيوشها عند اللزوم وانها ما كانت تستحسن مداخلتنا في اسبانيا
الاَّ املاً بان ترى مائتي الف فرنسوي تهلك هناك . وان من
صوالح فرنسا ابعاد الروسية كل الابعاد لينجو الشرق من مطامعها
وان اعادة بولونيا ضروري جداً لمجد فرنسا وسلام اوربا
انتهى . ومن ثم توصل البرنس كوراكين الى نسخة من هذه اللائحة
وقدمها الى الامبراطور اسكندر في اذار (مارس) سنة ١٨٠٩ .
فتذكر القيصر كل ذلك وتوهم ان صعوبة عظيمة ستقف في
طريق مآربه من جرى اتحاد دولتي فرنسا والنمسا

ومن جملة الاسباب التي اسرعت وقوع الحرب بين
الدولتين هو ان في سنة ١٨١٠ قرر مجلس قضاة تموز (جوليه)
ضم هولاندا بتمامها الى المملكة الفرنسوية وقرر مجلس كانون
الاول (ديسمبر) ضم الثلاث مدن الهانسياتيكية ولولدانبورغ
وخلاف اراضٍ جرمانية . وازمعت المجالس تقوم مقام المعاهدات

فكان هذا الانضمام نوعاً من التعدي لان هامبورغ وبرام ولوبك من المدن الحرة ووجودها يفيد تجارة العالم قاطبة ولا سيما تجارة روسيا فصارت مدناً فرنسوية . واعظم شيء من هذا التعدي جرح بهِ قلب اسكندر وحرك فيهِ الحماسة العدوانية ضم اولدانبورغ اذ كان لا يرضى بان يرى اختهُ كاترينا وزوجها مجردين عن تاج الدوقية . على ان عظمة صهرهِ وتشامخهُ لم تدعهُ ان ينبههُ الى مثل هذا العمل لكنهُ قراهُ كباقي الناس في جريدة المونيتور فضلاً عن ان كثيرين من البيت الملكي الالماني بواسطة هذا الافتتاح الوفاقي اصبحوا مجردين عن تيجانهم او بالحري عن امتيازاتهم الجوهرية دون ان تكون روسيا عالمة بذلك

واعهد الى كوراكين بتقديم ملاحظاتهِ الى شامباني وبعثت روسيا الى كل الدول بلائحة تعترض فيها على انضمام اولدانبورغ مع محافظتهِ على صداقة نابليون . ونالت هذه اللائحة شهرة عظيمة غاظت بونابرت وغاظهُ ايضاً الادعاءات التي رافقتها . ولم تحافظ روسيا على المعاهدة من جهة الحصر البري تمام المحافظة وتضايقت جداً من انقطاع التجارة الانكليزية عن بلادها واحتج الاهالي ان ما يمكن لفرنسا ان تقوم بهِ في هذا المعنى لا تقدر ان تثبت عليهِ روسيا لان معامل فرنسا واتساع تجارتها الداخلية

تكفي لان تجعلها مكتفية بنفسها ومستغنية عن غيرها · وفي كانون الاول (ديسمبر) من سنة ١٨١٠ نشر اسكندر امرهُ بمنع خروج المسكوكات من البلاد والامتناع عن استجلاب المنسوجات والامتعة وكل الاشياء التي هي للزينة والمباهاة ويمكن الاستغناء عنها كالحرائر والكشاكش والبرونز والفرفوري ومن جاء بشيء منها يحرق وضرب جزية على الخمر باهظة ليرفع اسعارها فيمتنع الناس عن شربها وعن التبذير وبذلك كان الحصر واقع فعلاً على التجارة الفرنسوية حيث امتنع التجار عن استجلاب ما كان يجلبونهُ منها وقال بونابرت وهو بيأس (الافضل لي ان اصفع نفسي كفاً على وجهي)

ومن ثم اشار كوراكين سفير روسيا في فرنسا على سيدهِ القيصران يكثر من التسليحات وجمع الجيوش والتظاهر بالاستعداد الحربي ليوهم نابليون ويخيفهُ مع علمهِ انهُ من الرجال الذين لا يكرهون الحرب ولا يخافون منها · فارجع القيصر خمس فرق من جيش الدانوب وامر بجمع قرعة جديدة اربعة انفار عن كل خمسمائة نفر واصلح قلع الدون والدنيبر · فهذه الاستعدادات حركت نابليون الى الاسراع والتهيء للحرب وحالاً استعد جيش دوقية فارسوفيا للقتال ولم يبقَ الآن

يصدر لهُ الامر بالمسير وقوّى جيش المانيا الشمالية وارجع من اسبانيا عدة فرق وعلى الاخص فرق بولونيا وجيش نابلي تقدم نحو ايطاليا العليا وجيش ايطاليا نحو بافاريا فهذه الجمعيات العسكرية الكثيرة المقدار دعيت بالجيش العظيم وكانت تغطي البر بتمامهِ من مدريد الى دانتزيك وشعر العالم بقرب حركة عمومية بين الشرق والغرب . وكان رجال سياسة الدولتين يتفاوضان بجدة وبتناقض ولا سيما كوراكين ونابليون وارسل القيصر معتمداً فوق العادة الى باريس وهو تشرنايف فاقتبلهُ نابليون كالواجب ولاطفهُ وهذا فاوم بجدة عن كل المسائل المتعلقة ببولونيا وبالاقاليم الدانوبية وباولدانبورغ وبالحصر البري وباعلان كانون الاول واستعدادات اسكندر التهديدية وابعد جداً الارتياب من جهة افكار القيصر فلم يسمع نابليون الى اعتذاراتهِ ولا وافق على مقاصد دولتهِ من جهة تعويض الخسائر وارجاع اولدانبورغ والتخلي عن دانتزيك . وبقيت خطت تشرنايف بدون نتيجة وقد اسرَّ اليهِ احد مستخدمي الوزراة الفرنسوية بعض اسرار عن الجيش العظيم فحوكم وحكم عليهِ بالقتل وحينئذٍ امر بونابرت ان ينشر في الجرائد جملاً تظهر مقاصد روسيا وضررها باوربا . فمنها . (ان اوربا اصبحت بدون شك ولا ارتياب

فريسة لروسيا بسبب استيلائها على القريم) . وايضاً . (يظهر ان علينا مخاوف كثيرة من غارات روسيا يجب ان نمنعها والاستيلاءات عامة لابد منها يلزم ان نبطلها) وفي ذلك الوقت نشر لزور كتابهُ المشهور المدعو (نجاح الدولة الروسية) . حيث اذاع اول مرة الدلائل المختلف على صحتها وهي وصية بطرس الاكبر . وان لم يكن لهذه الوصية صحة او شبه صحة ولم يذكرها مورخو حياة بطرس ولا عرفت في اوربا او غيرها قبل ذلك الحين ارتأينا ان نذكرها هنا وقد نقلناها حرفياً عن جريدة الجنان التي تطبع في بيروت (سنة ١٨٧٦ وجه ٧٩٥)

اولاً . على ملوك الروسية ملازمة الحرب لتكون جيوشهم دائماً على حال الرياضة والاستعداد فلا يكفوا عن الحرب الا لاصلاح شان المالية وجبر مانقص من العساكر وتربص فرصة الهجوم على الاعداء فالحرب والصلح يتناوبان حسبما تقتضيه الحاجة نظراً الى توسيع دائرة شوكتنا وفلاح البلاد

ثانياً . عليهم ان يجلبوا من سائر الاقطار الاورباوية العارفين بالفنون الحربية مدة الحرب واما مدة الصلح فعليهم جلب من اشتهر من العلماء لتنتفع الروسيا بما للامم الاخرى من دون خسارة مالها طبيعة

ثالثاً . عليهم التداخل في سائر احوال المالك الاورباوية وخصوصاً المانيا لقربها الينا

رابعاً . التداخل في احوال بولونيا وفي انتخاب ملوكها حتى لا ينتخب الا المحب لروسيا وادخال جيوشنا بها لحماية هولاء الملوك الى ان يتيسر التسلط على البلاد راساً فان تعرضت الدول الاخرى تجب الاجابة الى مطالبهم الى ان نقدر على استرجاع ما سلمناه

خامساً . ناخذ من مملكة السويد ما يمكن اخذه ونجعل بينهم وبين الدانمرك عدواناً دائماً

سادساً . لا يتزوج اهل بيتنا الا بنات ملوك المانيا لتاكيد المحبة بين الروسيا والالمانيا وتكثير وسائل المواصلة بينهما

سابعاً . يجب الاعتناء بمحالفة انكلترا لما لها من الحاجة الى اشجارنا لسفنها ولما نستفيده منها نظراً الى اصلاح شان اسطولنا فضلاً عن فائدة تبديل مالنا من الخشب وغيره من النتائج بذهب انكلترا وما ينشأ منهُ من كثرة المواصلة بين تجارنا وتجارها

ثامناً . نمتد بقدر الامكان من جهة الشمال وعلى شواطي البلطيك كما يجب السعي بالامتداد من جهة المغرب وعلى شواطي

البحر الاسود

تاسعاً . نقرب القسطنطينية والهنود بقدر الامكان فمن ملك القسطنطينية فقد ملك الدنيا فبناء على ذلك ينبغي ملازمة الحرب مع الترك ومملكة الفرس وجعل ترسخانات بشواطي البلطيك والبحر الاسود وهذا من اللازم لنجاح ما قصدناه ونسعى ايضاً في تعجيل ما اخذت فيه مملكة الفرس من الاضمحلال وتنشيط التجارة التي كانت سابقاً بين الشام وجبل قاف فنتقدم الى الهنود التي هي مخازن الدنيا وان حصلنا على ذلك لا حاجة لنا بذهب انكلترا

عاشراً . يجب السعي في تاكيد المحبة مع دولة النمسا باسعافها ظاهراً على ما قصدته من التسلط على المانيا مع اننا نحرض عليها ملوك المانيا سراً

حادي عشر . نشارك النمسا فيما قصدناه من اخراج الترك من اوربا فان ظفرنا بالاستيلاء على القسطنطينية واظهرت دولة النمسا شيئاً من الغيرة لاجل ذلك فاننا نحث دولة من دول اوربا على محاربتها او نسلم لها جانباً مما حصلنا عليه ونسترجعهُ في اول فرصة

ثاني عشر . نجمع سائر الاغريق الذين ببولونيا وبممالك

النمسا ونسعفهم بقدر الامكان بالحماية والدفاع عنهم حتى يكونوا لنا احباء ما بين الاعداء

ثالث عشر . بعد الاستيلاء على مملكة السويد وغلبة الفرس وبولونيا والتسلط على الممالك العثمانية وجمع جيوشنا ودخول اساطيلنا بالبلطيك والبحر الاسود نشرع في المفاوضة السرية مع فرنسا او دولة النمسا في قسمة الدنيا بيننا فاذا ارتضت احدى الدولتين ما نعرضهُ عليها نستعين بها على قهر الاخرى ثم نهجم عليها ونغلبها ولا يصعب علينا ذلك حينئذٍ حيث يكون بيدنا ملك المشرق ومعظم اوربا

رابع عشر . ان امتنعت كلتا الدولتين المذكورتين مما نعرضهُ عليهما وهذا مما يبعد وقوعهُ يجب السعي بتحريض احداهما على الاخرى فنتربص الفرصة ونهجم على المانيا بجيش عظيم ونوجه اسطولين الى البحر المحيط والبحر الاوسط للاستيلاء على فرنسا فبعد قهر فرنسا والمانيا لا يصعب الاستيلاء على بقية ممالك اوربا . انتهى

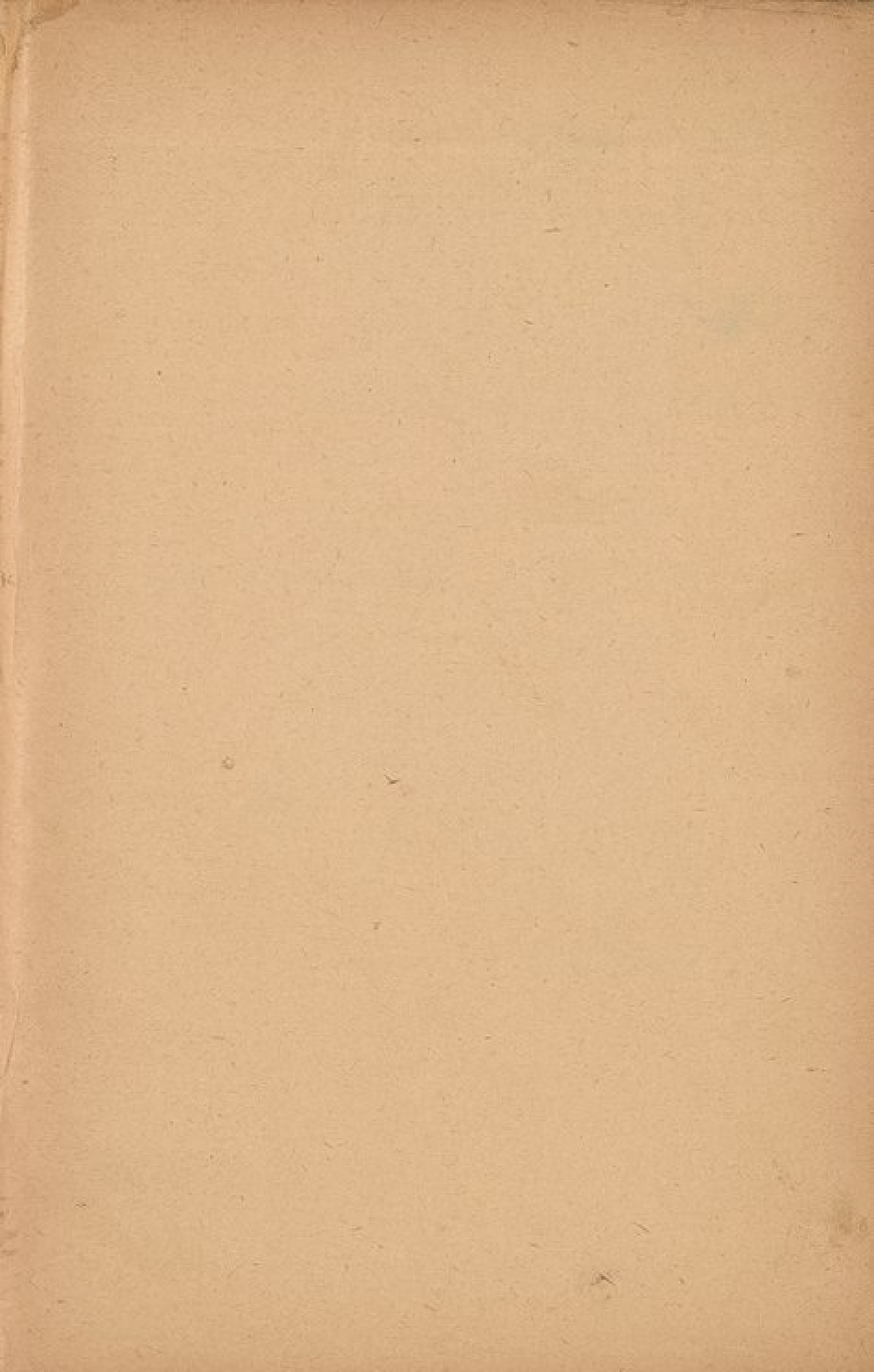
وكان نابليون يتهم كولنكور سفيرهُ في روسيا بانهُ ذو سياسة روسية وانهُ يتساهل مع الدولة المذكورة ويراعي صوالحها على صوالح اوربا ولذلك طلبهُ الى باريس واقام

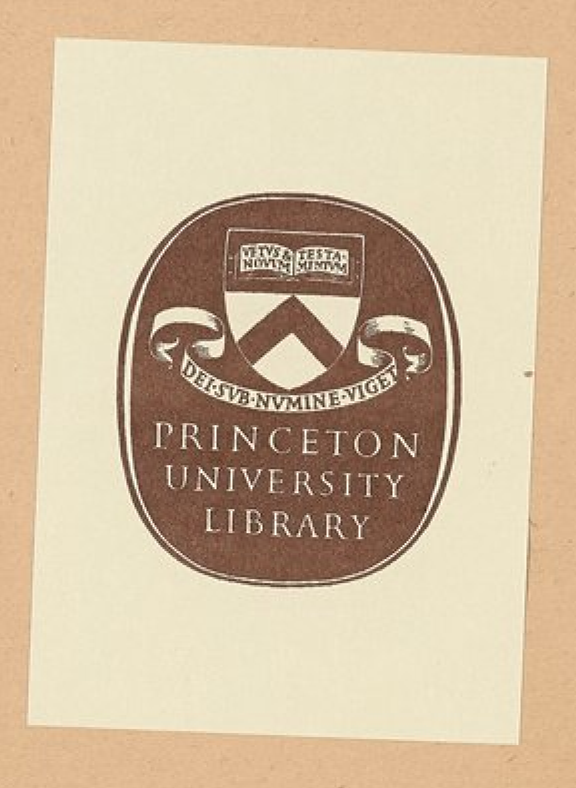
عوضهُ لوريستون وهذا كان لا يعتمد قط على اقوال القيصر ولا يركن اليهِ ومن ثم اصبح كل شيء يدل على الحرب وصار كلٌّ من الامبراطورين يرغب في اطالة المفاوضات ليتمكن من الاستعداد الحربي الكافي. وفسخ معاهدتي تلسيت واورفورث ظهر عيانًا لدى العالم قاطبة واضطربت السياسة بين الدولتين وعزل اسكندر بغتة سبيرانسكي صديق فرنسا. واسرعت روسيا الى عقد الصلح مع الدولة العلية وخابرت اسوج بالاتحاد وانكلترا بالامداد المالي ففازت بالنجاح التام. وكذلك نابليون عقد معاهدتين مع بروسيا والنمسا كان منهما ان تقدم لهُ بروسيا عشرين الف جندي والنمسا ثلاثين الفًا. وفي ٩ ايار (مايس) سنة ١٨١٢ ترك نابليون باريس وخرج الى درست ليقوم في وسط جيشهِ وسحبت السفارتان وخرج الوكلاء السياسيون من مراكزهم السياسية الى اوطانهم وفتحت الحرب الشديدة التي حرقت فيها موسكو وهلك الجيش الفرنسوي العظيم وسقط بسببها نابليون

انتهى المجلد الثاني ويليهِ المجلد الثالث

واني التمس من قرّائهِ الكرام ان يتغاضوا عن القصور الواقع وعن الاغلاط التي سقطت فيهِ






VETUS & NOVUM TESTAMENTUM
DEI SUB NUMINE VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY


Princeton University Library
32101 080890328